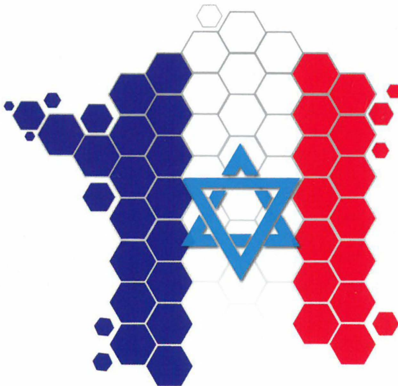
شاكر نوري

اللوبي الصهيوني في فرنسا

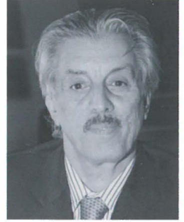
من ثُكْنة عسكرية إلى كواليس الإليزيه





شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شاكر نوري



- كاتب وإعلامي عراقي مغترب، عمل في التدريس والصحافة.
- حاصل على شهادة الدكتوراه في الإعلام من جامعة السوربون - باريس ١٩٨٣.
- أصدر عدداً من الكتب الفكرية والنقدية منها ثلاثة كتب في الحوارات «الجن والمتاهة: حوارات مع آلان روب غرييه»، و«وصيتي إلى القرن الحادي والعشرين: حوارات مع روجيه غادروي»، و«منفى اللغة: حوارات مع الكتاب الفرانكوفونيين»، وسبع روايات: «نافذة العنكبوت»، «نزوة الموتى»، «المنطقة الخضراء»، «ديالاس بين ديه»، «كلاب جلجامش»، «شامان»، و«مجانين بوكا».
- يعمل في الصحافة حالياً.

اللوبي الصهيوني في فرنسا

- أول كتاب يميط اللثام عن الحالة اليهودية والصهيونية في فرنسا.
- يضيءُ حيثُ كُرِّسَ التعتيم المتعمّد الذي يُتيح للوبي الصهيوني التحرُّك بثقة والعمل بهدوء وفق أجندة صهيونية.
- يبيّن إلى أي مدى دخل اليهود والصهاينة وتداخلوا في المجتمع الفرنسي حيث:
  - وصلوا إلى بوابة الإليزيه وفرضوا آراءهم وتوجّهاتهم.
  - توغّلوا في المؤسسات المالية والمصرفية.
  - تربّعوا على وسائل الإعلام مرئية ومسموعة ومكتوبة.
  - شكّلوا أحزاباً سياسية وانتموا إلى أحزاب سواهم.
  - نشروا مؤلفاتهم الأدبية والفنية على نطاق واسع.
- يقدّم معلومات مستفيضة عن الجالية اليهودية الضخمة في فرنسا: أصولها، حجمها تطلُّعاتها، أفق تحرُّكها، وما طرأ عليها من تغيُّرات.

ISBN 978-9953-88-794-4



شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب. ٨٣٧٥: - بيروت - لبنان

تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٩٦١١٣٥٠٧٢٢+

تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٩٦١١٧٥٢٥٤٧+

tradebooks@all-prints.com

www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شاكر نوري

اللوبي الصهيوني في فرنسا

من ثُكْنة عسكرية إلى كواليس الإليزيه



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٣

ISBN: 978-9953-88-794-4

صورة الغلاف: Robert Biedermann ©

تدقيق: محمد زينو شومان

تصميم الغلاف: داني عوّاد

الإخراج الفني: بسمة تقي

المحتويات

الفصل الرابع

التغلغل الصهيوني في فرنسا

الفصل الخامس

اللوبي الصهيوني في كواليس قصر الإليزيه

الإهــداء

إلى رجاء .. الشجرة التي منحتني ثمارها...كنان وأرجوان وركان ...
وجعلتني أستعيد طفولتي في كل لحظة .

وافق مجلس بلدية باريس بالإجماع (أحزاب اليمين والحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي وحزب الخضر...) على تسمية إحدى ساحات باريس على ضفاف نهر السين، باسم «ديفيد بن غوريون»، أول رئيس وزراء إسرائيلي، ودشنها رئيس البلدية «الاشتراكي» بحضور «شمعون بيريس»، وكانت بلدية باريس قد أعطت اسم «ثيودور هرتزل»، مؤسس الحركة الصهيونية، و «إسحاق رابين»، لساحات أخرى في باريس، وعقب ذلك، انطلقت تظاهرات عديدة اعتقلت في إثرها الشرطة ٤١ من المحتجين الذين تظاهروا ضد هذه التسمية، التي لم تكن تعني شيئاً بالنسبة إلى المواطن الفرنسي.

تقديم

شاكر نوري يشرِّح «الصهيونية في فرنسا»

بقلم: إنعام الجندي

هل تختلف الصهيونية من بلد إلى بلد؟

إنها حركة عنصرية عالمية، لا تختلف أهدافها وغاياتها. وتحاول أن تستغل كل بلد انطلاقاً من دراسة دقيقة علمية لواقعه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والديموغرافي. كما تستغل اليهود حسب مناشئهم، وتربيتهم، وتقاليدهم الدينية، وظروفهم، وأوضاعهم المعيشية. فتعاملها مع «الفلاشا» أو يهود المغرب العربي، غير تعاملها مع يهود أوروبا. لذلك تختلف نشاطاتها وطبيعة عملها، حسب المكان والزمان والناس. وإذا كانت في بلد ما تستند إلى إنشاء الجمعيات والنوادي ولجان الصداقة، فإنها في مكان آخر تستند إلى المساعدات، أو الترغيب أو الترهيب، أو أي أسلوب يساعد على تأثير دعاواها، وتحقيق غاياتها.

الحركة الصهيونية في فرنسا غير قريبة العهد، ولكن كتاب الدكتور شاكر نوري «اللوبي الصهيوني في فرنسا» يتناول ستة وتسعين عاماً من تاريخها، بدءاً بقضية «دريفوس» الشهيرة، وانتهاءً بآخر السبعينيات.

يشير الدكتور نوري منذ البداية إلى أن كتابه معْلم على طريق التوسّع في دراسة هذا اللوبي، فلا يمكن أن يحيط بها وبكل نشاطاتها تفصيلياً كتاب واحد. ولئن صدرت من قبل في العربية، كتب عديدة عن الحركة الصهيونية، عموماً، أو في بعض البلدان، فإن كتاب الدكتور نوري، اقتصر على ما يتصل بها في فرنسا وحدها، وقد اعتمد على مراجع كثيرة، منها الصحف والمجلات الصادرة في خلال الفترة التي

تناولها الكتاب، والكتب والدراسات، سواء المنشورة، أو المحفوظة في المكتبات، ولم يستثن مراجع الحركة الصهيونية نفسها، وهي كثيرة في المكتبات الجامعية أو العامة. وأثبت في آخر الكتاب دليلاً لمن شاء أن يتوسع في البحث، أو يستقي المعلومات التفصيلية.

يعرض الكاتب، بالأرقام والتواريخ والأسماء، تفاصيل النشاط الصهيوني على كل صعيد: في الجمعيات، في الدوائر الرسمية، في الأحياء، في المنظمات السرّية والعلنية، وحتى في حياة الناس الشخصية.

ويذكر الأساليب التي اتبعتها وتتبعها لضم اليهود الفرنسيين إليها، ولإغرائهم بالتخلي عن جنسيتهم، والرحيل إلى فلسطين لدعم الكيان الصهيوني بالعيش فيه، والمساهمة في بنائه.

ويرسم صورة واضحة عن وسائل الصهيونية لمنع اليهود القادمين إلى فرنسا، خصوصاً من المغرب العربي، من التجنُّس الفرنسي وحملهم على السفر إلى تل أبيب. وكيف تحارب أولئك الذين يتصدّون لهذا المسعى، وكيف تضغط على ساسة فرنسا حتى يساعدوها في خططها ولا يعترضوا على ما تحاول تحقيقه.

كما يعرض وسائل الترهيب التي تسلكها، واللاسامية التي تتذرّع بها، وأساليب إشعار اليهود بأنهم مضطهدون حيثما كانوا وحيثما حلّوا ولا ينسى أولئك الذين وقفوا ضدها، حتى من اليهود، والحملات التي شنتها عليهم، والتصفيات الجسدية التي قامت بها ضدهم.

ويكشف عن الشرائح الاجتماعية اليهودية، وأثرها في الموقف من أهداف الصهيونية، ويتعرّض للجانب الاقتصادي، وأين يساعد وأين يصبح حجر عثرة في وجه الخطط الصهيونية ويتحدث عن الفروق بين السفارديم والأشكيناز، وتأثير ذلك في نشاط الصهيونية، وموقفها من الطرفين، والتميز بينهما في المعاملة والتوجه، والاحترام أو الاحتقار. وتشديدها على ترحيل الأشكيناز، أكثر من السفارديم، رغبة في زيادة العنصر الأبيض الأوروبي في الكيان الصهيوني.

ويشير إلى الحركات التي تسرّبت إليها الصهيونية، سواء منها الأحزاب أو التجمعات، أو اللجان، حتى على الصعيد الثقافي.

ولعل من اللافت للنظر أمرين: موقف الصهيونية العنصري من اختلاط اليهود بمحيطهم، خصوصاً تحريم زواج اليهودي أو اليهودية، من أتباع الأديان الأخرى، حفاظاً على «صفاء الجنس والعِرق، وهي نظرة كانت تدينها في النازية». والثاني أن هناك أسماءً مشهورةً على مسرح السياسة الفرنسية، بعضها توصل إلى مراكز أساسية في الدولة، كان لها دور كبير في الحركة الصهيونية وعملت، من خلال مناصبها، على تنفيذ ما طلبته الحركة إليها.

ولا ننسَ أسماء بارزة في عالم المال والاقتصاد، لعل أبرزها عائلة روتشيلد، التي موّلت وساهمت وقادت كل تحرك صهيوني، ولا تزال، في خلال قرن كامل من الزمن.

طبيعي أن هذه إشارات، لا تفي بكل ما ورد في الكتاب، ففي كل صفحة تفصيل جديد، أو معارف لم تطلع عليها من قبل. أضف إلى ذلك أن الكاتب حرص طوال صفحات الكتاب على تجنب أي حشو أو تطويل. لذلك جاءت المعلومات جميعاً واضحة ومختصرة. ولا بد من الإشارة في نهاية المطاف، إلى أن كتاب «اللوبي الصهيوني في فرنسا» هو الأول في نوعه في هذا المجال، وهو يسد ثغرة كبيرة في المكتبة العربية، لما يتّصف به من موضوعية وعمق في التحليل.

المقدمة

على الرغم من أن الوثائق التاريخية تشير إلى وجود اليهود في فرنسا منذ القرن الرابع، إلا أن بحثنا الحالي سيتناول بالتحديد الفترة التاريخية (١٨٩٤-٢٠١٢) أي منذ بدء قضية دريفوس الشهيرة، التي استوحى منها مؤسس الصهيونية، تيودور هيرتزل بعد مرور ثلاثة أعوام مؤلفه «الدولة اليهودية»، الذي رسخ دعائم النظرية الصهيونية.

ظهرت أولى بوادر الصهيونية في خلال أكثر من مائة عام، وترعرعت في كنف المجتمع الفرنسي، وشكلت فيما بعد، منظماتها وصحافتها، ومؤسساتها المالية، وعلاقاتها بالأحزاب والحكومات مستفيدة من كل ما يمنحه النظام الرأسمالي الفرنسي من دعم ومساندة. إن تتبّع النشاط الصهيوني في فرنسا منذ قضية دريفوس حتى الوقت الحاضر، لمهمة صعبة جداً لأن الحركة الصهيونية، نشأت وتكونت من خلال الأحداث المتعاقبة. النشاط الصهيوني، متعدّد الجوانب والميادين، فقد تخلل المنظمات، والأحزاب، والصحافة، والكتب، والأعمال الأدبية والفنية. بطبيعة الحال، من الخطورة الكبيرة أن نصف كل ما هو يهودي بالصهيوني، سواء على صعيد الفكر أو التنظيم أو الممارسة. يمكننا القول، إن الصهيونية وجدت أرضاً خصبة لترويج أفكارها، وخصوصاً بين الجالية اليهودية، حيث وحّدت كل مقوّمات العمل السياسي ـ الفكري. وامتدّ أخطبوط الصهيونية إلى مناحٍ متعددة أخرى، ولم يقتصر نشاطها على الجالية اليهودية، بل امتدّ إلى المفكرين ورجال السياسة والشخصيات الفرنسية التي لا تنتمي إلى الديانة اليهودية. وكان لا بد للصهيونية من أن تؤثّر في توجيهها في الكواليس الخلفية. ولعل تغلغلها في مجال الصحافة والرأسمال لا يمكن إغفاله بأي شكل من الأشكال.

لا بد من الإشارة إلى أن الفترة التي ندرسها تتميز بخصوصية معينة، منذ العام ١٨٩٤، وقعت أحداث خطيرة أثرت في الحركة الصهيونية سلباً أو إيجاباً منها: قضية دريفوس ١٨٩٤، الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨، إعلان وعد بلفور ١٩١٨، ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى ١٩١٧، الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥، إعلان الدولة الصهيونية ١٩٤٨، استقلال بلدان المغرب العربي ١٩٥٦-١٩٦٢، حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، حرب تشرين ١٩٧٣، الاجتياح الإسرائيلي للبنان ومذابح صبرا وشاتيلا ١٩٨٢.

لم نكن نستهدف، في عرضنا للحركة الصهيونية، كتابة التاريخ، بل حاولنا مراعاة التسلسل التاريخي لمنطق الأحداث، وكان من الطبيعي أن ندرس أوضاع الجالية اليهودية التي ترعرعت من خلالها هذه الحركة. وحاولنا قدر الإمكان بحث عناصر نشوء الحركة الصهيونية في فرنسا في السياق العام للنظرية الصهيونية، ومن خلال عشرين فصلاً طرحنا التساؤلات الآتية:

- هل هناك أمة يهودية لحركة تحرر وطني عالمية لليهود؟
- هل يحل تركيز اليهود في أرض فلسطين المسألة اليهودية؟
- هل معاداة السامية خالدة أم قابلة للزوال؟
- هل تتماثل المفاهيم الثلاثة، اليهودي، إسرائيل، الصهيونية؟

من خلال تحديد سمات الحركة الصهيونية في فرنسا، يمكننا أن نعثر على هذه العناصر عبر التطورات التي طرأت على الجالية اليهودية بالرغم من سعي الدعاية الصهيونية إلى إخفاء أي تناقض أو مغايرة. في كل فصل من فصول الكتاب، حاولنا جاهدين أن نكتشف هذه العناصر الأربعة ـ أسس الصهيونية ـ من خلال الأحداث الواقعية، وتشابكاتها عبر التطور التاريخي للحركة الصهيونية منذ بداية قضية دريفوس حتى الوقت الحاضر.

لا بد من الإشارة إلى أننا أفردنا فصلاً عن المعارضين للصهيونية من المفكرين

اليهود الفرنسيين لكي يدرك القارئ أن الصهيونية ليست الفكر المطلق لليهود من ناحية كما تدعي هي، وأننا لسنا متعصبين ضد الصهيونية من دون موضوعية علمية من ناحية أخرى. كما أن أولئك المفكرين يضيفون عناصر جديدة إلى مسألة تفنيد النظرية الصهيونية ونقدها بشكل يساعد على فهم هذه النظرية المبنية على عنصرية ـ استعلائية ـ استعمارية، هدفها التوسع والقضاء على كياننا العربي ـ الإسلامي.

أما ما يخص مصادر البحث، فإننا بطبيعة الحال، التجأنا إلى المصادر الفرنسية، بكل تياراتها واتجاهاتها الأيديولوجية، لكننا لم نضع الهوامش لأننا ندرك بأن هذا الأسلوب المتبع أكاديمياً، إنما يضيع على القارئ فرصة التتبع المستمر، لذا من الممكن أن يعود إلى البيبليوغرافيا المخصصة لهذا الغرض. كما أن طغيان الفكر الصهيوني على معظم المصادر زاد في صعوبة البحث والتفكير، إذ شعرنا منذ البداية بأننا نطأ أرضاً ملغومة، لكن كان لابد من القيام بهذه المغامرة، والسير بين الألغام، بمزيد من التأني والتأمل والحذر.

إن الأسباب التي دفعتنا إلى تأليف هذا الكتاب تعود أولاً: إلى أن الجالية اليهودية الفرنسية تمثل أكبر جالية يهودية في أوروبا وثالث جالية في العالم بعد جالية الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، إذ يراوح عددها ما بين الـ ١٠٠ ألف والـ ٦٠٠ ألف نسمة. ثانياً: تتمتع المنظمات الصهيونية بنفوذ مؤثّر واسع في الغرب ما يمثل خطراً كبيراً على السياسة الفرنسية وخصوصاً إذا ما عرفنا أن لفرنسا علاقات سياسية واقتصادية وثقافية واسعة مع العرب. فالهدف من وضع هذا الكتاب هو إلقاء الضوء على مجمل الحركة الصهيونية في فرنسا، بكل تشعباتها وتنظيماتها وصحافتها وخصائصها الفكرية، وكذلك دورها في ترويج الكيان الصهيوني ومساندته.

كما قلنا إن هذا البحث لم يكن سهلَ المراس، ذلك لأن معظم ما ينشر من كتب ومقالات ونصوص يتسم بالنّبرة الصهيونية ـ العدائية السائدة. ولا نستغرب أن نرى مفكري أوروبا يتخذون مواقف إزاء الصهيونية تتميز بـ «العنجهية» التي تؤثر بدورها في الفكر الغربي. كما ينبغي ألا ننسى أن أوروبا وأميركا تنظران إلى «إسرائيل»

على أنها نموذج حضاري غربي نُقل إلى الشرق، ينبغي حمايته والحفاظ عليه. ومما يؤسف له حقاً أننا بقينا طوال أكثر من مائة عام، نحتفظ بموقف سلبي إزاء النشاط الفكري ـ الصهيوني، وذلك إما بتجاهله وإما بمنعه وإما باتخاذ موقف الصمت منه. وقد أدى ذلك إلى احتلال الصهيونية مواقع كبيرة ومؤثّرة في الرأي العام العالمي. وهذا الأسلوب لا ينفع، بطبيعة الحال، معركتنا الفكرية ضد الصهيونية. فالطريق الأمثل، من دون شك هو مواجهة هذه الأيديولوجيا والكشف عن زيفها وكذبها وأسلوب عملها، خصوصاً وقد أضحت هذه الأيديولوجيا كالأخطبوط الذي يمتد ويتغلغل في الغرب.

إن الحركة الصهيونية في فرنسا، التي لجأت إلى مختلف الوسائل الدعائية والأدبية والفنية والسياسية، وتغلغلت في جميع الميادين، لابد أن نواجهها مواجهةً علميةً على مستوى الدراسة والبحث والاكتشاف. كما ينبغي أن أشير إلى أنني كنت أؤمن منذ البدء بصعوبة هذا البحث واتساعه، وأدركت أيضاً أن الكتابة الكاملة والمفصلة عن الحركة الصهيونية في فرنسا، لا تفوق الطاقة الفردية فحسب، وإنما طاقات القارئ غير المتخصص. إن هذه الحركة العالمية التي تضمّنت آلاف الصفحات من المنشورات ومئات المؤتمرات والتنظيمات والتجمعات، ومئات الصحف والمجلات.. لا أبالغ إذا قلت إن كل فقرة من فقرات كتابنا هذا يمكن أن تتطور وتغدو كتاباً مستقلاً، وذلك لاتساع الموضوع وتشعباته المحلية والعالمية وارتباطاته بالحركة الصهيونية العالمية، لكني آثرت أن أركز من خلال هذا الكتاب على المحاور الرئيسية، التي تطورت من خلالها الحركة الصهيونية في فرنسا خصوصاً وأن الموضوع لم يبحث من قبل في كتب عربية سابقة، ولعل إقامتنا نحو ثلاثين عاماً في فرنسا، وباريس، على الخصوص، ساعدتنا على مراقبة هذا النشاط بشكل ملموس.

شاكر نوري

٣٠ أيلول/سبتمبر ٢٠١٢

الفصل الأول

بنية الحركة الصهيونية

وتركيبها الاجتماعي ـ التنظيمي

- ١ -

تركيب الجالية اليهودية الاجتماعي

تتكون الجالية اليهودية من ٦٦٠ ألف نسمة حسب الإحصاءات الرسمية، إلا أن عددها الحقيقي يصل إلى أضعاف هذا الرقم وهي منتشرة في جميع الأراضي الفرنسية. واليهودي حسب التعريفات الشائعة هو الشخص الذي يولد من أم يهودية، أو يعتنق اليهودية طبقاً لشروط التنظيم اليهودي المعروف باسم تجمع الكهنة Consistoire.

وبالرغم من الدراسات والتحقيقيات العديدة، لا يزال تركيب الجالية اليهودية الفرنسية الاجتماعي غير واضح المعالم. على أية حال، تتميز الجالية اليهودية بتنوعها الاجتماعي إذ تجمع بين الأرستقراطيين كروتشيلد على سبيل المثال، والبرجوازية الكبيرة والطبقة العاملة. وإضافة إلى ذلك، هناك فئات الفقراء المعدمين. ومعظم الطبقة العاملة جاؤوا من أوروبا الوسطى وكانت لديهم مؤسسة تسمّى «اليد العاملة المهاجرة» Main d'œuvre immigrée غير أن هذه «البروليتاريا» الأوروبية الأصل قد تلاشت لتندمج في صفوف البرجوازية الصغيرة والمتوسطة. وأصبح أفراد البروليتاريا اليهودية الحالية من أصل مغربي.

في السابق، كانت طبقة العمال اليدويين Artisans وطبقة التجار Commerçants هما الغالبيّة غير أن أفراد هاتين الطبقتين أخذوا بالتناقص. وهذه الأعمال تتركز بصفة خاصة في مهنة بيع الأقمشة والأزياء والملابس في أحياء مثل «لي سانتيه» و«ري دي تامبل». وبمجيء اليوغسلاف والباكستانيين والأتراك إلى فرنسا لم تعد الطبقة العاملة تتكون من الجالية اليهودية. كما أن ارتفاع نسبة التعليم في صفوف الجالية

أدى إلى ارتفاع عدد الكوادر اليهودية في مختلف المجالات. وتشير إحصاءات عديدة إلى أن ما يقرب من ربع حجم الجالية اليهودية قد أنجزوا دراساتهم العليا. ونحصي عدداً كبيراً من المحامين والأطباء والصيادلة والكوادر العليا وخصوصاً في ميادين البنوك والمصارف وشركات التأمين والأشغال العامة. كما يلاحظ ارتفاع نسبة ذوي المهن الصغيرة والموظفين بسبب وصول اليهود من شمال إفريقيا إلى فرنسا. ومن الميادين التي تزداد أهمية بشكل ملموس، شركات التأمين والبنوك التي تبلغ نسبتها ما يقارب الـ ٥٠٪ والخدمات الإدارية العاملة تبلغ نسبتها ٢٠٪، أما في مجال العروض الفنية فيزداد عددهم كما في ميدان النشر والصحافة. وتنتشر الخدمات الإدارية العامة التي يشغلها اليهود في العاصمة. وما يعادل ربع اليهود الساكنين في الضواحي الباريسية هم من الموظفين. وهذا الميدان يتضمّن، بطبيعة الحال، عدداً كبيراً من المهن تراوح بين الموظف البسيط والأستاذ الجامعي أو الباحث في «المركز الوطني للأبحاث العلمية» C.N.R.S وأعمال السخرة. أما في ميدان الزراعة فيكاد يكون وجود اليهود منعدماً. ويلاحظ تراجع التجار والعمال اليدويين المستقلين أمام الكوادر المتوسطة والموظفين والكوادر العليا والمهن الحرة. ومن بين العاملين اليهود الفعليين، تتقاضى نسبة ثلاثة أرباع منهم الرواتب. والحقيقة، أن اليهود متغلغلون في جميع مجالات الحياة الاقتصادية.

على صعيد تقسيم الجالية اليهودية الجغرافي، يلاحظ تلاشي الأحياء اليهودية التقليدية مثل «شتيل» Shtetl أو «ملاح» Mallah، ففي هذه الأحياء كان اليهود يتجمعون عند وصولهم إلى فرنسا. ولعل من ساهم في اختفاء الأحياء اليهودية التدريجي هم يهود أوروبا الوسطى منذ نهاية الخمسينيات، فقد غادروا هذه الأحياء بسبب تحسن أوضاعهم المعيشية كما غادر اليهود العرب أحياءهم المعروفة مثل «بيل فيل» Belleville و«سان بول» Saint Paul و«فوبوري مونتمارتر» Faubourg Montmartre واتجهوا إلى الضواحي الباريسية مثل «سارسيل» Sarcelles و«كريتي» Cre'teil.

وقد أدى تجديد تركيب العاصمة الفرنسية المدني إلى انتقال يهود أحياء الدائرة الرابعة والثالثة عشرة والعشرين إلى الضواحي الباريسية النائية. وهناك ظاهرة أخرى وهي مغادرة الشباب اليهودي الضواحي والتوجه إلى داخل باريس، ومن المحتمل أن يؤدي ذلك إلى إعادة تكوين هذه الأحياء وعودة الاتصال بمركز اليهودية. ولهذا السبب، أصبحت أحياء الدائرة الرابعة والحادية والعشرين أماكن تجمع الشباب اليهود في باريس. وأما اليهود المغاربة والجزائريون فإن مغادرتهم الأحياء التقليدية تعد نوعاً من الصعود الاجتماعي يعوض انقطاعهم عن الجذور.

إن ظاهرة انتشار الجالية اليهودية وعدم تمركزها في أماكن محدّدة، تؤدي إلى انعكاسات عميقة على تصرفاتهم وسلوكهم في المستقبل. كما يؤدي ارتفاع نسبة اليهود ذوي المراتب المحددة إلى اختفاء بعض أنواع المهن أو تحديدها في طبقات اجتماعية مهنية. كانت لدى التجار مواقع معينة في منظمات الجالية وعلى الخصوص حركة «الانبعاث اليهودي» Renouveau Juif و«المنظمة الدفاعية اليهودية» Organisation Juive de Défence و«فيدرالية يهود فرنسا» Fédération de Juifs de France، ويرى المراقبون أن ارتفاع عدد اليهود في الوظائف العامة أدى إلى انحلال العلاقات بين أفراد الجالية، بالرغم من ظهور فئة الموظفين الكبار الذين يحاولون التوفيق بين وظائفهم وانتماءاتهم الأخرى. فالانتقال المستمر بين المناطق الخالية من التركيبة الدينية ـ اليهودية يفرض على الموظفين التزامات أخرى تبعدهم عن الاندماج في الجالية.

أما بالنسبة إلى يهود المغرب العربي فيمارسون المهن التي كانوا يمارسونها في بلدانهم الأصلية كالوظائف الإدارية المتواضعة. ويعتبر إبعادهم عن المراكز اليهودية الرئيسية عاملاً في انفصالهم عن الديانة اليهودية Déjudaisation، ويختلف الأمر فيما يخص الأشخاص الذين ينتمون إلى مهن التدريس الثانوي والجامعي ويتولد لدى هؤلاء اتجاه واضح للاندماج في المجتمع الفرنسي الذي أصبح محيطهم الطبيعي.

ثمة عدد كبير من المدرسين اليهود العاملين في المؤسسات التعليمية العلمانية

ما يؤدي إلى انفصالهم عن جاليتهم الأصلية وكثيراً ما يجهلون ماضيها وثقافتها وتقاليدها. ومهما اختلفت ميادين العمل فإن تبلور ظاهرة ذوي الرواتب المحدودة، سيقلل من دون شك، من انتمائهم إلى الجالية إذ يصبح من الصعوبة توحيد أنماط الحياة والقيم الثقافية.

من بين الجالية اليهودية يمكننا أن نميز بين ثلاثة أصول مختلفة.

أولاً: اليهود الأصليون القاطنون في فرنسا منذ عدة قرون، وخصوصاً القرون الوسطى البعيدة.

ثانياً: اليهود المنحدرون من أوروبا الوسطى والشرقية الذين جاؤوا وسكنوا فرنسا منذ العام ١٨٨١.

ثالثاً: اليهود الشرقيون القادمون من حوض البحر الأبيض المتوسط وغالبيتهم من يهود المغرب.

لكن أهمية اليهود المحليين أخذت بالتناقص في القرنين التاسع عشر والعشرين نتيجة لعاملين أساسيين هما مسألة الاندماج Assimilation والهجرة immigration. وقد تركز هذا الانحلال في الجالية اليهودية القاطنة في المحافظات الفرنسية، وعلى الخصوص في الجنوب الشرقي مثل مدينة أفنيون وكومتافينسين وجماعات اليهود البرتغاليين في الجنوب الغربي مثل بوردو وبايون. ولم يبق من أولئك سوى القليل إذ إن غالبيتهم انخرطت في الدين المسيحي. وإلى هذه المجموعات ينتمي أشخاص مثل رونيه كاسان الحائز جائزة نوبل للسلام وداريوس ميلو، وارمون لونيل، وبيير ماندس فرانس، وربما تختفي هذه المجموعات في خلال السنوات المقبلة بسبب اختفاء مزيتهم الدينية المعينة. أما أقوى وأقدم نواة فهي الجالية القاطنة في منطقة «الألزاس واللورين» فقد أنتجت أفراداً اشتهروا خصوصاً في ميدان السياسة مثل ليون بلوم، وسيمون في، ودانيل مايير، وجول موش، وبيير دريفيس. ولهذه الجالية تأثير قوي في بعض المنظمات. أما المجموعة الثانية، المنحدرة من أصل أوروبي «أشكيناز» Ashkenaze فمكونة من يهود أوروبا الوسطى والشرقية. وكانت هذه

المجموعة تشكل الغالبية الساحقة داخل اليهودية الفرنسية قبل الحرب العالمية الثانية، وتقدر بثلثي الجالية ومن هذه المجموعة، برز عدد كبير من الشخصيات الهامة مثل جان ـ بيير ميلفيل، أندريه كلوكسمان، ماريك هالتر، وكلارا مالرو، وليونيل ستريلو، وأندريه كراسوكي، رئيس النقابة العمالية C.G.T الشهيرة وروبرت بادنتير (وزير العدل حالياً) وشارل فيترمان (وزير النقل حالياً).

في الوقت الحاضر، أصبحت الغالبية الساحقة من الجالية اليهودية مكونة من اليهود الشرقيين Sephardim الذين ينتمي معظمهم إلى بلدان المغرب العربي. وهناك إحصاءات تشير إلى أن عددهم يبلغ ما يقارب الـ ٣٠٠ ألف نسمة، وربما أضعاف هذا العدد. تتميز هذه المجموعة بتعلقها الشديد بالتقاليد اليهودية، وتسعى على الدوام إلى إحياء الجالية من جديد بكل طقوسها وعاداتها. ويلاحظ أن ٨٠٪ منهم من أصل غير فرنسي ما يفسّر الفروق الشاسعة التي تميز بين أفراد الجالية اليهودية حسب انتماءاتهم وأصولهم. إلا أن معظم اليهود القاطنين في فرنسا يتمتعون بالجنسية الفرنسية. أما اليهود الجزائريون فإنهم كانوا يمتلكون جوازات سفر فرنسية منذ زمن الاستعمار. واليهود المغاربة والتونسيون، فضلوا الحصول على الجنسية الفرنسية في أعقاب استقلال بلدانهم. كما تم تجنيس يهود أوروبا الوسطى بعد الحرب العالمية الثانية. ولم يبق من اليهود المغاربة والتونسيين إلا عدد قليل ممن احتفظ بجنسيته الأصلية. وربما تختفي العناصر الأجنبية في السنوات المقبلة بسبب عملية التزاوج المختلط مع الفرنسيين.

أما في الماضي، فقد كان اليهود يسكنون في مقاطعات ومستعمرات ذات وضع تمثيلي ـ سياسي مختلف، إذا لم يكونوا يمتلكون الجنسية الفرنسية. لذا لم يقدروا آنذاك على لعب دور سياسي يذكر. وكان اليهود الفرنسيون يتردّدون على الدوام في لعب دور سياسي ما عدا المنتمين إلى المنظمات الصهيونية. إن عملية التجنيس أرعبت الصهيونية وذلك لخوفها من مسألة الاندماج في المجتمع الفرنسي في نهاية المطاف، ولا يمكننا بأي شكل من الأشكال تحديد السمات المشتركة لدى الجالية

اليهودية، وخصوصاً على صعيد الطبقات الاجتماعية، ذلك لأنها تتكون من خليط غير متجانس الأصول والتقاليد. لكن الغالبية العظمى تتكون من الجالية الفرنسية الأصل، ويأتي بالدرجة الثانية اليهود الجزائريون، والدرجة الثالثة يهود المغرب وتونس، ثم يهود أوروبا الشرقية.. وبعض اليهود المنحدرين من الدول الأخرى وعلى الخصوص من مصر والبحر الأبيض المتوسط. وليس هناك أي رابط يجمع بين اليهود الفرنسيي الأصل ويهود الأقليات الأخرى. وتبقى الفروق الطبقية هي الحاسمة في تركيب الجالية الاجتماعي.

أما توزيع الجالية اليهودية فيتمركز في العاصمة إذ يبلغ عددهم ما يقرب من ٣٥٥ ألف نسمة، وتتوزع البقية على «منطقة الميدي» إذ يبلغ عددها ١٥٠ ألف نسمة، ورون الب، والمناطق الأخرى. نلاحظ أن أكثر من نصف الجالية اليهودية يعيش في باريس وخصوصاً في الأحياء المعروفة: بيل فيل، لي ماريه، سان بول، فوبروغ مونتمارتر، لي سانتييه. وتلاحظ النشاطات التجارية وطقوسها في هذه الأحياء بشكل واسع نتيجة لتمركز الجالية، أما في الأحياء الباريسية الأخرى، فنراها شبه منعدمة. ونسبة اليهود في الأحياء الباريسية العشرين تبلغ ما يقرب من ١٠٪ من نسبة السكان. ونسبة العاملين في حقل التجارة تبلغ أكثر من نصف الجالية.. تأتي بعدها الكوادر الكبيرة والمتوسطة في الأشغال البسيطة كالعمال والمستخدمين. فالمنظمات الصهيونية التي تحدثنا عنها سابقاً مثل «الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد» تعمل على تنظيم الأعمال المتنوعة للجالية اليهودية.

- ٢ -

الاتجاهات السياسية للجالية اليهودية

بالرغم من سيادة الاتجاه الأيديولوجي الصهيوني بين الأوساط اليهودية في فرنسا، إلا أن بعض الاتجاهات والتيارات الأخرى تنتشر في الوقت ذاته، ومبدأ التعددية هذا يساعد أفراد هذه الجالية على عملية التكيف الذاتي مع تقاليد المجتمع الفرنسي المحيط. ومهما كان حجم الاختلافات والتناقضات السائدة فإنها تصب في موضوعات مشتركة وهي: التناقض مع المجتمع الفرنسي، التضامن مع الكيان الصهيوني ـ ما عدا بعض الحالات الشاذة ـ والتضامن مع الجاليات اليهودية «المضطهدة» والتركيز على «عقدة الذنب» كلما لاحظوا انعطافاً إيجابياً في الرأي العام العالمي إزاء الصراع العربي ـ الصهيوني. ويمكن تصنيف هذه الاتجاهات في ثلاثة:

أولاً: الاتجاه الديني Les pratiquants

ثانياً: الاتجاه الصهيوني Les Sionistes

ثالثاً: اتجاه «الدياسبورا» Les diasporistes

١- تعرّضت اليهودية الفرنسية شأنها شأن الديانات الأخرى إلى تأثيرات العلمنة التي انتابت المجتمعات الغربية، ومن العوامل التي ساعدت على ترسيخ هذه الظاهرة وتطويرها تلاشي استقلالية الجالية اليهودية، وتفتت الأحياء اليهودية وحتمية الاندماج في المجتمع المحيط.

ويمكن اعتبار أن نسبة ٥٪ من هذه الجالية لا تزال متمسكة تمسكاً شديداً بالتقاليد الدينية اليهودية، وينعكس أثر هذا التمسك بالتقاليد على تصرفاتهم الاجتماعية جاعلاً منهم مجموعة منفصلة تمام الانفصال عن المجتمع الفرنسي.

ولا تختلف حياتهم في فرنسا عن الحياة التي كانوا يعيشونها في بلدان المغرب العربي أو في دول أوروبا الوسطى ما يجعل تزمّتهم وانكماشهم على أنفسهم ظاهرة ملموسة. ومن هذه المجموعة، اشتهر وجهان رئيسان هما أندريه نهير Andre Neher وايمانيويل ليفيناس Emmanuel Levinas كما تتميز اليهودية الفرنسية بظهور التعصب الديني المتزمت، علماً أن هذه الميول تلقى تشجيعاً كبيراً لدى المنظمات الصهيونية مثل منظمة «تجمع الكهنة» Consistoire. ويدل على ذلك انتشار بعض الظواهر مثل اعتمار القلنسوة الصغيرة فوق الرؤوس وكانت هذه الظاهرة عديمة الوجود منذ ما يقرب من العشرين عاماً. كما بدأوا بتحريم بعض الأمور التي كانت محللة في الماضي. وقد التجأوا إلى حذف كل العناصر المقتبسة من المسيحية. ويحظى هذا التعصب بتسامح المجتمع الفرنسي لأنه يعبر في نظر الفرنسيين عن تأكيد الذات اليهودية والدليل على ذلك، ازدياد أهمية حركة «الحاسديم ـ لوبافيتش» Hassidim de Loubavitch المتعصبة ومع ذلك فإن هذه الحركة تكاد تكون الوحيدة، التي تناهض الصهيونية لاعتقادها بعدم خلق «إسرائيل» بالمعنى الحالي في التوراة قبل ظهور «المسيح» و«يوم القيامة». وتؤمن هذه الجماعة بالطاقات السحرية والخرافية.

ويلاحظ اتجاه أفراد الجالية اليهودية ـ الفرنسية الأصل إلى الانتماء إلى هذه الحركة. وتظل هذه المجموعة أقلية داخل الجالية اليهودية بسبب مواقفها ضد «أوْرَبة» اليهود والأهمية، التي تعطيها إلى طقوس وتقاليد ذات الأصل الفرنسي، إذ إن التناقضات بين تربية اليهود وتقاليدهم على اختلاف أصولهم لا تجعل منهم أمة كما تحاول الصهيونية أن تروِّج على الدوام فتصطدم بالعقليات المختلفة الجذور.

٢- والاتجاه الثاني يتمثل باتجاه الصهيوني الأيديولوجي الواضح للعيان سواء في أهدافه أو سلوكه، ويمثل هذا الاتجاه الغالبية الساحقة من الجالية اليهودية الفرنسية. ولم يكن للحركة الصهيونية نفوذ بالغ الأهمية قبل العام ١٩٤٨م، أي قبل تأسيس الكيان الصهيوني، غير أن تأسيس هذه الدويلة ونتائج أحداث الحرب العالمية الثانية أديا إلى تغيير ملموس في مواقف اليهود الفرنسيين إزاء الحركة الصهيونية. وهكذا ظهر

مبدأ الولاء إلى «إسرائيل» قبل أي ولاء آخر. ومما رسخ هذه الظاهرة حرب الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧م ونتائجها. وبالرغم من توافر كل الحقوق المدنية والقانونية للجالية اليهودية، إلا أنها تشعر بأنها «منفية» على الأرض الفرنسية. وحاولت عدة حركات كحركة «لجنة تنسيق الطلبة الصهاينة الاشتراكيين» Cless. Comité de liaison des étudiants sionistes socialistes ويروج هذا الاتجاه بأنه يعمل على «إعادة احترام اليهود لليهود» و«إرجاع كرامتهم». ويلقى الاتجاه الصهيوني حماسة كبيرة لدى الشباب اليهود وذلك بسبب ترويج الدعايات الملفقة، وخصوصاً ترسيخ «إسرائيل» في الوعي اليهودي المعاصر. كما يعتبر الكيان الصهيوني لديهم هو الرابط الوحيد الذي يربط بين يهود العالم أجمع. ففي نظرهم هو الدولة التي «أرجعت» كرامة اليهود في العالم ووفرت لهم ملجأ في حالة «عودة الاضطهاد». والملاحظ أن أكثر اليهود تشبثاً وتعلقاً بالأفكار الصهيونية في فرنسا هم اليهود العرب الأصل وعلى الخصوص يهود المغرب العربي. وغالبية اليهود الفرنسيين ترى في تأسيس الكيان الصهيوني معجزة عظيمة جعلت منه مكاناً «للازدهار والتطور». يقول هنري هاجنبرغ، رئيس منظمة «الانبعاث اليهودي»: إن هدف هذه المنظمة يتركز في نقل تراث الشعب اليهودي التاريخي والثقافي بإعطاء هذا النقل أبعاداً سياسية إذ تعمد إلى مساندة الكيان الصهيوني، الذي ترى فيه المركز لليهودية العالمية وتبلور حركة ما يسمّى التحرر اليهودي. ويعتبر هذا الاتجاه الكيان الصهيوني العامل الموحد بين اليهود، إضافة إلى أنه عامل تأكيد للفروق التي يدعون وجودها بينهم وبين الفرنسيين. ولهذا فإن أي نقد يوجه إلى الكيان الصهيوني أو «حكومته» يثير احتجاجاً سرعان ما يدفع اليهودي إلى التلويح بشعار «معاداة السامية» و«العنصرية».

٣- أما اتجاه «الدياسبوريين» فيمثل اتجاه الأقلية بين الجالية اليهودية، إذ كان يتمتع بأهمية كبيرة في مطلع القرن الحالي.

وكان هذا الاتجاه منقسماً إلى تيارين: التيار الاشتراكي والتيار الليبرالي الذي أسسه المؤرّخ سيمون دوبنوف، الذي كان ينادي بالاعتراف بجنسية يهودية داخل

المجتمعات الأخرى، غير أن هذا الاتجاه لم يدم طويلاً، وخصوصاً عقب الحرب العالمية الثانية. وينفي هذا الاتجاه صبغة الصهيونية عنه إذ ينادي مناصرون بضرورة انتشار اليهود في العالم. وهذا ينطوي بلا شك، على مخاطر أيديولوجية عديدة ويرى هذا الاتجاه إلى أن وجود اليهود في العالم لم يأتِ مصادفة، بل إنه ظاهرة دائمة استطاعت أن تحيا وتعيش وترسّخ رموزها وحياتها المتميزة بالرغم من العنف الذي يهدف إلى تدميرها أو إزالتها، ويدين أفراد هذه المجموعة سيطرة الصهاينة على الجاليات اليهودية في أوروبا الغربية، غير أنهم يلحون في ضرورة مساعدة الكيان الصهيوني، وفي الوقت ذاته يرفضون فكرة الهجرة إلى الأرض المحتلة ما يمثل تناقضاً صارخاً في أيديولوجيا اتجاه «الدياسبوريين». ويعد هذا التيار حلاً وسطياً بين التيار الاندماجي والنمط الصهيوني الكلاسيكي. كما أن لدى بعض اليهود العرب الأصل، ردود فعل تجعلهم ينتمون إلى الاتجاه «الدياسبوري»، ورد الفعل هذا نتيجة حتمية لما يعانيه اليهود الشرقيون في الأرض المحتلة. ويرفض «الدياسبوريون» أشكال الانضمام كافة سواء في ظل الاستعمار الفرنسي أو «الدولة اليهودية».

وينتمي إلى هذا الاتجاه عدد من الفنانين اليهود أمثال سيرج مواتي، ألبرت ينسوسون، بولا جاك وكلود خياط وآخرون. وهناك مجموعات أخرى تنتمي إلى هذا الاتجاه لكنها تعمل بمفردها ومنها مجموعة «الهوية والحوار» Identité et Dialogue التي تسعى إلى تجميع الأفراد الضالين! وتؤدي هذه المجموعة دوراً معيناً في ما يطلقون عليه «الحوار الإسرائيلي ـ العربي» خصوصاً عن طريق المغاربة اليهود الذين وصلوا إلى فرنسا، ويعد النشاط السياسي لهذا التيار شكلاً من أشكال الاغتراب بالنسبة إلى الحركة الصهيونية. ويصف أرنولد ماندل هذا التيار بـ «النزق السيكولوجي» وذلك للروح الأبوي الذي يعود به هذا التيار إلى الماضي والتّراث، على أن هذا «النزق السيكولوجي» في نظر الاتجاهات الأخرى لا يتضمّن مشروعاً شمولياً. ويرتكز هذا الاتجاه من الناحية الفكرية على مصير اليهود ويمثل إحدى دعائم اليهودية الفرنسية المعاصرة في الوقت الحاضر.

تعد الجالية اليهودية الفرنسية أول وأهم جالية يهودية في أوروبا الغربية من حيث عدد الأفراد غير أنها لا تكوّن كتلة متماسكة، بل ينتابها عدد لا يحصى من التيارات المتنازعة والمتناقضة. وقد أصبحت هذه التعددية pluralisme شرطاً أولياً لديمومة اليهودية، إذ يأتي كل فرد بأفكاره السياسية والدينية ما يجعل جميع أفراد الجالية مرتبطين معاً. وينتمي إلى الجالية اليهودية الفرنسية أفراد يطالبون ويؤكدون هويّتهم وتقاليدهم وكل منهم يحمل مفهومه الخاص عن ذلك. وهذه التعددية تسمح بجمع شخصيات مختلفة الاتجاهات مثل جاك أتالي، مستشار الرئيس ميتران، وغي دي روتشيلد، تاجر وسياسي، وروبر بادنيتر، وزير العدل، وهنري أجنبرغ، رئيس منظمة «الانبعاث اليهودي»، والمؤرخ بيير فيدال ناكي، المعروف بمواقفه «السياسية» المعادية للصهاينة، والمفكر الشهير مكسيم رودنسون، المعروف بمواقفه المناصرة للقضية الفلسطينية والمعادية للصهيونية. غير أن مبدأ «التعدّدية» يصبح مرفوضاً في حالة عدم احترام التقاليد اليهودية. أي إن مختلف الاتجاهات ترتكز على إجماع داخلي للمكونات التي تعتمد عليها اليهودية وبالتالي الصهيونية. وترفض مجموعة قليلة مبدأ التعدّدية وترى في الكيان الصهيوني العامل الوحيد لترسيخ التقاليد اليهودية والمحافظة عليها. وهؤلاء يحتجون احتجاجاً بدائياً كلما عبَّر أحد عن آراء معادية لسياسة الكيان الصهيوني. أما مجموعة أخرى فيمثلها أفراد يرون أن اليهودية ضرب من ضروب «التهميش» والانشقاق اللاسياسي. ولا يرون في الانتماء إلى الصهيونية خياراً شرعياً، بل خيانة لليهودية. وقد أدى تأسيس الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ إلى تحويل مركز اليهودية إلى منطقة الشرق، واعتقد معظم اليهود أن اليهودية لن تحيا سوى في إطار «دولة يهودية» Etat Juif قائمة. ومنذ هذا التاريخ لم يتردّد أحد أفراد الجالية ـ ما عدا بعض الاستثناءات ـ في تأكيد هويته اليهودية، وتعلقه بالكيان المزيف.

وهناك مجموعة أخرى من التيار الأكثر مساندة وتأييداً للأفكار والأيديولوجيا الصهيونية، يمثلها يهود شمال إفريقيا (المغرب العربي). ويبقى مفهوم اليهود في فرنسا حسب ادعاءات الصهاينة مفهوماً معتدلاً ينص على انتماء الجالية إلى المجتمع الفرنسي، وسنرى فيما بعد أنها مجرد ادعاءات.

وتركز الاتجاهات الصهيونية المتعدّدة على إظهار حالة الطلاق المتخيلة بين اليهود وفرنسا، لذلك تركز على أعمال «فيشي» Vichy ضد اليهود في إبان الحرب العالمية الثانية. وتكمن وراء هذه الدعوات أهداف معينة ومحدودة وهي تشجيع الهجرة إلى الكيان الصهيوني، ومما يثبط عزائمهم أن الهجرة من فرنسا لا تزال ضعيفة وهذا ما يفشل جزءاً من مخططاتهم. وهناك اتجاهات سياسية ترفض كل شيء يعطى لليهود على أساس كونهم أمة، بل تصر على معاملتهم كأفراد، وألا يتخذ اليهود شكل قوة سياسية، وإنما كمواطنين اعتياديين شأنهم شأن غيرهم من الناس سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين. ولكن حتى العام ١٩٦٧م، تعلن هذه الاتجاهات، ما عدا قلة متطرفة منها، برامجها الفكرية التي تؤكد أن اليهود الذين يعيشون في فرنسا، لا يمكنهم إلا أن يكونوا فرنسيين لأنهم يمتلكون تاريخاً، وأدباً، وتقاليد مشتركة مثلهم مثل بقية الفرنسيين. بيد أن هذه الاتجاهات السليمة تغيرت فيما بعد، وعلى الخصوص بعد العام ١٩٦٧م بسبب ضغوط المنظمات الصهيونية على الجالية اليهودية... التي بدأت ترفع شعارات: الانبعاث اليهودي، والأمة اليهودية، وتفوّق هوية اليهود القومية.

ويعتبر اليهود أنفسهم الآن مجموعة شعوب مشتّتة، بل مجموعة تسعى إلى الدفاع عن ذاتها الخاصة وتطالب باعتراف الدولة بهذه الخصوصية وعندئذ تصبح علاقة اليهودي بفرنسا لا فردية، بل جماعية تتميز بعودة ظهور الجوانب الوطنية في اليهودية. وتتجلى هذه الجوانب في الأيديولوجيا الصهيونية في الدرجة الأولى، وهي التيار السائد بين الجالية اليهودية، كما تسعى اليهودية الفرنسية إلى تغيير شكل علاقتها ومضمونها مع فرنسا وتؤكد أكثر السّمات الجماعية للذات اليهودية. وعلى أية حال، فالنقطة المشتركة التي تجمع بين عناصر الجالية اليهودية هي دعم وجود الكيان الصهيوني، وإن لم يكن هذا الدعم مطلقاً في ما يخص الشك الحالي في هذا الكيان؛ غير أن هذا الدعم يتفق عليه جميع اليهود في الدفاع عن إسرائيل، أقله، ضمن حدودها قبل العام ١٩٦٧م.

لم تبد اليهودية الفرنسية إلى سنة ١٩٦٧م، حماسة بالغة إزاء الصهيونية كما هي الحال في الوقت الحاضر. وكشفت حرب حزيران عن أهمية الكيان الصهيوني لا في الوعي اليهودي فحسب، وإنما في طريقة معاملة اليهود في مختلف المجتمعات، وأصبح منذ ذلك الحين، في استطاعة اليهود أن يؤكدوا ذاتهم اليهودية من خلال تضامنها مع الكيان الصهيوني. كما أن النكسة التي تعرضت لها الجيوش العربية خلقت لدى الشخص اليهودي مشاعر التفوق والعنصرية. إن كل العناصر المكونة للجالية اليهودية تعترف بدويلة «إسرائيل» وحقها في الوجود، سواء على شكلها الحالي أو في «الأوساط التقدمية» كما قلنا بحدودها في العام ١٩٦٧م. وهناك حالات استثنائية جداً تدين تأسيس «إسرائيل».. مثل موقف إيلان هاليفي، المتعاطف مع منظمة التحرير الفلسطينية والكاهن ليفين.

وثمة نقطة أخرى يتفق عليها اليهود قاطبة وهي اعتبار أنفسهم مسؤولين مسؤولية مباشرة عن الحفاظ على ذكرى «الاضطهادات» السابقة التي ينبغي ألا تنسى وألا تغفر؛ ما يؤدي إلى ميل اليهود العرب نحو ربط تاريخهم بماضي يهود أوروبا وتاريخهم. في حين من المعروف، أن اليهود العرب الذين عاشوا في البلدان العربية لم يعانوا ما عانوه في البلدان الأوروبية. وأخذت الأجيال الشابة اليهودية تحتفل بالذكريات المتعلقة بأحداث الحرب العالمية الثانية. وتفسر هذه الظاهرة إجماع الجالية اليهودية على دين «اضطهاد» اليهود في الاتحاد السوفياتي وإيران وبعض دكتاتوريات أميركا اللاتينية. أما أسباب هذه الظاهرة فتعود إلى حساسية اليهود إزاء ما يسمّونه اللاسامية من خلال ربطهم بين المعاداة للصهيونية واللاسامية.. نذكر هنا الاستنكار الشديد الذي وجهته الجالية اليهودية إلى الجنرال ديغول بعد حرب حزيران/يونيو، متهمة إياه بمعاداته للسامية.

تختلط بين أوساط الجالية اليهودية، مفاهيم «اللاسامية» ومعاداة الصهيونية. فالغالبية لا ترى في معاداة الصهيونية سوى الشكل العصري للاسامية. وتدّعي أن نزاع الشرق الأوسط يسمح بالتعبير عن الآراء العنصرية إذ تروّج المنظمات الصهيونية فكرة عودة شبح الفاشية، محاولة بأي شكل من الأشكال توحيد الجالية اليهودية.

وما الانفجارات التي حدثت بين عامي ١٩٨٠-١٩٨٢م في باريس إلا جزء من هذا المخطط. فقد استخدمتها في غرضين الأول اتهام الفلسطينيين «الإرهابيين» بذلك، والعمل على تهجير أفراد الجالية إلى الكيان الصهيوني ثانياً. وأشهر هذين الانفجارين هما: «مطعم غولدنبرغ» الواقع في شارع «روزييه» وتفجير معبد «كوبرنيك» الواقع في شارع «كوبرنيك».. وهما موقعان في قلب باريس، أما الجالية اليهودية، باتجاهاتها وتياراتها المختلفة، فقد أيدت سواء من خلال صحافتها أو من خلال الصحافة الفرنسية الاعتداء «الإسرائيلي» على لبنان وما أطلق عليه بيغن لحجب «السلام في الجليل». وقد سعت المنظمات الصهيونية إلى التشبُّت بـ «معاداة السامية» لحجب الدمار والقتل والانتهاك الذي جرى في لبنان. وكانت الصهيونية تدرك أن ترويج هذه الشعارات سيوحد يهود فرنسا. وكانت هناك استثناءات قليلة بطبيعة الحال. كما ذكرنا آنفاً، حاولت الصهيونية الجمع بين الاتجاهات والتيارات السائدة في الجالية اليهودية من خلال «مبادئ «مشتركة وهي الدفاع عن الهويّة اليهودية، ومساندة «إسرائيل» ومناصرة الجاليات اليهودية في جميع أنحاء العالم.

إن ما يلاحظ من خلال عرض أهم الاتجاهات السياسية السائدة في الجالية اليهودية: الاتجاه الديني والاتجاه الصهيوني، واتجاه «الدياسبورا». إنها تصب في قناة واحدة. ذلك لأنها لا تزال متمسكة بالنظريات التقليدية التي روجتها الصهيونية العالمية منذ القرن التاسع عشر وهي: الاضطهاد اليهودي، اليهود شعب واحد جذورهم تمتد إلى قدامى اليهود، اللاسامية، أرض الميعاد، والحق التاريخي، والميثاق الإلهي إلى غير ذلك من الأطروحات التقليدية. ومن الواضح أن عملية تكوين هذه الاتجاهات السياسية، وما يختفي وراءها من منظمات سياسية لم تكن سهلة، إذ إن عملية التسلل الفكري والعاطفي في أوروبا، وعلى الخصوص في فرنسا، قامت بها أجهزة وعناصر صهيونية يهودية بالإضافة إلى عناصر غير يهودية. وتقوم هذه الاتجاهات المذكورة، وما يتخللها من تيارات مختلفة، بتعبئة الجماهير اليهودية وغير اليهودية إلى جانب القضية الصهيونية. وتعمل الصهيونية العالمية على استخدام عناصر غير يهودية وسيطاً لنقل الفكر الصهيوني، لذا نرى أنها متغلغلة في مختلف

الميادين الثقافية والسياسية والاجتماعية في فرنسا. وقد نجحت الصهيونية في استمالة الشخصيات الأدبية والفنية العالمية إلى جانبها.

إن حالة التعددية التي تتبجّح بها الصهيونية العالمية ليست إلا خطة مرسومة لإخفاء الوجه الحقيقي لها ولمراميها البعيدة. كما إن حركة العمل السياسي الصهيوني وفاعليته في الغرب تستلزمان نظرة عميقة إلى حيثيات هذا العمل والفكر الموجه إليه. ولا يخفى أن عدداً كبيراً من أفراد الجالية اليهودية الفرنسية لا يزال نائماً تحت تخدير صهيوني يخاطب غرائزه ومشاعره كي لا يستقيظ من هذا السبات العميق.

- ٣ -

ظهور الحركة الصهيونية في فرنسا

من المعروف أن أول مدرسة زراعية سمّيت «ميكف إسرائيل»، تأسست عام ١٨٧٠ بمساعدة «الرابطة اليهودية العالمية» Alliance Israélite Universelle والمليونير إيدموند روتشيلد في فلسطين. وفي العام ١٨٨٢ بدأت أولى موجات هجرة اليهود الروس، وفي العام ذاته ظهر البيان الأول للصهيونية الحديثة المسمّاة «الانعتاق الذاتي» Autoemancipation الذي دعا إليه أحد اليهود الروس القاطنين في برلين، ويدعى «ليو بينسكر». في العام ١٨٩٠ ألف مؤسس الصهيونية السياسية المعروف، تيودور هيرتزل كتابه الشهير «الدولة اليهودية» Etat Juif وذلك نتيجة لتأثّره الحاسم بما سببته قضية دريفوس من صراعات داخلية في المجتمع الفرنسي وانقسام الرأي العام الفرنسي إزاء هذه المشكلة. فالتنظيم الصهيوني بكل معنى الكلمة، ولد على وجه التحديد في العام ١٨٩٧.

والسؤال المطروح في هذا المقام هو:

كيف استقبلت فرنسا فكرة الصهيونية؟ في الحقيقة إن مسألة «العودة إلى القدس» كان قد طرحها عدد من الكتاب والمفكرين غير اليهود بشكل نظري بحت، على سبيل المثال، ما طرحه ايرنسبت كاهرين عام ١٨٦٩ في كتابه «المسألة الجديدة للشرق الأوسط» La nouvelle question d'orient وذلك ما طرحه ألكسندر دوماس الابن فيما بعد أي في العام ١٨٧٣ في مسرحيته «امرأة كلود» La femme de Claude، لكن كل ذلك لم يشكل تياراً فكرياً واضحاً، بل أثار على العكس، معارضة شديدة وخصوصاً لدى الفرنسيين غير اليهود. وفيما بعد نشرها وستن ستيورت

شامبرلين في كتابه ذي المجلدين عن العداء للسامية وتحدث عن المؤتمر الصهيوني الأول الذي انعقد تواً في «بال».

وقد اتفق أن ظهر في الفترة ذاتها كتاب هيرتزل الشهير وتسوية قضية دريفوس لمصلحة اليهود. يضاف إلى ذلك ترجمة كتاب هيرتزل إلى الفرنسية ونشره في «المجلة العالمية الجديدة» la nouvelle revue internationale ما أثار ردود فعل متفاوتة في سلبياتها وإيجابيتها بين الأوساط الصهيونية ما عدا عدداً قليلاً، وكان ممثلها زادوك خان يتميز بموقفه الغامض إذ يعتبر الحركة الصهيونية مشروعاً طوباوياً (خيالياً) من جهة ومن جهة أخرى لا يريد دينها. وفي تلك الفترة كان مشغولاً باستقبال ومساندة اليهود المهاجرين من أوروبا الوسطى. ومن ثم صرّح بأهمية إنشاء ميناء في أرض فلسطين. وبالرغم من كل التعقيدات التي أثيرت بشأن شخصيته، فإنه كان يحمل بذور الصهيونية في دخيلته. أما بيرنار لازار، الرائد الأول للحركة الصهيونية في فرنسا، فقد واجه نقد الأوساط الدينية اليهودية.

يمكن القول، إن الصهيونية في فرنسا، مرت بثلاث مراحل من أجل نشر «دعوتها».

المرحلة الأولى: تبدأ بفترة ما بين الحربين حيث دخلت الأيديولوجيا الصهيونية مع الموجات الأولى للمهاجرين البولونيين والروس.

المرحلة الثانية: تبدأ عقب الحرب العالمية الثانية بعد الأحداث التي أثرت على نحو ملحوظ في مصير الجاليات اليهودية الأوروبية بصورة عامة.

المرحلة الثالثة: تبدأ في إثر حر ب حزيران/يونيو عام ١٩٦٧ وبعدها.

عشية حرب حزيران، كان المنتمون إلى الأحزاب والمنظمات الصهيونية ينقسمون أربع فئات أيديولوجية متميزة وقد لقب قسم منها باليمين الصهيوني، الذي كان يناصر فكرة «إسرائيل الكبرى» بما يعني الوجود على ضفتي نهر الأردن. والفئة الثانية تنادي بفكرة الدولة القومية المزدوجة، أي تعترف بالوجود العربي!! وكانت

هذه الفئة أول من أرسل المنظمين في صفوفها، إلى الأراضي المحتلة بغية تأسيس «الاشتراكية الصهيونية» طبقاً لتصوراتها. أما الفئة الثالثة، فكثيراً ما تشبه ميول حزب العمال البريطاني الذي يتسم بكثرة المنتمين إلى صفوفه. وتبقى الفئة الرابعة التي تتميز بامتلاكها الأموال الضخمة والعمل على إرسالها إلى «إسرائيل».

في الحقيقة، إن الأحزاب الصهيونية نشأت وتأسست في أوروبا الوسطى قبل أن تصل إلى فرنسا. لكن جذور ظهور الحركة الصهيونية بشكلها العفوي، إن صح التعبير، تعود إلى قضية دريفوس الشهيرة Affaire Dreyfus التي اتهم فيها الضابط اليهودي الفرنسي بالتجسس لمصلحة أعداء فرنسا ١٨٩٤ قبل أن تتضح براءته لاحقاً. كانت عملية خفض رتبته العسكرية الجذر الأساسي في ظهور وتطور نظرية هيرتزل الصهيونية كما قلنا سابقاً. ولم يكن لهذه النظرية صدى عميق في أول الأمر، إلا أن عملية رد اعتبار دريفوس في العام ١٩٠٦ دفع اليهود الفرنسيين إلى إثارة مسألة الاندماج Intégration والعودة إلى الوراء لفحص جميع تفاصيل تاريخهم السابق.

عادة عندما تنشأ الأحزاب وتتكون تحمل ضمناً وعلانية روح المنافسة من أجل الحصول على السلطة السياسية ولكن ليست هذه هي الحال مع الأحزاب الصهيونية في فرنسا. إن معظم هذه الأحزاب نشأت في أوروبا الشرقية وجاءت منها، وتركيبها في الأساس لم يكن يختلف عن تركيب الأحزاب الاعتيادية. أما مشروعاتها السياسية فتركزت في السعي لخلق دولة منعزلة. وهذه هي النقطة الوحيدة التي لم تختلف في شأنها التيارات الصهيونية المتنوعة كافة. ولم تبرِّر هذه الأحزاب وجودها وكيانها في فرنسا إلاّ في إطار السعي إلى إيجاد الدولة اليهودية. والأحزاب الصهيونية عاشت ولا تزال تناقضاً صارخاً بين الدعوة إلى الهجرة وتأسيس الدولة اليهودية وبين المساهمة في حياة الجالية اليهودية التي تعتمد على الممارسة الدينية الطائفية.

لم تستطع الصهيونية حتى هذه اللحظة أن توفِّق بين هذين الهدفين المتعارضين: الدولة الصهيونية والجالية اليهودية وتزداد هذه التناقضات وتخفت نبرة الصهيونية كلما سعت الجالية اليهودية إلى الذوبان والتماثل الثقافي في سلَّم التنظيم الاجتماعي.

وهكذا نجد التعارض يتجدد بين الأحزاب الصهيونية والتنظيمات الطائفية اليهودية، فقد تخطت الأحزاب الصهيونية عدم الاندماج والتماثل وتجاوزت مفاهيم التضامن الطائفي إلى «الوعي السياسي» أو «الفعل السياسي»، وكان من الطبيعي أن تتظاهر في البدء بعملية التضامن الطائفي. فالأعضاء الموجودون في الأحزاب الصهيونية يدعون إلى تأسيس «الدولة اليهودية» من ناحية، ومن ناحية أخرى يتظاهرون بالانخراط في حياة الجالية اليهودية وذلك من خلال التجمعات الثقافية الرسمية وإقامة العلاقات الاجتماعية الظاهرية في المجتمع الفرنسي. وبقدر ما كانت المؤسسات اليهودية في فرنسا مفتوحة أمام «الأشكينازيين» ـ يهود أوروبا الوسطى ـ كانت مغلقة أمام «السفارديم» ـ يهود المغرب العربي ـ بينما يكوّن الأخيرون طائفة يهودية تنسجم مع التركيب الشرعي لليهودية الفرنسية حيث إن الاختلافات الإثنوغرافية ـ العرقية ـ لا يمكن أن تخفيها الحركة الصهيونية، إضافة إلى التفرعات الموجودة بين اليهود البولونيين المهاجرين، وأكثرهم من الطبقات الكادحة، وبين اليهود الفرنسيين. وهذا دليل قاطع على بطلان الادعاءات الصهيونية التي تزعم بأن اليهود أمة واحدة. فمن الناحية الثقافية والحضارية: ما الذي يربط بين يهودي مغربي ويهودي بولوني ويهودي فرنسي؟!!

إن كل واحد من أولئك يفضل أن يعيش ويندمج في مجتمعه الأصلي ـ المغربي والبولوني والفرنسي ـ على أن يعيش ويندمج في شتات تطلق عليه الصهيونية «المجتمع الإسرائيلي». ومع كل التناقضات الآنفة الذكر، فقدت الأحزاب اليهودية ذات الاتجاه الصهيوني غالبية أعضائها. خصوصاً وأن معظم روادها من كبار السن حالياً ولهذا الانحسار ثلاثة عوامل رئيسية:

١- الوظيفة الأيديولوجية التي استخدمتها الأحزاب اليهودية آنذاك؛

٢- الدور الفعّال الذي أدته هذه الأحزاب في الماضي؛

٣- السبب الثالث يكمن في أسلوب عملها.

من الناحية الأيديولوجية، لم يعرف يهود أوروبا الشرقية ثم يهود الألزاس لاحقاً

الانكسار الذي عانته الطوائف اليهودية في المغرب العربي، التي لم تعرف حرية التعبير بالشكل الذي عرفه يهود فرنسا.

يزعم بعض مؤرّخي الصهيونية أن الصهيونية عبارة عن أيديولودجيا انتقالية Idéologie de transition من القرية إلى المدينة ومن الوسط التقليدي إلى الاقتصاد الحديث. فهذه الانتقالة توافقت مع هجرة يهود أوروبا الشرقية في بداية القرن، إلا أنها جاءت متأخرة بالنسبة إلى يهود فرنسا والمغرب العربي الذين تركزوا شيئاً فشيئاً في العاصمة.

والصهيونية، باعتبارها أيديولوجيا مستوردة إلى فرنسا، تميزت بأبعاد سوسيولوجية أكثر منها سياسية وربما أرادت بذلك، إخفاء الأهداف السياسية المباشرة وما قد تسبّبه هذه الأهداف من ردود سلبية في بادئ الأمر. لابد من الإشارة إلى أن هذه الأيديولوجيا الانتقالية. أدت إلى تفجير تركيبة الطوائف التقليدية، وخصوصاً بعد أن انتهت موجات الهجرة واستقرت في باريس.

ولكي تسيطر الحركة الصهيونية على الطوائف اليهودية ذات الأصول المختلفة، دعت إلى المحافظة على تراث وتقاليد كل منها وذلك في إطار تكتيك سياسي واضح. كما سعت إلى القيام ببعض المهمات الاجتماعية كإيجاد العمل للعاطلين، وتعليم اللغة الفرنسية ولعب دور الوسيط بين الجالية والسلطة.

لكن الأحزاب الصهيونية مرت بنكسات متعدّدة ويعود ذلك، إلى أوضاع اليهود ذوي الأصول المتنوعة إذ تميزت بمواقفها التي لم تكن تنسجم والمخططات الصهيونية. إن اليهود ذوي الأصول المتنوعة قطعوا الطريق على الحركة الصهيونية من خلال الدعوة إلى مناصرة الطبقات الفقيرة، المطالبة بالعلمنة، وكذلك الدعوة إلى التكيف والاندماج في المجتمع الفرنسي. فالحركة الصهيونية لم تستطع اجتذاب كل التنظيمات اليهودية ولا الأدباء والمفكرين والكتاب. يبقى أن المجتمع الفرنسي، بتركيبته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لم يقدر على إدماج الطوائف اليهودية كما هي الحال في المجتمع الأميركي، وإنما اقتصر هذا الاندماج على الأفراد.

ولم يلقَ وعد بلفور صدىً واسعاً لدى اليهود المحليين Autochtone، ففي ٢٧ شباط/فبراير ١٩١٩، استدعي إلى «مؤتمر السلام» كل من وايزمانن سوكولو، أوسيشيكن، وسلفيان ليفي، لإبداء آرائهم وملاحظاتهم إزاء الصهيونية. كان سلفيان ليفي يتزعم «الرابطة اليهودية العالمية» فلم يعر نظرية تأسيس «الدولة اليهودية» انتباهاً شديداً، بل حاول التركيز على إثارة مشكلة الهوية المزدوجة. واستمر موقف الجالية اليهودية الفرنسية السلبي من الصهيونية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. اتجه بعضهم من أمثال تيودور ريناش، أحد أقطاب الصهيونية الفرنسية، إلى إثارة قضية دريفوس من جديد للتأثير في الرأي العام اليهودي.

وقد نبّه بعض القادة والسياسيين إلى مخاطر قيام «الدولة اليهودية»، ومن أولئك نذكر سيمون فيّ، رئيسة البرلمان الأوروبي الحالية في تصريحها الموجه عام ١٩٣٧ إلى هتلر، مؤكدة أنها ترفض رفضاً قاطعاً «ولادة أمة يمكنها في غضون خمسين عاماً، أن تمثل خطراً على الشرق الأوسط والعالم». لهذا فقد برزت تيارات متعدّدة بين اليهود منهم من يطالب بـ «اشتراكية مستقلة ثقافياً ضمن دولة ليبرالية». كما يطالب الشيوعيون اليهود بضرورة تطبيق نموذج «البيروجان» السائد لدى يهود الاتحاد السوفياتي. هذه هي بعض الآراء المعتدلة، يقابلها من ناحية أخرى ظهور آراء متطرفة عبّر عنها الكاتب كادمي كوهين، وهو أحد قادة الصهيونية. كتب في كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٣ في مجلة «شالوم» قائلاً: «إنني أدعو، بكل قواي إلى قيام حركة صهيونية واسعة النطاق تريد تحقيق كل شيء: دولة يهودية مستقلة تمتد من البحر الأحمر إلى الفرات. ينبغي تحقيق ذلك بكل الوسائل، حتى لو استدعى ذلك إشعال الحرب إذ إنها الوسيلة الوحيدة التي ننال بها ما ينبغي». أما ردود الرأي العام غير اليهودي فلم يكن لمصلحة الصهيونية تماماً إذ إن فرنسا تعتبر نفسها المدافعة دائماً عن حقوق المسيحيين في الشرق الأوسط. ولابد من الإشارة إلى انسحاب فرنسا من الوصاية على فلسطين إلى بريطانيا في العام ١٩٢٢، بينما تنص معاهدة «سايكس ـ بيكو» الشهيرة على ضرورة وضع فلسطين تحت إدارة عالمية تشكل فرنسا أحد أطرافها. بالرغم من عدوانية غالبية موظفي «كي أورسي» Quai d'Orsay

فإن التظاهرات الرسمية المتعاطفة مع الصهيونية تضاعفت ونذكر منها ما يلي:

- ٤ حزيران/يونيو ١٩١٧: إعلان جول كامبون وزير الخارجية آنذاك.
- ١٤ شباط/فبراير ١٩١٨: إعلان ستيفن تارديو عضو الحكومة قائلاً:

« إذا كانت هناك أمة تكونت بشكل طبيعي لكي تفهم اليهود والمثال اليهودي فهي بدون شك دوماً الأمة الفرنسية».

- ١٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢١: إعلان برايند رئيس المجلس.
- ٢١ آذار/مارس ١٩٢٢: إعلان ميليراند رئيس الجمهورية آنذاك.

بالإضافة إلى كل ذلك حصلت فرنسا على «حق» الوصاية على كل من سوريا ولبنان.

أما هنري بوانكاريهن فقد وقف موقفاً معارضاً للصهيونية قائلاً: «قد تحمل الصهيونية فوائد، لكنها لا يمكن أن تؤثر في فرنسا حيث ذاب اليهود في الأمة الفرنسية منذ زمن طويل». لكن هنري ماسنيون، المستشرق المعروف، أعلن تعاطفه وتعلقه بالصهيونية. كما نبه إلى خطورة الصراع بين العالمين، ودعا إلى توافق الصهيونية والعرب بقوله شالوم ـ سلام shalom - salam.

يبقى أن نقول إن يهود أوروبا الوسطى والبحر الأبيض المتوسط هم الأكثر محافظة من اليهود الآخرين على السمات الاجتماعية والاقتصادية لأوضاعهم المستقرة في فرنسا. والسؤال المطروح: هل في إمكان الصهيونية التأثير في جميع أوساط الجالية اليهودية؟

- ٤ -

المنظمات اليهودية

يعتمد مجمل الحركة الصهيونية في فرنسا، وأنشطتها السياسية والثقافية والأيديولوجية، بالدرجة الأولى على هياكل تنظيمية معينة.

إذن يمثل موضوع المنظمات الصهيونية في فرنسا، وفي معظم أنحاء العالم، العمود الفقري للنشاط الصهيوني.

تنقسم هذه المنظمات على الرغم من اتحادها في التوجهات والأهداف ثلاثة أصناف وهي كالآتي:

- المنظمات السياسية؛
- المنظمات الدينية؛
- المنظمات الثقافية ـ الاجتماعية.

المنظمات السياسية

لم تعرف الساحة الفكرية والثقافية في فرنسا، قبل العام ١٩٤٤، نشاطاً لمنظمات صهيونية على النطاق السياسي، بل كان هذا النشاط يتبلور في التظاهرات الثقافية والتعليمية فقط. غير أن التطورات التاريخية للأحداث أنتجت منظمات سياسية تتولى مهام الدفاع عن مصالح الجالية اليهودية لأنها تمثل خلية منفصلة عن المجتمع الفرنسي حسب ادعاءات الأوساط الصهيونية.

لقد ظهرت منظمات عديدة تدّعي كل منها أنها تمثل الجالية اليهودية على الساحة السياسية الفرنسية. ولعلنا نذكر أن ظهور أول منظمة من هذا النمط يعود إلى العام ١٩٤٣.

لكن هذه المنظمة لم تظهر بشكل علني، إلا أنها كانت تطمح إلى تجميع أفراد الجالية اليهودية على اختلاف، توجهاتها الأيديولوجية والسياسية. وأطلقت على نفسها اسم «المجلس التمثيلي ليهود فرنسا»، C.R.I.F Conseil Représentatif des Israélites en France وتتلخص أهدافها في الدفاع عن مصالح الجالية اليهودية وحقوقها والتعبير عن آرائها أمام المؤسسات الحكومية والأحزاب والرأي العام الفرنسي. ومن أبرز قادة هذه المنظمة: المليونير اليهودي ألن دي روتشيلد، تيوكلاين، وجان روزنتال، وليون مايس، وفيدال موديانو، وادي ستيك. إلا أن تسمية هذه المنظمة تغيرت لاحقاً إلى «المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية في فرنسا».

أما منظمة الفرع الفرنسي «للكونغرس اليهودي العالمي» التي عرفت نجاحاً باهراً في الستينيات والسبعينيات بسبب شخصية ناحوم غولدمان، فتتعرض حالياً إلى نوع من الانحلال بسبب المصاعب المالية ومواقف ناحوم غولدمان التي لم تكن تنسجم تماماً مع السياسة «الإسرائيلية». وهذا لا يعني أن غولدمان لم يكن صهيونياً، غير أن مواقفه إزاء الكيان الصهيوني جعلت هذا الفرع من المنظمة يفقد مساعدة الجالية اليهودية بصفة عامة، والأوساط الصهيونية الأرثوذكسية على الخصوص.

تعتبر منظمة «انبعاث اليهود» Renouveau Juif من أنشط وأوسع المنظمات الصهيونية الفرنسية المنتشرة وقد أسس هذه المنظمة الأخوان هنري وسيرج هاجنبرغ عام ١٩٧٩، وكان الهدف الأول لنشاطها هو خلق مجموعة يهودية تشبه اللوبي الصهيوني في أميركا، وكذلك «الاحتجاج على خمول المنظمات الصهيونية الأخرى وميوعتها». وتتميز هذه المنظمة بتطرفها وتعصبها للأفكار الصهيونية. كما تسعى لإعطاء الجالية اليهودية ثقلاً سياسياً في الانتخابات الفرنسية، متجاهلة ما تسببه هذه الدعوة من مخاطر عزل الجالية اليهودية عن بقية المجتمع الفرنسي. وقد حققت هذه المنظمة نجاحاً كبيراً في الأوساط اليهودية بتأسيسها إذاعة «راديو ج» الحرة التي مارست تأثيراتها الفعّالة، ويبدو، ويا للأسف، أن هذه المنظمة هي الأكثر تجاوباً مع طموحات ومشاعر الجيل الثاني من الجالية اليهودية ما يدل على مدى خضوعه

للدعاية الصهيونية وأغراضها. إن الأفكار الدعائية لمنظمة «الانبعاث اليهودي» ومواقفها الصلبة المتجمّدة تثير إعجاب وحماسة عدد لا يستهان به من اليهود الفرنسيين، الذين يرون في هذه المنظمة جهازاً يستطيعون من خلاله التعبير عن آراء وأفكار ربما تثير ردود فعل حادة خارج نطاقها.

وهناك منظمات تقل أهمية ونفوذاً عن المنظمات السابقة مثل: «بناي بريت» (أبناء العهد) les fils de l'alliance القريبة من آراء الحركة الماسونية وتدّعي هذه المنظمة أن هدفها الأساسي هو الكفاح ضد العنصرية ومعاداة السامية، غير أنها تنطوي على أهداف أخرى منها القيام بأعمال سياسية متضامنة ومؤيدة للكيان الصهيوني. ومن أبرز وجوهها: جان بيار بلوك، وسام هوفنبرغ.

في الحقيقة، لم يكن غزو الصهيونية لفرنسا بالأمر الطارئ، بل ظهر عقب الحرب العالمية الثانية لأسباب معروفة وبديهية. كما أن الدعاية الصهيونية استطاعت أن تجعل معظم اليهود الفرنسيين يتعاطفون مع الكيان الإسرائيلي منذ نكسة حزيران/يونيو ١٩٦٧.

أما المنظمة المسماة «الحركة الصهيونية الفرنسية» mouvement sioniste de France فلا يتجاوز عدد المتعاطفين معها بضعة آلاف، بالإضافة إلى الأعضاء الذين يبلغ عددهم بضع مئات.

وتجدر الإشارة إلى أن جميع الأحزاب الموجودة في الأرض المحتلة لها فروع وذيول تابعة، تقلدها فكراً وممارسة، وتقوم بممارسة نشاطاتها سواء في فرنسا أو في البلدان الأوروبية الأخرى وأهم هذه المنظمات التابعة: «حيروت» Herouth التابعة لحزب بيغن، و«الأفودا» Avoda المرتبط بالحزب الاشتراكي الإسرائيلي، و«حلقة برنار لازار» cercle Bernard Lazare المنبثقة من حزب «مابام» الإسرائيلي، وأصدقاء شالوم أخشاف les amis de shalom akhshav.

وهناك منظمات تابعة للأحزاب الدينية المتطرفة الإسرائيلية مثل: «مزراحي» Mizrahi و«أغودات إسرائيل» Agoudath Israel.

وتجمع منظمات أخرى طلبة المدارس الثانوية والإعدادية مثل «درور» Dror و«إيهود هابونيم» Ehoud Habonim و«هاشومير هاتساير» Hashomer Hatsair.

ولهذه المنظمات دور كبير في إحداث الانعطافات والتغييرات في موقف القادة اليساريين الفرنسيين، حيث تؤدي دوراً سياسياً هاماً في تعبئة الجالية اليهودية والرأي العام الفرنسي. ونذكر على سبيل المثال التظاهرات التي قامت بها منظمة «اتحاد الطلبة اليهود في فرنسا» Union des étudiants juifs de France أمام السفارة العراقية احتجاجاً على ما يسمّونه «اضطهاد اليهود في سوريا والعراق». كما أننا نلاحظ أن هذا الضرب من النشاط لا يصل إلى هذه الدرجة إلا عندما تطرأ أحداث هامة في الشرق الأوسط. إنها بالأحرى عبارة عن غطاء تستخدمه المنظمات الصهيونية للتستر على جرائمها الأخرى من ناحية، والتأثير في بوادر تعاطف الرأي العام الفرنسي مع القضية العربية من ناحية ثانية، ولم يتردد عدد كبير من المنظمات الصهيونية في استخدام وسائل غير شرعية في نشاطاتها مثل الهجوم في العام ١٩٧٣ على شركات الطيران العراقية والسورية في فرنسا.

وتمارس «المنظمة العالمية للنساء الصهيونيات» W.I.Z.O Organisation Internationale des femmes sionistes نشاطات سياسية عديدة متستّرة وراء مظهر الجمعية الخيرية. وتشنّ المنظمات الصهيونية في فرنسا حملات معينة ضد الاتحاد السوفياتي بحجة اضطهاد اليهود هناك، ومن أهم المنظمات التي تنحو هذا الاتجاه: «المجلس الوطني للدفاع عن حقوق يهود الاتحاد السوفياتي» Conseil national pour la protection des droits des juifs d'U.R.S.S.

و«الجمعية النسائية للتضامن مع يهود الاتحاد السوفياتي» Comité féminin de soutien aux juifs d'U.R.S.S وتعمل منظمة النساء الصهيونيات على بثّ دعايتها بين النساء اليهوديات الفرنسيات لدعم الكيان الصهيوني وترسيخه في الأذهان.

إن الحرب السايكولوجية التي تشنّها المنظمات السياسية الصهيونية ذات أهمية بالغة وخصوصاً سعيها إلى تخدير الرأي العام الفرنسي. ولا تتردّد أجهزة الدعاية

الصهيونية في خلق البلبلة داخل المجتمع الفرنسي بنشر الأكاذيب والادعاءات، كتزييف الحقائق بشأن أحداث معينة نذكر منها: حريق مبنى «بابليسيس» في الشانزليزيه عام ١٩٧٣، الذي استغلته الصهيونية على أنه إرهابي قامت به منظمة «أيلول الأسود». والحادثة لم تكن في جوهرها سوى حريق اعتيادي. كما عملت إحدى المنظمات الصهيونية على توزيع منشورات مزيّفة منسوبة إلى «جميعة صداقة الجزائريين في أوروبا»، نشرت في بعض الصحف الفرنسية وقد كذّبت الجمعية المذكورة هذه المنشورات.

وتذهب المنظمات السياسية الصهيونية إلى أبعد من هذا الحد، حيث بعثت برسائل موقّعة باسم «صندوق التضامن مع المقاومة الفلسطينية» مهدّدة الشركات الفرنسية المتعاملة مع البلدان العربية بضرب مصالحها في حالة عدم مساندتها «صندوق التضامن»، الذي لم يكن إلا من ابتداع المزيفين الصهاينة. وإضافة إلى ذلك وزعت إحدى المنظمات الصهيونية منشورات موقعة باسم «شارل مارتيل» Charles Martel تطالب بتفجير المساجد والمقاهي والمحال العربية وقتل العرب، غير أن هذه المنشورات كانت مطبوعة بحروف الآلة نفسها التي استخدمتها المنظمة الصهيونية، التي وزعت منشورات «حريق مبنى» بابليسيس في الشانزليزيه.

لقد أشرنا سابقاً إلى أن لهذه المنظمات أهدافاً سياسية بحتة، وهناك منظمات متخصصة في تشجيع الهجرة إلى الأرض المحتلة مثل «الوكالة اليهودية من أجل إسرائيل» Agence juive pour Israël، التي تعمل مع مؤسسات أخرى على إعداد الشباب وتهيئتهم للحياة في «الكيبوتز»، ومنظمة «ماف» Association des étudiants israéliens en France و«مركز الأعمال والدراسات الصهيونية» Centre d'action et d'études sionistes وهناك عدد لا يستهان به من روابط وجمعيات الصداقة مع الكيان الصهيوني، يبلغ عددها ما يقرب من مائة نذكر منها على سبيل المثال «الرابطة الفرنسية ـ الإسرائيلية» Alliance France-Israel.

إننا لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن نستهين بقدرة هذه المنظمات ونفوذها

الواسع في الأوساط السياسية الفرنسية والعالمية.. كما أن استمرار خلق هذه الأجهزة وتمويلها سواء من قبل الكيان الصهيوني أو المنظمة الصهيونية العالمية، هو جزء لا يتجزأ من الحرب المعلنة ضد العرب أينما وجدوا. ففي الوقت الذي توجد مئات المنظمات الصهيونية سواء أكانت ثقافية أم دينية أم اجتماعية أم سياسية، يلاحظ ضعف المنظمات العربية المواجهة لهذه المخاطر، وتأثيراتها الضارة بالمصالح والعلاقات العربية ـ الفرنسية.

المنظمات الدينية

منذ بداية القرن التاسع عشر، حافظت الجالية اليهودية على نظام «تجمّع الكهنة»، consistoire غير أن التطورات التي طرأت عقب الحرب العالمية الثانية، غيرت مجرى الأمور ما أفقد هذا التجمّع تمثيله الكامل ليهود فرنسا. وقد لعب هذا التجمع المسمّى «رابطة تجمع اليهود في باريس» Association consistoriale Israélite de Paris دوراً هاماً في نشأة وتبلور الحياة اليهودية، التي أخذت تنفصل شيئاً فشيئاً عن حياة المجتمع الفرنسي برمّته. ومن بين كل التنظيمات الدينية، أصبح هذا التجمع عبارة عن رابطة دينية لا تختلف عن سواها إلا بمحافظتها على سمات المؤسسة الرسمية في تمثيل الديانة اليهودية.

وهناك منظمات ثقافية معينة تشرف إشرافاً مباشراً على ممارسة العبادة. وهذه المنظمات هي عبارة عن مجموعة روابط تمارس نشاطاتها تحت اسم «التجمع المركزي اليهودي في فرنسا والجزائر» Consistoire Central Israélite de France et d'Algérie ويسعى هذا التجمع إلى الحفاظ على مصالح الديانة اليهودية وعلى الحريات اللازمة لممارستها وكذلك الدفاع عن حقوق الجالية، وتأسيس وتطوير المنظمات والخدمات لمختلف الأجهزة المنتمية إلى هذا التجمع الذي يذهب إلى أبعد من ذلك فيشرف على العبادة والطقوس مثل مراسيم الختان والزواج والدفن ومراقبة احترام القوانين المتعلقة بالأطعمة والذبائح. ومن خلال التعليم الديني، يشرف التجمع على إعداد الكهنة الجدد. وله مهام أخرى كتمثيل الديانة اليهودية أمام الأجهزة الحكومية الفرنسية. إضافة

إلى تمثيله للقوانين الدينية ومحكمة الكهنة والطلاق والزواج واعتناق الديانة اليهودية وما إلى ذلك من الأمور. ويدير هذا التجمع كهنة وعلمانيون أمثال ليون مايس، ألن روتشيلد، جان ـ بول الكان. وللتجمع أربعة فروع في فرنسا. وقد طرأت على بنيته تغييرات عديدة أهمها: انفتاحه على يهود الجيل الجديد ذوي الأصول العربية، العمل على مساعدة هجرة يهود شمال إفريقيا، وخصوصاً الجزائريين. كما قام منذ العام ١٩٥٥ باتخاذ إجراءات لمساندة اليهود المصريين والتونسيين والمغاربة في بناء المعابد ذات الطابع والطقس الشرقيين. إلا أن الجالية اليهودية التونسية والمغربية رفضت سيطرة هذا التجمع بسبب رفضه منح قادتها مناصب دينية داخلية، لكن الأمر اختلف فيما يخص اليهود الجزائريين ذلك لأنهم خضعوا منذ العام ١٨٤٥ لنظام التجمع الفرنسي بينما احتفظ اليهود المغاربة والتونسيون باستقلاليتهما. وانتماء الجزائريين إلى التجمع يعود إلى أنهم كانوا منتمين منذ أمد طويل إلى الثقافة الفرنسية ما سهل عملية اندماجهم بحيث لم يشعروا بانقطاع أو عزلة عن تركيب الجالية هناك. وبالرغم من كل ذلك، يعاني اليهود ذوو الأصول العربية، عنصرية خانقة وهذا يذكرنا، بطبيعة الحال، ببعض مظاهر التميز العنصري في «المجتمع الإسرائيلي» حيث يعتبر اليهود ذوو الأصول العربية مواطنين من الدرجة الثانية.

وكما قلنا يسعى هذا التجمع إلى تشييد المعابد في المدن والضواحي الفرنسية مثل سارسيلن كريتي، ماسي، انطوني، أورلي، شامبيني، لي بلاند ميسنيلن كورنيف، امنيزن كان، سانت ايتين، مارسيي، نيس، لاروشيل، بيربنيون، مونبلييه، وكرونويل. وغيرها. ولكي تتم سيطرة هذا التجمع على الجالية اليهودية، سمح لأفرادها بالاحتفاظ بتقاليدها الدينية الخاصة. إلا أن الجالية اليهودية المغربية عبرت عن احتجاجها العنيف داخل التجمع للحفاظ على استقلاليتها كلياً وعدم الانصياع لأوامر التجمع. وبمرور الزمن استطاعت أن تؤدي دوراً هاماً إلى أن تم اختيار رئيس التجمع «رينيه صموئيل سيرات» باعتباره الكاهن الأكبر، وهو من أصل جزائري. ومهما حاول التجمع من إضفاء روح التسامح والحرية، إلا أن موقفه ظل محافظاً إزاء يهود أوروبا الشرقية والوسطى.

ويدل تنصيب رينيه صموئيل سيرات على رأس هرم اليهودية الفرنسية، على أنها أصبحت أقرب إلى التيار الآتي من شمال إفريقيا منها إلى تقاليد أوروبا. غير أن الكاهن سيرات يبقى، بالرغم من كل التفسيرات ممثلاً للجالية «المتفرنسة» والمنتمية إلى نظام التجمع اليهودي منذ زمن طويل ألا وهي الجالية الجزائرية. ولم يثر هذا التنصيب ردود فعل كان من الممكن أن تثيرها تسمية كاهن من أصل مغربي أو تونسي.

ومنذ القرن التاسع عشر، انقسمت اليهودية مذاهب وتيارات مختلفة أهمها ثلاثة:

أولاً: التيار الأرثوذكسي؛

ثانياً: التيار المحافظ؛

ثالثاً: التيار الليبرالي.

ويعتبر «تجمع الكهنة اليهودي» منتمياً إلى التيار الثاني إذ تمكن من التوفيق بين القوانين اليهودية الصارمة والإصلاحات المعاصرة في ممارسة العبادة والمراسيم الأخرى. أما التيار الأرثوذكسي فهو نابع من نظرية «سامسون رافائيل هيرش» القريب من مذهب «الحاسديم البولوني» Hassidisme، ومما يؤخذ عليه اعتداله وتنازلاته أمام ضرورات العصر تحت راية «المجلس التمثيلي لليهودية التقليدية في فرنسا» Conseil représentatif du judaïsme traditionaliste de France الذي يشرف على المعابد وحركات الشباب والأحزاب الصهيونية ذات الانتماء الديني.

وبالرغم من وجود التيار الليبرالي القوي الذي يحاول التخلص من المحرمات الكهنية لأنها لا تنسجم مع روح العصر، لم تستطع «حركة الإصلاح اليهودية»، على عكس ما جرى في ألمانيا والولايات المتّحدة، أن تخلق انشقاقاً هاماً داخل الجالية اليهودية. وقد انبثق من ذلك اتحاد اليهود الليبرالي Union libérale israélite تحت إشراف كل من الكاهن لويس جرمان ليفي وسالومو ديناك. ويمتلك هذا الاتحاد المعبد الشهير الواقع في شارع كوبرنيك في باريس.

واستطاع هذا الاتحاد الجمع بين النُّخبة الاجتماعية اليهودية الفرنسية، ومن إصلاحاته إدخال اللغة الفرنسية في ممارسة العبادة وكذلك حذف بعض الطقوس واختزال مدتها. ونشط هذا التيار عقب الحرب العالمية الثانية وذلك تحت تأثير الكاهن «زاوي» مؤلف كتاب «التعليم الليبرالي لليهودية». وآنذاك استأنف هذا التيار حركة العودة إلى المنابع العبرية «دين أكثر أصالة» كما دعا إلى الاختلاط بين الرجال والنساء في أثناء العبادة وهناك «المعهد العالي للدراسات العبرية» Institut international d'étude hébraïque الذي يشرف على معابد عديدة أهمها معبد «كوبرنيك» الشهير، الذي يلعب دوراً هاماً في تسهيل عملية اعتناق الديانة اليهودية للأشخاص الذين يريدون الزواج من اليهود.

وهناك تيارات دينية متعدّدة داخل صفوف الجالية اليهودية في فرنسا منها طائفة «حاسديم» Hassidim في بولونيا الخاضعة للتيار الصُّوفي الذي أسسه "بال شيمتوف».

والطائفة الأخرى هي «الصدوقيون» Tsaddikim «العادلون» وتعتبر هذه الطائفة أن بعض الكهنة يمتلكون قدرات سحرية، إلا أن نفوذها لا يزال محدوداً ومقتصراً على عدد معين من أفراد الجالية اليهودية.

المنظمات الثقافية والاجتماعية

أما المنظمات ذات الطابع الثقافي والاجتماعي فلا تختلف عن المنظمات الدينية والسياسية. وأبرزها «الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد» Fonds social juif unifié أسسه روتشيلد عام ١٩٤٩. وهي مؤسسة ذات طابع ثقافي - اجتماعي تعمل على تنسيق حياة الجالية اليهودية وتمول عدداً كبيراً من المؤسسات والتنظيمات الأخرى وقد تعدى دورها دور «تجمع الكهنة اليهودي» آنف الذكر، لأن الصندوق الاجتماعي يشمل ميادين أكثر سعة ويعتبر تأسيس هذا الصندوق الاجتماعي الصهيوني المرامي والأهداف، انعطافاً في تاريخ المنظمات اليهودية الفرنسية في الوقت الحاضر. ولم تستطع الجالية اليهودية الاستمرار في الحياة

لولا مساندة المنظمات الاجتماعية والخيرية والتعويضات الألمانية عقب الحرب العالمية الثانية. ويعود السبب في توسيع نشاطات هذه المنظمة إلى رغبتها في تجاوز الميدان الديني البحت والأخذ في الاعتبار ضرورة احترام الميول العلمانية لدى أفراد الجالية اليهودية. وفيما بعد قرر الصندوق توحيد التبرعات المالية على شكل منظمات صغيرة متعدّدة. ويشرف هذا الصندوق على جمع التبرعات لمساعدة الكيان الصهيوني كلما تعرض إلى الهزات الاقتصادية والسياسية. ويعمل كذلك على مساندة المنظمات اليهودية الفرنسية على أشكالها وميولها كافة. كما تم توحيد فرع التبرع وانبثاق منظمة أخرى من داخل هذا الصندوق أطلق عليها «منظمة النداء الموحد من أجل إسرائيل» Appel unifie pour Israël ويقوم هذا الجهاز بتقسيم التبرعات بين الكيان الصهيوني والجالية، فقد يدعو بعضهم إلى ضرورة منح الكيان الصهيوني كل التبرعات، بينما يدعو بعضهم الآخر إلى تخصيص جزء كبير من هذه التبرعات من أجل تحسين حياة الجالية اليهودية في فرنسا.

ومنذ السنوات الأولى لتأسيسه، وحد الصندوق الاجتماعي اليهودي منظمات مختلفة كما أشرف على خلق نظام طائفي واضح. واتخذ الصندوق الاجتماعي المذكور إجراءات لتقديم العون للجالية اليهودية الجزائرية عقب الاستقلال. كما قدم الصندوق مساعدات هائلة للقادمين من المستعمرات الفرنسية الأخرى. وتمكن الصندوق من الإشراف على المنظمات الأخرى وفق معطيات الجالية اليهودية الجديدة. وهناك حركات الشباب التي تنتمي إلى صندوق «مركز راشي الباريسي» centre Rashi de paris الذي يتميز بنشاطاته العديدة. وبالرغم من كل ما يروج عن الصعوبات التي تعترض هذا الصندوق الصهيوني، أصبح أهم جهاز تمثيلي للجالية اليهودية الفرنسية. وينتمي غالبية قادته إلى النخبة الاجتماعية العليا في الجالية اليهودية. ويتميز الصندوق بصلابته وحزمه في اتخاذ القرارات بحيث لا يمكن تقبل أي نقد أو احتجاج داخل صفوفه المنظمة.

وإضافة إلى هذا الصندوق، هناك حركات وتجمعات وتنظيمات أخرى تعد

بالمئات، تعمل باستمرار منها: «حركة الشبيبة اليهودية» المسمّاة Dejj أو «كشافة فرنسا» Eclaireurs de France أما «اتحاد الطلبة اليهود» فقد شهد انخفاضاً كبيراً في أعداده، لكن تتوافر لدى الجالية اليهودية أجهزة أخرى متخصصة في تقديم الخدمات الاجتماعية كتوفير مراكز السياحة وبيوت المتقاعدين ومراكز العطل الصيفية.

وهناك أيضاً مدارس دينية خاصة للأطفال تعمل على إعداد الأطفال اليهود حسب العادات والتقاليد اليهودية. وتتميز هذه المدارس بمناهجها المغايرة للمناهج السائدة في المدارس الفرنسية الرسمية والخاصة، وهي تهدف من دون شك إلى عزل الطلبة اليهود عن الطلبة الفرنسيين الآخرين.

أما بالنسبة إلى الجامعات فليس هناك جامعات يهودية في فرنسا كما هي الحال في الولايات المتحدة، التي تتمتع بالقدرة على منح الشهادات المعترف بها. ولابد أن نذكر بأن «المركز الجامعي للدراسات اليهودية» Centre universitaire d'études Juives الذي يموله الصندوق الاجتماعي اليهودي يقوم بإعطاء دروس بمستوى الدراسات الجامعية، كما هي الحال في نطاق «المعهد العالمي للدراسات العبرية» Institut international d'études hébraïques الخاضع في سياسته «للاتحاد اليهودي الليبرالي». وتسعى الأجهزة الصهيونية إلى تأسيس جامعة خاصة تنحصر بالجالية اليهودية المتمركزة في أنحاء فرنسا كافة. وأخذت بعض المدارس الفرنسية أخيراً في تعليم اللغة العبرية إلى جانب اللغات الأجنبية الأخرى.

وما دمنا نتحدث عن المنظمات الثقافية ـ الاجتماعية، فلا بد من ذكر المكتبات المتخصصة في الموضوعات اليهودية والصهيونية مثل «مكتبة العهد اليهودي العالمي» bibliothèque de l'alliance israélite universelle ومكتبة «ميديم» bibliothèque Medem المتخصصة في اللغة اليديشية ـ لغة يهود أوروبا الوسطى ـ و«مركز الوثائق اليهودي» centre de documentation الذي يهتم بفترة الاحتلال المعاصرة وفترة الاحتلال الألماني.

وإلى جانب كل ذلك، تنظم الجالية اليهودية معارض ومهرجانات منها «مهرجان

السينما اليهودية الشهير» الذي عرضت فيه ما يقرب من ٨٠٠ فيلم في ثلاث صالات باريسية ضخمة. ومعرض «الحياة اليهودية في بولونيا». وقد عملت منظمات عديدة على نشر الكتب الصهيونية منها منظمة «الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد» و«العهد اليهودي العالمي» وذلك من خلال دور نشر معروفة مثل دار «ألبان ميشيل» Albin Michel و«المنشورات الجامعية الفرنسية» presse universitaire de France PUF. وتطورت الأمور بشكل آخر بحيث أصبحت دور النشر الصهيونية مستقلة ولم تعد بحاجة إلى المرور من خلال دور النشر الأخرى.

ويوماً بعد يوم، تزداد هذه المنظمات باطراد، مستغلة بذلك كل الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية من أجل التغلغل ونشر أفكارها المعادية لطموحاتنا وآمالنا القومية.

الفصل الثاني

اللاسامية .. سلاح الصهيونية

- ١ -

فرنسا اليهودية

قبل الحديث عن ظهور موجة العداء للسامية la vague antisémite وانتشارها في فرنسا، لابد من الإشارة إلى أنها ظهرت قبل ذلك في كل من أوروبا الوسطى والشرقية بالشكل التقليدي إلا أنها اتخذت شكلاً جديداً، لا دينياً، بل على الأكثر سياسياً وراديكالياً في كل من فرنسا والبلدان الغربية الأخرى. وقبل أن تتدفق على فرنسا، ولدت معاداة للسامية بشكلها الحديث، في روسيا وألمانيا والنمسا وهنغاريا. ومن أهم العلامات البارزة في تاريخ اللاسامية نشر الكاثوليكي التشيكي روهلنغ Rohling عام ١٨٧١ كتابه المعادي للتلمود اليهودي، فقد أثار ضجة عنيفة بين الأوساط اليهودية بالرغم من احتجاجات المسيحيين المعتدلين. والعلامة البارزة الثانية، والأكثر خطورة وفاعلية، هي تأسيس أول حزب سياسي معاد لليهود في برلين عام ١٨٧٨، أنشأه كل من القس أدولف ستوكر والصحافي ويلهالم مار. و«مار» هو أول من استخدم لفظة «العداء للسامية».

أما العداء للسامية في فرنسا فقد ظهر عقب تلك الأحداث بسنوات قليلة مع دريمون Drumont. في تلك الأثناء، أي في عهد الجمهورية الثالثة، لم يختف التياران التقليديان المعاديان لليهودية، لكنهما فقدا حدّتهما. انتشرت هذه الفكرة بين الأوساط اليمينية والدينية. لكن العداء الذي كان منتشراً بين الأوساط البرجوازية والشعبية قد تناقص نوعاً ما. لكن أصداء العداء كانت لا تزال تتردّد في الأدب وفي الصالونات ونقاشات المقاهي. كان معظم الاشتراكيين تقريباً يضمرون العداء لعائلة روتشيلد Rothschild كما وقفوا بوضوح ضد ما سمي البنك اليهودي Banque Juive. لكن الأزمة الحقيقية بدأت عام ١٨٦٩ وذلك بنشر كتاب، غوجينو دي موسيو

بعنوان «اليهودي، اليهودية وتهويد الشعوب الحديثة» Le juif, le judaïsme et la judaïsation des peuples modernes.

في البداية، لم يحدث الكتاب ضجة إلا أنه أوحى فيما بعد لكثير من الكتاب أن يؤلفوا كتباً أخرى. فقد أصدر راهب يدعى «شابوتي» مجموعة من الكراريس الاستفزازية مثل: «اللايهودي» ١٨٨١، «اليهود: أسيادنا» ١٨٨٢، «اليهودي.. ذلك العدو» ١٨٨٤. ازدادت الأوضاع خطورة في العام ١٨٧٨ عندما أفلس البنك الكاثوليكي الذي أسسه أحد مستخدمي روتشيلد المدعو أوجين بونتو. إلا أن اليمين والصحافة الكاثوليكية أخذا يهاجمان اليهود شيئاً فشيئاً. ولا بد من الإشارة هنا إلى خطورة المصاعب الاقتصادية والأزمة السياسية التي اجتاحت أوروبا منذ العام ١٨٧٣ وأثرها في تصعيد العداء للسامية.

قلنا إن موجة العداء للسامية ظهرت مع الكاتب دريمون الذي نشر كتابه في جزءين، بعنوان «فرنسا اليهودية» la France juive في العام ١٨٨٦ وقد ركز فيه على أن اليهود غزوا فرنسا وعبثوا بكل شيء، مستوحياً ذلك من الأدب المعادي لليهود. وحاول في كتابه هذا أن يجمع سائر التيارات المعادية لليهودية آنذاك.

منذ العام ١٨٨٦، بدأت حركة معاداة السامية تتطور بشكل سريع وخصوصاً عندما أخذت صحيفة «لاكروا» la Croix بشن هجومها على اليهود. في العام ١٨٨٩، حاول أصدقاء، دريمون، أمثال، موريس، غورين، دلاهاي، أن يؤسسوا «رابطة اللاسامية» ligne antisémite إلا أنها لم تجتذب الأعضاء وحالما انفرطت بعد عام من تأسيسها، وفي العام ١٨٩٢، أسس دريمون صحيفته الخاصة «الكلام الحر» la libre parole لكنها لم تكن واسعة الانتشار. وخفتت موجة السامية حتى ظهرت قضية دريفوس، وأججت مع صعودها معاداة السامية من جديد، وخصوصاً منذ إعلان وعد بلفور المشؤوم عام ١٩١٧.

في العام ١٩١٩، ظهرت في كل من ألمانيا وإنكلترا والولايات المتّحدة، وثيقة هامة عنوانها «بروتوكولات حكماء صهيون» إذ طبعت في فرنسا لأول مرة في

الأعوام: ١٩٢٠، ١٩٢١، ١٩٢٥. ومضمون هذه الوثيقة عبارة عن «خطة استراتيجية للسيطرة على العالم ووضعه تحت تصرف إسرائيل». حول هذه الوثيقة، تطور أدب برمته كان رواده كل من روجيه لامبيلن، جورج باتيل، مجر جوان. ونشر الأخوان «تارو» قصصهم مثل «مملكة الرب» ١٩٢٠، «عندما تصبح إسرائيل ملكة» ١٩٢٢. ومن بعد تصاعدت حملة معاداة السامية منذ العام ١٩٣٣ بشكل آخر عند صعود النازية إلى الحكم في ألمانيا.

تحاول الصهيونية بكل الوسائل والأساليب استغلال معاداة السامية من أجل أهدافها وخططها. وهي تفترض افتراضات عديدة بقاء معاداة السامية. تؤكد الصهيونية أن كل شعب يكره الشعوب الأخرى، ولكن جميع الشعوب تكره اليهود. تستغل الصهيونية أبسط الأحداث لكي تدفع اليهود إلى التكتل والتفكير في العودة إلى «أرض الميعاد». يصرّح جي دي روتشيلد، رئيس «الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد» بأن جذر العداء للسامية يكمن في التربية، أما شارل جيد فيؤكد أن فكرة معاداة السامية لم تنبثق من فرنسا، وإنما جاءت من روسيا، والنمسا، وألمانيا. إنها عبارة عن نتاج مستورد. أما الـ CRIF «المجلس التمثيلي ليهود فرنسا» فيؤكد في بياناته ما يأتي: «إن الماضي الحديث يعلمنا كيف أن اضطهاد اليهود يعكس دائماً خطراً على حريات الجميع» وتحاول الصهيونية الربط بين معاداة الصهيونية وما تسبّبها من أخطار تحدق بفرنسا قاطبة، كما يؤكد الحاخام الكبير كابلان أن المقصود من خلال اضطهاد الجالية اليهودية فرنسا بأسرها. ويتفق مع هذا الرأي الحاخام الكبير «سيرا» Sirat. تشتد هذه التصريحات خصوصاً بعد كل عملية إرهابية يقوم بها مجهولون كحادثة تفجير معبد كوبرنيك وشارع روزيير. بعد هذه العمليات المجهولة الهوية عملت الصهيونية على تسليح الشباب الصهيوني jeunesse sioniste في الأحياء اليهودية. وقد صرح بيغن آنذاك بأنه على استعداد لإرسال قوات من المليشيا الإسرائيلية لحماية الجالية اليهودية الفرنسية.

والأحداث التي تعبر عن معاداة السامية هي أشبه بمناسبات لشحذ القدرات

الصهيونية من جديد، وتحريك اليهود وإخطارهم بالتهديدات المحيطة بهم. يقول أندريه كلوكسمان: «إن واضعي القنبلة إنما يستهدفون جسد اليهودي وروح الأوروبي».

أما سكرتير الحركة الصهيونية في فرنسا سيمون ابستمان، فقد أصدر كتاباً عنوانه «اللاسامية الفرنسية: اليوم وغداً» l'antisémitisme française aujourd'hui et demain يؤكد فيه خلود اللاسامية في المجتمع الفرنسي.

منذ العام ١٩٨٠ تغيرت الأجواء التي تعمل فيها الحركة الصهيونية. فالاجتماعات أخذت تعقد في الطوابق التحتية، والمباني جهزت بمعدات الإنذار الإلكترونية.

تستخدم الصهيونية معاداة السامية لتحقيق هدفين مزدوجين. إنها من ناحية تؤكد استحالة اندماج اليهود الفرنسيين في المجتمع الفرنسي، ومن ناحية أخرى تنسب كل أعمال العنف إلى منظمة التحرير الفلسطينية.

وقد تنوعت معاداة السامية منذ الثلاثينيات حتى الثمانينيات. ففي الثلاثينيات كانت تأخذ شكل المعارك الكلامية والأيديولوجية حيث بدأت هذه الأفكار تظهر في الجزائر والمستعمرات الأخرى علناً. أما في الثمانينيات، فقد اتخذت شكلاً عنيفاً من خلال التفجيرات وإشعال الحرائق وعمليات القتل.

لا بد إذن من الربط بين ماضي معاداة السامية وحاضرها، لنتبيّن الأشكال التي اتخذتها، ومن ثم الأساليب الصهيونية التي واجهت بها هذه الأفكار. وحين نرجع إلى تاريخ اللاسامية في فرنسا، فلا بد من ذكر حادثتين هامتين، أولهما قضية دريفوس ١٨٩٤ ومقالة الكاتب الكبير إميل زولا «إني أتهم» ذلك لأن موجات وحملات معاداة السامية ظهرت بعد هاتين الحادثتين. وقد طافت في شوارع مدينة «نانت» ومدن فرنسية أخرى تظاهرات تهتف بسقوط اليهود، وقد هوجمت المخازن في مدينة مارسيليا، وطوق معبد مدينة «نانسي» وحدثت حالات مشابهة في كل من رين، وليون، وكليرمون فيريه، وروان. وكذلك في بوردو ومونبليه وكان. وقد عملت الحركة الصهيونية على تنظيم اجتماعات معادية للسامية في الجزائر آنذاك لكي

تحقق مشروعها القاضي بترحيل اليهود الجزائريين، أو أقله بتهيئة عقولهم للهجرة وعمّت أعمال العنف كلاً من القسنطينة ووهران. أما في باريس، فقد انطلقت عقب محاكمة الكاتب إميل زولا، تظاهرة كبيرة تجوب شارع ستراسبورغ وساحة الريببليك وشارع فولتير.

كانت تلك الأحداث عنيفة لدرجة أن مجلة أميركية تسمى the american monthly review of reviews خصصت ملفاً خاصاً للقضية وحاورت ثلاث شخصيات بارزة: إدوارد دريمون، المعادي للسامية، وماكس نوردو، الصهيوني، وإميل زولا الكاتب الإنساني. وقد اشتهر إدوارد دريمون بكتابه «فرنسا اليهودية» la France juive عام ١٨٨٥ الذي حقق نجاحاً كبيراً في مبيعات الكتب في القرن التاسع عشر. ومن بعد ألّف دريمون كتاباً آخر في العام ١٨٩١ سمّاه «وصية رجل معاد للسامية» le testament d'un antisémite يعتبر دريمون مؤسس حركة معاداة السامية في فرنسا وقد قدّم خدمات كبرى للحركة الصهيونية. وفي تلك الأثناء كان لقضية دريفوس تأثير كبير في نشوء وتبلور هذه الحركة، حيث أنشأ دريمون صحيفته الشهيرة «الكلام الحر» التي مرّ ذكرها. ففي هذه الصحيفة كتب مقالاً يقول فيه: «اسمعوا الصرخات التي تتعالى من كل أطراف فرنسا ـ السقوط لليهود. إنها صرخة الماضي، بدون شك، لكنها أيضاً صرخة المستقبل». هذا الرأي يدعم المزاعم الصهيونية التي تزعم بقاء اللاسامية واستمرارها في كل الأزمان والعصور. أما ماكس نوردو الصهيوني الهنغاري فقد سكن في باريس وكان من أوائل من دعم نظرية هيرتزل الصهيونية وحضر المؤتمر الصهيوني الأول الذي انعقد في «بال» عام ١٨٩٧. في هذا المؤتمر أكد نوردو أن الشعب اليهودي يعاني البؤس المادي في الشرق، والبؤس الروحي في الغرب.

وهذا في ذاته ليس إلا دعوة لتأسيس الكيان الصهيوني، الذي لا يعاني فيه اليهود البؤس المادي والروحي، فظهرت اللاسامية، بشكلها الجديد، في كل من فرنسا وألمانيا حيث تحرر اليهود منذ فترة طويلة لارتباط تحررهم بالحركات الثورية التي

حدثت في هذين البلدين. لذا فإن اللاسامية كانت بدورها تغذّي الحركة الصهيونية مؤكدة بأن اللاسامية القديمة ما برحت تصب في قوالب جديدة، فقد أكد ماكس نوردو في المؤتمر الصهيوني الثاني المنعقد ١٨٩٨ : «إن قضية دريفوس تمثل إنذاراً ودرساً لجميع اليهود الذين يعتقدون أنهم قبلوا، بطريقة نهائية، العيش في كنف شعوب أخرى، ذلك يعطي القضية أهمية خاصة في التاريخ اليهودي إذ أكسبه قيمة تربوية تعبر عن صرخة إنذار ويقظة من عقاب». أما في المؤتمر الصهيوني الثالث المنعقد عام ١٨٩٩ ، فقد فصل نوردو الحلول الثلاثة الممكنة للمشكلة اليهودية: الأول، التغيير الجذري للطبيعة الإنسانية. الحل الثاني، أن يتوقف اليهود عن أن يصبحوا يهوداً. ثم يقول بما أن الحل الأول طوباوي (خيالي) والحل الثاني غير مقبول، إذن فلا بد من التسليم بالحل الثالث وهو تجميع اليهود في وطن تاريخي. بعد ذلك يؤكد نوردو: «إن تاريخ اليهود سواء في فرنسا أو في بقية البلدان الأخرى ليس إلا تراكماً من الدماء والمعاناة».. هكذا ولدت الحركة الصهيونية في رحم اللاسامية التي روجتها هذه الحركة سنوات طويلة.

أما الروائي الشهير إميل زولا فقد انتقد في رسالته الموجهة إلى رئيس الجمهورية آنذاك استغلال قضية دريفوس على ذاك النحو العنصري ـ العرقي. وقد اضطر الكاتب أن يعيش في منفاه في لندن سنوات طويلة. إلا أن المعادين للسامية كانوا ينظمون التظاهرات التي رفعت شعارات «يسقط زولا» و«الموت لليهود». هذه هي خلاصة اللاسامية في فرنسا في أثناء القرن التاسع عشر.

في السنوات الأخيرة، اشتدت موجة العداء للسامية التي تؤججها الحركة الصهيونية في فرنسا بحيث تعمل على اختلاق مطبوعات تهدد المعابد اليهودية، والخطباء والكهنة المسؤولين، وعلى الخصوص في الأعياد والاحتفالات الدينية اليهودية، وتخلق حالة من الذعر والخوف وتنشر الحرس المسلحين بالتعاون مع رجال الشرطة الفرنسية.

وتنشر الصحف والمجلات الصهيونية على الدوام مقالات ولقاءات وتحقيقات

عن اللاسامية إذ تعتبرها واحدة من أهم ركائزها. وتكشف ملفات المخابرات الفرنسية العامة عن هذه العمليات كما نشرتها الصحيفة الشهيرة le canard enchaîne في العام ١٩٨٠ فقد أحصت (٢١) عملية تفجير معادية للسامية في العام ١٩٧٨ و(٩٢) أخرى في العام ١٩٧٩. كما تشير تقارير «لجنة الحسابات» commission du bilan التي تشكلت في أثناء انتخابات الرئيس فرانسوا ميتران، إلى أن العام ١٩٧٥ سجل (٥٣) عملية معادية للسامية، وفي العام ١٩٧٦ (٦٨) عملية، وفي العام ١٩٧٧ (١١٢) عملية، وفي العام ١٩٧٨ (١٢٦) عملية، وفي العام ١٩٧٩ (١٧٥)، وفي العام ١٩٨٠ (٢٣٥) عملية. أي إن مجموع العمليات بين عامي ١٩٧٥ و١٩٧٠ يقارب ٧٦٩ عملية.

إن إسرائيل هي المستفيدة الأولى من كل عمليات اللاسامية التي تقوم في فرنسا. ففي أعقاب تفجير المطعم اليهودي في شارع روزيير عام ١٩٨٢، دعا بيغن، كما أسلفنا، الشباب اليهودي الفرنسي إلى تنظيم ورص صفوفه. وهو يعني بذلك يهود فرنسا كافة.

كما نشرت مجلة «منيت» Minute أخباراً تشير إلى أن آلافاً من الشباب اليهودي يقومون بإجراء التدريبات السرّية في أنحاء باريس. لقد روّجت الصهيونية مسألة الدفاع الذاتي autodéfence وهيأت روّادها للمواجهة. وبعد تفجير معبد كوبرنيك عام ١٩٨٠، ظهرت تنظيمات عديدة منها «التنظيم اليهودي للدفاع» organisation juive de défence وذهبت الصهيونية إلى أبعد من هذا الحد حيث درّبت ٣٠٠ شاب يهودي على الكراتيه. وهناك مجموعة من الشباب اليهودي جمعت في ذخيرتها ٣٠٠ هراوة حديدية و٢٠ مسدساً.

بعد أحداث التفجير أعلن غي دي روتشيلد، رئيس «الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد» قائلاً: «إننا لسنا وحيدين». ويقصد بذلك أن إسرائيل والقوى الرجعية الفرنسية تدعم الصهيونية. ظهرت الأفكار نفسها عام ١٩٧٩ في إثر تفجير المطعم الجامعي اليهودي «ميديسيس» Medicis في الحي اللاتيني، وذلك على

لسان «الهيئة اليهودية للعمل» comité juif d'action، كالعبارة الآتية «أن تكون يهودياً يعني أن تكافح وتحارب». وبعد فترة وجيزة من هذه الحادثة ولدت المنظمة الصهيونية المعروفة بـ «انبعاث اليهودي» renouveau juif.

تعتبر الحركة الصهيونية الفرنسية اللاسامية أحد شروط وجودها وديمومتها، بل عاملاً أساسياً في ظهورها. اتخذت معاداة السامية، في فرنسا، أشكالاً متعدّدة دينية وقومية وعصرية. وهي مرتبطة، بدون شك، بالثقافة الغربية. إن الصهيونية ترى في العداء للسامية ظاهرة طبيعية. فالدعاية الصهيونية تحاول على الدوام أن تخلق العداء للسامية عن طريق تضخيم الأحداث الجانبية كما فعلت مع أحداث التفجيرات في باريس. يؤكد «المجلس التمثيلي ليهود فرنسا» CRIF أن معاداة السامية في فرنسا ليست في حالة تناقص، بل على العكس، في حالة ازدياد وخصوصاً بين صفوف الأجيال الجديدة.

إن ما تثيره معاداة السامية من ردود فعل عند أطراف الحركة الصهيونية هي التعبئة والعمل.

في نهاية المطاف، اللاسامية والصهيونية من اختلاق الغرب.. وينسجمان في الوظيفة والهدف.

- ٢ -

قضية دريفوس (١٨٩٤-١٩٠٦)

تحتل «قضية دريفوس» l'affaire Dreyfus مكانة متميزة في عملية صوغ النظرية الصهيونية السياسية إذ أكد مؤسسها الشهير، تيودور هيرتزل أنه استوحى أسس نظريته من هذه القضية التي تمخضت عن النتائج الآتية:

١- يشكل اليهود في كل بلدان العالم، وأياً يكن البلد الذي يعشيون فيه «أمة» واحدة.

٢- كان اليهود في كل زمان ومكان هدفاً للاضطهادات.

٣- لا يستطيع اليهود أن يندمجوا في نسيج أية أمة يعيشون فيها.

وأهم ما توصل إليه هيرتزل في صوغ نظريته الصهيونية لاحقاً:

أولاً: رفض الاندماج، ولم تكن دول شرق أوروبا، وخصوصاً الأمبراطورية الروسية تبيحه لليهود في الوقت الذي بدأت بتحقيقه دول غرب أوروبا.

ثانياً: إنشاء دولة يهودية يتجمع فيها جميع يهود العالم ونبذ فكرة إقامة «وطن روحي» ومركز إشعاع للدين اليهودي والثقافة اليهودية.

ثالثاً: ينبغي إنشاء هذه الدولة في مكان «شاغر» وهي فكرة مميزة للاستعمار السائد في ذلك العهد ومعناها عدم إقامة أي اعتبار للسكان الأصليين.

لا بد قبل البدء بالحديث عن هذه القضية وملابساتها، من إلقاء بعض الضوء على التسلسل التاريخي لهذه القضية، ليكون مدخلاً لمناقشة أثرها في صعود الصهيونية وتبلورها.

١٨٩٤

٢٤ أيلول/سبتمبر: سلمت خادمة، تعمل في السفارة الألمانية وثيقة للمخابرات الفرنسية، عرفت باسم «اللائحة» bordereau تدل بشكل قاطع على أن ضابطاً فرنسياً سلّم وثائق تتعلق بالمدفعية إلى ألمانيا.

١٤ تشرين الأول/أكتوبر: يصدر وزير الحرب، الجنرال ميرسييه، أمراً بتوقيف الكابتن دريفوس، بحجة تشابه خط يده مع خط كتابة الوثيقة السابق ذكرها، وفي الخامس عشر من الشهر نفسه يلقى القبض على دريفوس.

١٠ تشرين الثاني/نوفمبر: تنشر صحيفة «الكلمة الحرة» libre parole خبر إلقاء القبض على دريفوس.

١٩-٢٢ كانون الأول/ديسمبر: محاكمة الكابتن دريفوس وصدور الحكم بتجريده من رتبته العسكرية، ونفيه نفياً مؤبداً إلى جزيرة «الشيطان».

١٨٩٥

٥ كانون الثاني/يناير: مراسيم تجريد دريفوس من رتبته في ساحة المدرسة العسكرية بينما يطالب هو ببراءته. يصرخ الجمهور المحتشد «الموت لليهود».

١٣ نيسان/أبريل: يصل دريفوس إلى جزيرة «الشيطان».

١ تموز/يوليو: يعين «بيكار» رئيساً لقسم المخابرات، ويكلف رسمياً متابعة ملف دريفوس.

١٨٩٦

آذار/مارس: اكتشاف رسالة غير مبعوثة، عنونها الملحق العسكري في السفارة الألمانية، موجهة إلى القائد أيسترهازي. يكتشف «بيكار» أن خط كتابة «اللائحة» يتشابه وخط يد أيسترهازي. بعد الاطلاع على وثائق عملية ١٨٩٤، تبين بأن الاتهامات التي وجهت إلى دريفوس لا أساس لها. وبعد الاطلاع على الوثيقة السرّية، الموجهة

إلى المحاكمة للتداول وليس للدفاع، وعنوانها «هذا الحقير دريفوس...»، تستمر في رسالة من الملحق العسكري الإيطالي، بانيزاردي في شفارتزكوبن.

٥ آب/أغسطس: يعلم «بيكار» رسمياً الجنرال بواديغير ومن بعده في ٢ أيلول/سبتمبر الجنرال غونز.

٣ أيلول/سبتمبر: تكشف صحيفة «لكلير» l'Eclair بعض خفايا عملية ١٨٩٤، وعلى الخصوص، وجود الوثيقة السرية «هذا الحقير دريفوس...»

١٤ أيلول/سبتمبر: أخبار كاذبة عن هرب دريفوس.

٢٦ تشرين الأول/أكتوبر: يتظاهر «بيكار» أكثر فأكثر إلحاحاً في الأمر ويرسل في مهمة إلى الشرق، ومن ثم إلى الجزائر وتونس، ويغيب عن باريس أكثر من عام. ثم يكتب وصيته التي تحتوي اكتشافاته المفترض أن يفتحها رئيس الجمهورية في حالة وفاته.

٦ تشرين الثاني/نوفمبر: نشر كتيب لبرنار لازار عنوانه «محاكمة خاطئة.. الحقيقة بشأن قضية دريفوس».

١٨٩٧

١٣ تموز/يوليو: «ليبلوا»، صديق «بيكار» يأتمن شيرير كيستنر، نائب «مجلس الشيوخ» الفرنسي Senat

١٥ تشرين الثاني/نوفمبر: ماتيو دريفوس يشهّر بـ «أيسترهازي».

١٨٩٨

١١ كانون الأول/ديسمبر: أيسترهازي الذي طالب بإجراء المحاكمة، يقال من منصبه.

١٣ كانون أول/ديسمبر: ينشر إميل زولا مقالته الشهيرة «إني أتهم» j'accuse في صحيفة «الأورور» l'Aurore.

٢٠ شباط/فبراير: تكوين لجنة للدفاع عن حقوق الإنسان.

٢٣ شباط/فبراير: يحاكم زولا بالسجن والأشغال الشاقة مدة عام كامل.

٢٦ شباط/فبراير: إعفاء «بيكار» من منصبه.

١٢ تموز: توقيف أيسترهازي.

١٣ تموز/يوليو: توقيف بيكار.

١٨ تموز/يوليو: حكم جديد يصدر بحق الكاتب إميل زولا.

٣١ آب: إلقاء القبض على القائد هنري التابع للمكتب الثاني لتزويره «الوثيقة السرّية».

٢٥ تشرين الأول/أكتوبر: طلب لوسي دريفوس إجراء استفتاء حول القضية من جديد وقد تم قبول الطلب.

١٨٩٩

٣ حزيران/يونيو: إصدار قوانين جديدة وإعادة النظر في الأحكام.

٦ حزيران/يونيو: دريفوس يغادر جزيرة «الشيطان».

٧ آب/أغسطس: نقاش حاد حول عملية «رين».

٩ أيلول/سبتمبر: حكم جديد بحق دريفوس.

١٩ أيلول/سبتمبر: يعفى عنه.

١٩٠٠

٢٤ كانون الأول/ديسمبر: التصويت على قانون العفو Amnistie

١٩٠٦

١٢ تموز/يوليو: تصدر محكمة التمييز قانوناً «تكسر» فيه قانون المجلس الحربي في «رين» دون إلغائه.

١٣ تموز/يوليو: يعاد كل من دريفوس وبيكار إلى صفوف الجيش.

٢٠ تموز/يوليو: يمنح دريفوس وسام الشرف.

١٩٣٠

١١ تموز/يوليو: مات ألفريد دريفوس.

١٩٤٥

١٤ كانون الأول/ديسمبر: ماتت زوجته لوسي دريفوس.

كان العداء للسامية هدفاً من وراء إثارة قضية دريفوس، إذ إنها حرضت اليهود على اتخاذ مواقف صارمة إزاء أحوالهم، خصوصاً وأن الأوساط الرجعية أرادت أن تثير نعرة العداء للسامية مثيرة بذلك مسألة اندماج اليهود في المجتمعات الأصلية، حيث ظهرت أولى إشارات العداء للسامية في الاتهام الذي وجه إلى دريفوس. بيد أن العناصر المعادية للسامية كانت تعبر عن نفسها في الجيش الفرنسي. بهذه المناسبة ظهرت مفاهيم معادية للسامية مثل إن «اليهودي وحده قادر على الخيانة». ومن بعد ذلك ظهرت مشاعر العداء للسامية في تجريده من رتبته العسكرية في الخامس من كانون الأول/ديسمبر ١٨٩٥، وكان تيودور هيرتزل مؤسس الصهيونية العالمية، يتابع تلك التظاهرة لتغطيتها في الصحيفة الفينية «الصحافة الحرة الجديدة» (neue freie presse) إذ كان حينئذ مراسلاً لها في باريس. وقد تأثر هيرتزل بمشاهدته «الحشود التي تهتف بشعارات معادية للسامية». وقد استوحى نتيجة ذلك كتابة مؤلفه الصهيوني الشهير «الدولة اليهودية» Etat juif أساس الصهيونية السياسية. تدّعي الصهيونية أن نشر مقالة «إني أتهم» لزولا في كانون الأول/ديسمبر من العام ١٨٩٨ كان سبباً في انطلاق تظاهرات في كل من باريس، ونانت، وبوردو والمدن الفرنسية الأخرى. كذلك في الجزائر في منتصف العام ١٨٩٧. كما راحت المنظمات اليهودية تحث اليهود على القيام بتظاهرات ضد موجة العداء للسامية في فرنسا والجزائر. ودعا زادوك كان، إلى إنشاء «منظمات خاصة» لمكافحة العداء للسامية. تعتبر الصهيونية

أحداث قضية دريفوس أول محاولة من اليهود لإيقاف عملية الاندماج والانصهار في المجتمع الفرنسي. وفي أعقاب هذه الأحداث ظهر الأدب اليهودي الصرف، وكان من رواده أندريه سبير، إيدموند فلبج.

منذ العام ١٩٠٦-١٩١٨ بدأ انحسار في مشاعر العداء للسامية لكن وثيقة «بروتوكولات حكماء صهيون» protocoles des sages de Sion كانت تتداول في فرنسا. ومن الصحف التي أنشأتها المنظمات اليهودية «الكلام الحر» libre parole التي أخذت تخفف من حدة عدائها للسامية ومن ثم استولت عليها.

«العمل الفرنسي» Action française حركة فوضوية تأسست عام ١٨٩٨، وقادت تظاهرات عنيفة في الشارع الفرنسي في كانون الأول/ديسمبر ١٩٠٧ في الذكرى الثانية عشرة لتجريد دريفوس من رتبته العسكرية.

إذا ألقينا نظرة خاطفة على أدب هذه المرحلة الذي صاحب «قضية دريفوس»، نلاحظ ظهور ما يسمّى تيار العداء للسامية الذي كان من دون شك في مصلحة الصهيونية العالمية. والموضوعات التي طرحت آنذاك هي: المؤامرة اليهودية على العالم المسيحي، المجتمعات السرّية واليهود، التجسس اليهودي الألماني منذ قضية دريفوس، الإرهاب اليهودي، الغزو اليهودي، الجريمة الشعائرية، وغيرها من الموضوعات المثيرة التي مهدت الطريق أمام ظهور الصهيونية السياسية. أما أبرز الكتاب فهم: لوي داست، إيربين جوهير، إدوارد جوبير، ألبرت مونيو، ليون دوديه. وفي عشية الحرب العالمية الأولى ظهرت قوائم إحصائية لليهود في الجيش، وسلك القضاء، والإدارات المتنوعة، وفي الطبقات العليا من المجتمع الفرنسي.

كانت الصهيونية على أتم استعداد لإعادة إثارة قضية دريفوس في كل لحظة، ففي العام ١٩١٢، عندما لم تمنح الأكاديمية الفرنسية جائزة «الغونكور» Goncourt الأدبية للكاتب اليهودي جوليان بيندا، كتب إلى دانييل هالفي قائلاً: «إذا شئت أن تعيد قضية دريفوس فإننا على أتم استعداد لبعثها من جديد».

ولعل أهم ما استخلصته الصهيونية العالمية من «قضية دريفوس» استمرار مشاعر

العداء للسامية Antisémitisme. إنها حسب الدعاية الصهيونية تعتمد على أسس طبيعية، ملخصها: كل شعب يكره الشعوب الأخرى، ولكن جميع الشعوب تكره اليهود على الخصوص. وقد أكد هيرتزل أن «الشعوب التي نعيش وسطها تكرهنا جميعها إما سراً وإما علناً». وذهب بينسكر إلى أبعد من هذا الحد عندما قال: «بما أننا نعتبر الكره لليهود مرضاً شيطانياً وراثياً يعانيه الجنس البشري.. فإنه يجب علينا أن نستخلص لأنفسنا استنتاجاً مهماً فحواه أنه يجب العدول عن النضال ضد هذه الميول العدائية كعدولنا عن النضال ضد الميول الوراثية على اختلافها».

فالعداء للسامية عامل أساسي في ظهور الصهيونية. عندما استفحل شعور اليهود بضعف صلتهم بالبلدان التي يعيشون فيها، انبثقت الصهيونية كرد فعل. وقد ظهر هذا العداء في الغرب، وكذلك الصهيونية. وإن أهم ما يغضب الصهيونية أن ترى الجالية اليهودية في حالة جيدة. هناك صلة عضوية بين الصهيونية والعداء للسامية.

لقد أثرت «قضية دريفوس» في مجمل الأحداث الاجتماعية والسياسية في فرنسا، وكان أثرها كالهزّة التي خلّفت آثاراً امتدت لكي تؤثر في الأجيال اليهودية التالية كما عبر عن ذلك الشاعران هنري فرانك وأندريه سفير بقولهما: «إن جيلاً بأسره ولد تحت آثار قضية دريفوس».

أما صحيفة «الأرشيف اليهودي» archives Israélites فكتبت في ٢٦ تموز/يوليو عام ١٩٠٦ قائلة: «مهما كانت قضية دريفوس، فإنها انتهت بالنسبة إلى اليهود لكن نتائجها جعلتنا نحبها أكثر فأكثر، وإذا كان من الممكن تسميتها، فنقول إنها بلدنا العزيز».

من يتمعن في تفاصيل التسلسل التاريخي لأحداث هذه القضية، يلاحظ أنها لم تبدأ بدين دريفوس في العام ١٨٩٤ على الرغم من التظاهرات التي صاحبت تجريده من الرتبة العسكرية. فالتوتر لم يصعد شيئاً فشيئاً إلا بعد تسرب الأنباء الخاطئة وهرب دريفوس في ٣ أيلول/سبتمبر ١٨٩٦ ونشر الوثيقة السرّية في الرابع عشر من أيلول/سبتمبر حيث أن القضية قسمت الرأي العام الفرنسي، فبدأت الفتنة

بعد عزل «أيسترهازي» ونشر مقالة إميل زولا «إني أتهم» في كانون الأول/ديسمبر ١٨٩٨.

إن «قضية دريفوس» أشبه ما تكون بالمسرحية التي تم إعدادها من وراء الكواليس، واختير لها زمن العرض على مسرح خصب هو المسرح الفرنسي. فالدوائر التي نسجت خيوط هذه المسرحية «الوهمية ـ الواقعية» إنما كانت تهيئ الأرض وتحرثها لرأس كبير هو... تيودور هيرتزل الذي ألف نظريته الصهيونية عام ١٨٩٧ أي بعد ثلاثة أعوام على مرور «قضية دريفوس» ذائعة الصيت.

- ٣ -

الصهيونية والنازية

قبل البدء بهذا الموضوع لابد من التأكيد أن القتل الجماعي الذي ارتكب ضد اليهود هو أمر يتعلق بالتاريخ الأوروبي، وعار يلحق بالنازيين. ومحاولة التكفير عن ذلك على حساب العرب الذين لم تكن لهم صلة بالموضوع، هي محاولة استعمارية تماماً أريد إخفاؤها باختراع أسطورة عن الصلة التاريخية بين إسرائيل القديمة ودولة إسرائيل الحالية.

لم يعترض الصهاينة على الخطة النازية القاضية بترحيل اليهود مما يسمّى «أرض الاستيطان الألماني التاريخية»، لأن أدولف إيخمان وعدهم بأن اليهود «سيقضون زمن الحرب بأمان» في غيتواتهم، وبأن الصهاينة سيشرفون على هيئاتهم الخاصة للإدارة الذاتية في الغيتو، يربون ويعيدون تربية الشبان واليهود الكبار بروح الصهيونية، وسيهيئون اليهود على هذا النحو «للانتقال» المقبل إلى الدولة اليهودية التي وعدهم النازيون بإنشائها بعد انتصار «الرايخ الثالث».

هذه الحقائق ينبغي أن نضعها نصب أعيننا عندما نريد معالجة علاقة الصهيونية والنازية في فرنسا.

حاولت الدعاية الألمانية المعادية للسامية إقناع الفرنسيين بـ«المعطيات العلمية» للصراع ضد اليهود: لهذا الغرض أنشئ في آب/أغسطس ١٩٤١ «معهد دراسات المسائل اليهودية» بإشراف البروفسيور كلاسين. كما عملت السفارة الألمانية في سبتمبر/أيلول ١٩٤١ على تخصيص ٢٠٠ ألف فرنك لافتتاح معرض عنوانه «اليهودي في فرنسا». والغرض من كل تلك المحاولات هو زرع الكراهية في نفوس الفرنسيين

إزاء اليهود وذلك طبقاً للأهداف المرسومة بين الصهاينة والنازيين من أجل البحث عن الحلول. لم تكتف الصهيونية العالمية بذلك، بل أقدمت في ليلة ٢ و٣ أكتوبر/ تشرين الأول من العام ١٩٤١ على تفجير سبعة معابد يهودية في باريس. ارتكبها رجال «الحركة الاجتماعية الثورية».

كانت الصحافة الفرنسية في إبان الاحتلال النازي توجهها رقابة صارمة. وفي معظم الأحوال، كانت السفارة الألمانية تصدر إرشاداتها وتعاليمها، وخصوصاً بشأن المشكلة اليهودية التي احتلت مكانة هامة سواء في الصحافة أو في مؤتمرات وزير الإعلام النازي «غوبلز» الصحفية منذ بداية الحرب. أما أبرز الصحف التي كانت مهتمة بنشر أفكار معاداة السامية فهي «الصباح» le Matin «أنا في كل مكان» je suis partout «النداء» l'Appel و«العمل الفرنسي» l'Action française. كانت هذه الصحف تهلل لعمليات إيقاف اليهود وسجنهم مستخدمة بذلك أبشع الكلمات العنصرية. وكانت حكومة فيشي تساهم في شن حملات العداء للسامية حيث ألقت مسؤولية اندحار حزيران/يونيو عام ١٩٤٠ على الرجال السياسيين ذوي الأصول اليهودية.

عملت الصهيونية على إنشاء صناعة كاملة للأوراق المزورة بالتعاون مع بعض الموظفين في الإدارة الفرنسية، من أجل ألا يلتحق بعض اليهود وخصوصاً الصهاينة منهم بجبهات القتال ضد النازية. وهذه التزييفات كانت تقوم بها منظمات المساندة اليهودية، وحركات المقاومة، والشخصيات الدينية في آن واحد. وكانت تسعى للحصول على بطاقات التموين وتسجيل الطلبة في الجامعة.

عند دخول القوات الألمانية باريس، هرب بعض قادة المنظمات اليهودية وبقي القسم الآخر أمثال ليوكلاسير، ودافيد رابوبورت، ودافيد أوكس... بطبيعة الحال، لم يبق أمام غالبية اليهود إلا الهجرة أمام المؤامرة الصهيونية ـ النازية القاضية باضطهاد اليهود والمرسومة مسبقاً من وراء الكواليس. ولم تمنع حكومة فيشي الفاشية آنذاك هجرة اليهود حتى بعد احتلال المنطقة الحرة، لكن شرط العثور على البلدان المضيفة،

والحصول على تأشيره الدخول والنقود. وعملت الصهيونية العالمية، بتنسيق سري جداً، مع الحكومات الغربية على منع دخول اليهود إليها لكي تفكر في الحل البديل، ألا وهو الهجرة إلى فلسطين أو أقله جعل اليهود الفرنسيين يفكرون في الهجرة إليها. ومنذ تموز/يوليو عام ١٩٤١، كان الدخول إلى الولايات المتّحدة لا يتم إلا بالحصول على موافقة واشنطن. فاضطر اليهود للهجرة إلى كل من المكسيك وكوبا وسان ـ دومنيك. فالبلدان الأوروبية التي تتباكى الآن على مصير اليهود كانت المسؤولة الوحيدة عن كل الاضطهادات والقتل الجماعي وعمليات المحاصرة. ولم يكن للحكومات العربية آنذاك، بالرغم من عمالة معظمها وارتباطاتها بالاستعمار، أي دور في التضييق على اليهود العرب هناك. وأكبر دليل على ذلك، أن حكومة فيشي النازية هي التي كانت تمنح تأشيرة الخروج، وكانت سلطات الاحتلال الألمانية تضع كل العراقيل أمام الرحيل على متن السفن المحايدة وتجبرهم على دفع الأجور بالدولار. في العام ١٩٤٢، أصبحت الهجرة الرسمية مستحيلة تقريباً. هكذا كانت النازية والصهيونية تتعاملان مع اليهود. أما الجنرال ديغول فقد وقف ضد كل التشريعات المعادية لليهود مؤكداً بذلك «أن القوانين القاسية الموجهة ضد اليهود الفرنسيين ليس لها، وسوف لن يكون لها، أية شرعية في فرنسا الحرة؛ وهذه القوانين إنما تعتبر صفعة لشرف فرنسا وظلماً لمواطنيها اليهود». وفي العام ١٩٤٢ وجه الجنرال ديغول نداءً إلى رئيس «المؤتمر اليهودي العالمي»، في نيويورك، مؤكداً له ثانية «أن للقرار الشهير حول تحرير يهود فرنسا ما لإعلان حقوق الإنسان والمواطن النافذ دائماً من أهمية، ولا يمكن لرجال فيشي أن يلغوه».

إن حملة فيشي بالتعاون مع النازية، كان هدفها إبادة اليهود بحجة أنهم أجانب، وفي الوقت ذاته تبدي تعاطفها مع اليهود الفرنسيين. إن عمل حكومة فيشي يمكن اعتباره عملاً لا سامياً وذلك من خلال وضعه كل المؤسسات الحكومية تحت تصرف النازية آنذاك.

التعاون بين النازية والصهيونية أثبتته الأدلة والوثائق التاريخية، حيث يؤكد هارولد هو سكينز، مبعوث الرئيس الأميركي روزفلت، المكلف في العام ١٩٤٣، إجراء جولة

استطلاعية في الشرق الأوسط قائلاً: «من الشائع والمعروف أن ـ للهاغاناه ـ المنظمة اليهودية العسكرية السرية، مخازن سرية للرشاشات وللأسلحة الصغيرة، كما أن لديها مخططات جاهزة للقتال اشترت ـ الهاغاناه ـ الكثير من أسلحتها من قوات ـ فيشي ـ في سوريا وهرّبته في السنتين الأخيرتين إلى فلسطين». لقد استفادت النازية من الصهيونية ومن كل الصراع القائم آنذاك ومن هنا يضيف هوسكينز قائلاً: «إن إثارة الاقتتال بين العرب واليهود هو أحد الأهداف الرئيسية للدعاية النازية في هذه المنطقة، التي تعمل على توقيت الاقتتال بحيث ينفجر عندما تكون القوات الحليفة غير قادرة على فرز عناصر كافية منها لمعالجة الوضع في فلسطين. فضلاً عن ذلك، أصبحت الدعاية النازية ذات فاعلية كبرى لأنها تقلل من أهمية المصالح النازية في الشرق وتؤكد للعرب أن انتصار الحلفاء سوف يفضي حتماً إلى قيام دولة يهودية في الأراضي الفلسطينية».

وقد غيرت سنوات الحرب الست ١٩٣٩-١٩٤٥ كثيراً من ملامح اليهودية الفرنسية إذ تضافرت عوامل عديدة في مصلحة الصهيونية منها: معاداة السامية التي تبنّتها الدولة آنذاك بالمشاركة مع الغستابو والبوليس الفرنسي والمنظمات الصهيونية المتطرفة.

مما لا شك فيه، أن سنوات الحرب خلقت أوضاعاً مختلفة تماماً عما سبق بالنسبة إلى يهود فرنسا والمغرب العربي. فقد صدر عام ١٩٢٧، قانون كريميو القاضي بمنح اليهود الجزائريين الجنسية الفرنسية. كما أنشئ لاحقاً أي في العام ١٩٤١، مكتب مفوض عام يهتم بالمسائل اليهودية، أي الأحرى يعمل على تطبيق القوانين على اليهود. وقد تشكلت هذه المكاتب على غرار المجالس اليهودية judenrat التي أسستها النازية في جميع أنحاء أوروبا. تنوعت أساليب اللاسامية في هذه الحقبة، وعلى الخصوص في المناطق المحتلة. كمنع امتلاك جهاز الراديو، أو التلفون، أو حمل النجمة الصفراء... إلخ.

أما القرار الذي اتخذه «مؤتمر وانسي» conférence de wannsee لحل المشكلة اليهودية فهو النفي الجماعي لليهود، تعاونت على تنفيذه أطراف عديدة منها البوليس

الفرنسي والسلطات الألمانية والقوى الصهيونية. ففي العام ١٩٤٢، أوقف البوليس الفرنسي ما يقرب من ١٩ ألف يهودي أجنبي، ومنهم شخصيات بارزة أمثال جورج مانديل، جان زي، فكتور باش.

من الصعوبة البالغة أن نوجز هذه الفترة، وعلى الخصوص بما يتعلق بالمشكلة اليهودية، إذ تشير الوثائق إلى اختفاء ما يقرب من ثلث يهود فرنسا، ذهب ٩٠ ألفاً منهم إلى معسكرات النازية، و١٠ آلاف ماتوا في مناطق متفرقة. هذه المعلومات ليست أكيدة مئة بالمئة إلا أن جزءاً منها يقترب من الحقيقة. فالأبعاد المتوخاة من وراء هذه العمليات كانت واضحة، وهي تهيئة اليهود لإيجاد ما يسمّى «الوطن القومي». إنها جزء من اللاسامية الأوروبية التي توافقت بشكل تام مع الأهداف الصهيونية.

وقد نفذت الدعاية المعادية لليهود بفرنسا بسرعة إذ باشرت عملها بعد مدة وجيزة من الاحتلال وأطلق على ذلك «بروباغاند أبتلينغ» propagande abteilung المنبثق من وزارة الإعلام ودعاية الرايخ الثالث. ولعل المعرض الشهير «اليهود وفرنسا» الذي نظم في الخامس من أيلول/سبتمبر من العام ١٩٤١ خير دليل على ذلك، وقد أظهر هذا المعرض الذي نظمته السفارة الألمانية في فرنسا آنذاك، اللاسامية بكل أشكالها جاعلاً من اليهود المسؤول عن كل المساوئ والمظالم. وهذه فكرة نرفضها نحن ذلك لأننا لا نعادي اليهود كدين وثقافة وإنما نعادي الحركة الصهيونية التي أوجدها الاستعمار. ويشبه هذا المعرض إلى حد بعيد المعارض التي نظمت في كل من برلين وميونيخ وروما وقد ذهب المشرفون على هذا المعرض إلى حد دفع أموال معينة للزائرين. لم يبق المعرض في باريس وحدها إذ راح يتنقل في المدن الفرنسية الكبرى. أما من الإصدارات الصحفية فيمكننا أن نذكر عدة مطبوعات منها «الدفتر الأصفر» cahier jaune وقد اتخذت المسألة اليهودية حجماً أكبر وانتشرت على جميع الصعد، إذ انتقلت هذه الحملة إلى الإذاعات ومن هذه الإذاعات نذكر «راديو ـ باريس» Radio-Paris والإذاعة الوطنية radiodiffusion nationale وقد نظما برامج خاصة عن المسألة اليهودية. لقد أرادت النازية والمتعاونون معها من

الصهاينة وضع العنصرية اللاسامية في إطار علماني، وأسسوا لهذا الغرض معاهد ومدارس، على سبيل المثال «المعهد الأنثروبولوجي - السوسيولوجي» و«معهد دراسات المسألة اليهودية والإثنوغرافية العرقية»... وشجعوا هذه الدراسات في الجامعات الفرنسية. يضاف إلى ذلك تأسيس عدد من التنظيمات التي كانت تروج اللاسامية منها: «المنظمة الفرنسية للدفاع عن العرق»، و«رابطة الصحفيين المعادين لليهود». إن معظم هذه الدعاية ركزت على «ذنب اليهود في إشعال الحرب وانتشارها» وأنهم «ضد مصالح أوروبا» و«المسؤولون عن مقتل المسيحيين في روسيا»... إلخ.

وعمل المسؤولون عن هذه الحملة الدعائية على إجراء «تحقيقات وإحصاءات للأفكار» في بداية العام ١٩٤٣. وكان السؤال الذي ترتكز عليه هذه التحقيقات هو: هل تحب اليهود؟ فأظهرت النتائج أن الغالبية تعلن عداءها للسامية. وعبرت الإجابات عن عدائية واضحة إذ وسمت اليهود آنذاك بأبشع الصفات مثل المستغلين مسببي التعاسة في فرنسا، اللامندمجين، الخونة، مفسدي المجتمع، العاملين في السوق السوداء، العابرين، إلى غير ذلك من الشتائم. مما لا شك فيه، أن هذه الآراء كانت تلقى الدعم الكامل من الحركة الصهيونية وقادتها وتفسح في المجال أكبر أمام تغلغلها في الأوساط الشعبية.

إننا لا نريد بهذا الصدد استعراض الأحداث التاريخية التي وقعت في هذه الفترة، بقدر ما نستشهد بها لتأكيد الارتباطات بين الحركة الصهيونية والنازية آنذاك، أو لنقل مدى استغلال الصهيونية لكل معطيات تلك الفترة من أجل تحقيق أهدافها، التي تركزت في تهجير يهود أوروبا إلى ما تسمّيه «أرض الميعاد».

تشير الإحصاءات إلى أن عدد اليهود كان في بداية الحرب ما يقرب من ٣٠٠ ألف، وفي العام ١٩٤٤ فقدت الجالية اليهودية ١٢٠ ألف شخص بطبيعة الحال، لم يكن جميع أولئك اليهود من الفرنسيين. وكانت الصهيونية تجعل الفروق بينهم واضحة، وعلى الخصوص إزاء يهود المغرب العربي. فإذا عدنا إلى التاريخ، نلاحظ

أن الجالية اليهودية الفرنسية واجهت موجات غفيرة من الهجرات وخصوصاً أولئك الذين وصلوا في العام ١٩٣٨ من ألمانيا وبولونيا. وقد عانى اليهود البولونيون أكثر من غيرهم من اليهود الآخرين وذلك بسبب فقرهم المدقع من ناحية، وصعوبة حصولهم على بطاقات الإقامة من ناحية أخرى. وحاولت لجان عديدة مساعدة الوافدين، وخصوصاً الصهيونية منها التي كان يرأسها كل من بول بانليفي، إدوارد هيريو، إدموند وروبرت دي روتشيلد وسلفيان ليفي، وكاهن فرنسا الكبير إسرائيل ليفي. إلا أن هذه اللجان كانت غير قادرة على استيعاب هذا العدد الضخم من المهاجرين اليهود. وأشار في تلك الأثناء الكاتب الليبرالي بينجامين كريميو في «المجلة الفرنسية الجديدة» nouvelle revue française إلى ضرورة الاعتناء بالأوضاع الإنسانية لكل من يهود بولونيا وروسيا. كان العداء للسامية صارخاً في تلك الأيام، فقد صرح ليون بلوم في «اللجنة العالمية ضد اللاسامية»: «لن أرى في العالم هذه الدرجة من المعاناة واللاأخلاقية التي أرى فيها اليهود الفرنسيين الذين يغلقون أبواب فرنسا أمام المهاجرين اليهود من الدول الأخرى. وليس هناك من مثل في العالم يدل على أن الطمأنينة تأتي من خلال الجبن، وهذا غير ممكن لا بالنسبة إلى الشعوب ولا إلى الجماعات البشرية والإنسانية».

يكشف هذا القول إلى حد كبير أن اليهود لا يمكن أن يشكلوا أمة كما تدّعي الصهيونية. فالتناقضات الموجودة بين يهود الأشكيناز والسفارديم واليهود الفرنسيين، لم تستطع الصهيونية استيعابها ولا حلها.

لا بد من الإشارة إلى أن اليهود انقسموا قسمين من مواقفهم إزاء النازية منهم من أيدها وعلى الخصوص، الصهاينة، ومنهم من التحق بالمقاومة، وخصوصاً من الطبقة العاملة الأجنبية. ومن أهم منظمات المقاومة اليهودية آنذاك «الجيش اليهودي» Armée juive و«التنظيم اليهودي للكفاح» Organisation juive de combat يضاف إلى ذلك أن الصحف اليهودية، غير الصهيونية، كانت تدعو اليهود إلى مقاومة النازية وتعمل على كشف نيات الصهيونية.

كان هدف الصهيونية في إبان فترة الحرب، وهو مقاومة حركة الاندماج في الشعوب الأوروبية عن طريق إقناع يهود الدياسبورا بالتجمع لإرسالهم إلى فلسطين وتأسيس ما يسمّى جزافاً «الوطن القومي».

إن الحرب النازية أعطت الصهيونية نفساً جديداً. ففي نهاية عام ١٩٤٤، بدأت الحركة الصهيونية في فرنسا تجمع الأموال، تحت غطاء إعادة بناء المعابد المهدمة، فحصل كل من ليون هيس، وجي روتشيلد والكاهن الكبير جاكوب كابلان، في إثر زيارتهم إلى الولايات المتحدة، على أموال طائلة من «الهيئة الأميركية للتوزيع الموحد»، American Joint Distribution Comitte كما أن «المجلس التمثيلي لليهود» ظهر إلى العمل بشكل علني إذ كانت وظيفته «الدفاع عن حقوق الجالية اليهودية الفرنسية وحرياتها». كانت الصهيونية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية تقدم مساعدتها إلى المنظمات اليهودية الموالية، أما بعد الحرب فتوجهت كل المساعدات إلى إسرائيل. وخطت منظمات أخرى في الاتجاه نفسه مثل «هيئة الإنسان اليهودي» Comite juif d'Action sociale et de reconstruction إذ إن الوثائق التاريخية الجديدة تكشف عن التعامل الخفي بين النازية والصهيونية لأن أهدافهما في نهاية المطاف تصب في مصب واحد وهو العنصرية والتمييز العرقي.

الفصل الثالث

نشاطات الحركة الصهيونية

- ١ -

تهجير اليهود الفرنسيين إلى «إسرائيل»

في أعقاب حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، لم يقف اليهود الفرنسيون مكتوفي الأيدي إزاء ما كان يدور في ساحة الصراع العربي ـ الصهيوني. في تلك الأثناء أخذت الصهيونية تستخدم أسلحتها الدعائية من أجل تعبئة الرأي العام الفرنسي، وتصوير هذه الحرب على أنها تهديد لإسرائيل ووجودها. من علامات هذه التعبئة، النداء الذي وجهه الكاهن الكبير «كابلان» علناً، يخاطب به عموم الطائفة اليهودية في فرنسا. وقد تجسدت ردود الفعل بالقيام بالصلوات العامة بعيد الحرب، إضافة إلى تأسيس لجنة للتنسيق، هدفها جمع الأموال وتعبئة الشباب، ونشر هذه الحركة في عموم فرنسا.

ولعل التظاهرة الكبيرة الصامتة المؤلفة من ٣٠ ألف شخص التي شهدها يوم الأربعاء ٣١ حزيران/يونيو، لأكبر دليل على تلك التعبئة الصهيونية حيث إنها توجهت إلى «السفارة الإسرائيلية» ومن ثم أخذت تجتاح شوارع باريس. بعد ذلك عقد المتظاهرون اجتماعاً في «سيرك ديفير» Cirque d'hiver، أشرفت عليه كل من جمعية الصداقة الفرنسية الإسرائيلية، والرابطة الفرنسية ـ الإسرائيلية، والمجموعة البرلمانية الفرنسية ـ الإسرائيلية. وقد لعبت الصهيونية دوراً كبيراً في هذه التعبئة سواء في الأوساط الرسمية أو المهنية الفرنسية. وأكبر دليل على ذلك ما كتبه الراهب ويستفال، رئيس الجمعية الفرنسية البروتستانتية، إلى الكاهن الكبير كابلان، متمنياً له «إحلال السلام في القدس»، ولا بد من الإشارة إلى أن هذه التظاهرات لم تقتصر على باريس فحسب، بل امتدت إلى المحافظات الأخرى نذكر منها: تظاهرة صامتة مكونة من ٢٥ ألف شخص سارت في ستراسبورغ، وتظاهرة صامتة أخرى مكونة

من ٦ آلاف شخص سارعوا إلى تسجيل أسمائهم للتطوع لا كعسكريين بل كعمال في «الكيبوتز»، كذلك جمع الصهاينة مبالغ طائلة وأودعوها «الصندوق اليهودي الاجتماعي الموحد» F.S.J.U و«جمعية مساعدة إسرائيل» l'aide a Israël ووحدوا التبرعات على نحو منظم.

استفادت الدعاية الصهيونية تاريخياً إلى حد بعيد من أجهزة الإعلام وشبكة الوسائل السمعية ـ البصرية الفرنسية في بث سمومها الأيديولوجية، ولعل البرنامج الإذاعي الشهير «اسمعي إسرائيل» écoute Israël خير دليل على ذلك. فمن خلال الأغاني والبرامج المروّجة «لمنجزات إسرائيل الاجتماعية والإنسانية» تمكنت من التأثير في قطاعات واسعة من الجالية اليهودية، وخصوصاً الجاهلة منها. كما عملت الدعاية الصهيونية على نشر عدد كبير من الروايات والدراسات التاريخية والكتب الفنية وتخصيص الجوائز الأدبية، من أجل ترويج الرحيل إلى «إسرائيل» إذ خصص جوزيف كيسيل، من الأكاديمية الفرنسية آنذاك كتباً عديدة للحديث عن «إسرائيل». وكل تلك الدعاية كانت تتحرك تحت ستار «العودة إلى جذور اليهودية»، فقد أقام المركز الجامعي للدراسات اليهودية ومراكز صهيونية أخرى حلقات دراسية لنشر الثقافة اليهودية والعبرية في فرنسا.

مما لا شك فيه أن تأثير الصهيونية لم يتوقف على الجالية اليهودية، بل امتد إلى الأحزاب السياسية الفرنسية التي لها مواقفها المختلفة إزاء الصراع العربي ـ الصهيوني. وقد بقيت أحزاب معينة مثل الحزب الراديكالي، والحزب الاشتراكي، والوسط الديمقراطي مخلصة إلى إسرائيل. بينما عمدت الحكومة الفرنسية، المساندة لإسرائيل سابقاً، إلى قطع شحن الأسلحة عام ١٩٦٧ وخصوصاً طائرات الميراج، التي كان يعتمد عليها الجيش الإسرائيلي في اعتداءاته المتوالية على بلداننا.

يتوزع اليهود الفرنسيون في وجهات نظرهم على تيارين رئيسيين: تيار الكاهن الكبير كابلان المؤيد لإسرائيل والنابذ قطعاً لكل أطروحة ضدها، وبطريقة دوغمائية يطالب هذا التيار بإحلال «السلام» الثابت لإسرائيل، إلا أن عدداً من مثقفي هذا

التيار وقفوا بالرغم من ذلك إلى جانب الفلسطينيين والمقاومة العربية. ينتشر هذا التيار بشكل خاص بين أوساط الطلبة، لكن في إثر أحداث الطلبة عام ١٩٦٧، جرت مصادمات عنيفة بين الصهاينة ـ الاشتراكيين من جهة واليساريين المناصرين لفلسطين من جهة أخرى. وفي جامعة السوربون كانت المواجهة واضحة بين المدافعين عن السياسة الإسرائيلية والمدافعين عن سياسة حركة «فتح» الفلسطينية. أما الشباب اليهودي الواعي ممن ينتمي إلى أحزاب ومنظمات يسارية مثل «الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا» و«الكفاح العمالي»، و«رابطة الشيوعيين» و«رابطة الشباب من أجل الاشتراكية»، فكان معارضاً سياسة إسرائيل العدوانية وكذلك الصهيونية المتمثلة في الأحزاب السياسية الأخرى. وفي العام ١٩٦٩، تشكلت منظمة تحمل اسم «جبهة الطلبة اليهود» كانت تقف بوجه التيارات المعادية للصهيونية. وقد انعكس هذا الصراع في الحياة العملية، ففي الثاني من حزيران/يونيو عام ١٩٦٨ احتدمت المعارك في حي بلفيل في باريس بين المسلمين العرب المغاربة والصهاينة واستمرت مدة ثلاثة أيام وكانت الصهيونية محركة لها.

فالصهيونية تحاول على الدوام استغلال كل الظروف لكي تعبر عن آرائها، ففي تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧١، بعد زيارة بريجنيف باريس دعت عناصرها إلى القيام بتظاهرات في شوارع باريس لـ «مساندة» اليهود في الاتحاد السوفياتي.

بعد قرار الجنرال ديغول، جاء في العام ١٩٦٩، الرئيس الفرنسي اللاحق، جورج بومبيدو ليعلن قراره حول المقاطعة الجزائية لإسرائيل، ويأمر بإرسال قطع الغيار إليها. شكل هذا القرار منعطفاً هاماً في العلاقات الفرنسية ـ الإسرائيلية. كذلك أدى ذلك إلى تغيير المواقف السياسية ليهود فرنسا لأنها على الأغلب مرتبطة بالمتغيرات السياسية.

ولأحداث الطلبة عام ١٩٦٨ تأثير بالغ الأهمية في الحياة الداخلية للجالية اليهودية مثل الاتهامات، التي وجهها الشباب اليهودي إلى مؤسسات صهيونية مثل «تجمع الكهنة» و«الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد».

نتيجة للدعاية الصهيونية القائمة في فرنسا، هاجر منذ العام ١٩٤٥ ما يقرب من ٣٠ ألف يهودي إلى إسرائيل. وقد أطلقت الصهيونية ـ الدينية على تلك الهجرة اسم «عليا» alyah أي «الصعود» إلى إسرائيل بكل معانيه الدينية والسياسية. كما ساهم المؤتمر اليهودي العالمي congrès juif mondial فرع فرنسا و«الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد» في حملات التوعية الواسعة في محافظات عديدة مثل: ليل، نانسين ستراسبورغ، مارسيليا، تولوز، من أجل الهجرة إلى «إسرائيل».

من المعروف أن أوضاع يهود فرنسا الاقتصادية تطورت على نحو مطرد في السنوات الأخيرة، على الرغم من معاناة اليهود العرب من المغرب كل ضروب البؤس والفقر. ومن العجيب أن نلاحظ أن الطبقة الفقيرة من اليهود الساكنين في الأحياء الباريسية سان بولن، وبيلفيل، وغيرهما حققت المزيد من الأرباح التجارية، وتخلت عن مناطقها السكنية البائسة القديمة لكي تنتشر في الضواحي.

تتخوف الصهيونية، وتزداد مخاوفها يوماً بعد يوم من مسألة تنوع التقاليد الدينية والاجتماعية والفلسفية من جهة، وقضية الاندماج والانصهار في المجتمع الفرنسي من جهة أخرى، وكذلك تأثير الإعلام غير الصهيوني في أذهانهم. لذا فهي تحاول بجميع الأساليب التأثير في مجرى الأحداث. وخصوصاً من خلال لفت الأنظار على الدوام نحو مستقبل «إسرائيل» أكثر من اهتمامها بالمشكلات الداخلية للجالية.

في هذا المجال تسعى الصهيونية إلى بث الدماء في حركتها منذ حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٨ مؤكدة على لسان مفكرها الصهيوني الفرنسي الشهير إيمانيويل ليفينز وجود «طريقة جديدة ليصبح الفرد يهودياً في فرنسا منذ ١٩٦٧».

لقد فشلت الصهيونية في محاولتها دفع يهود فرنسا جميعاً للذهاب إلى فلسطين. يضاف إلى ذلك أن «إسرائيل» ترغب على الدوام في فرض وصايتها على سائر يهود العالم، لذا تستغل كل عدوان جديد على الأمة العربية كي تختبر يهود العالم، فتبدأ بطلب جمع التبرعات لدعم وضعها الاقتصادي والأيديولوجي في آن واحد. وقد لبت الصهيونية في فرنسا ذلك، في إثر اجتياح «إسرائيل» لبنان وارتكابها جرائم

صبرا وشاتيلا، إذ دعا آلان دي روتشيلد اليهود كافة إلى جمع التبرعات، ونشر تلك الدعوة في صحيفة «فرانس سوار» عدد ٢٢ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢، باسم المجلس التمثيلي للمنظمات اليهودية بفرنسا. هكذا تحاول الصهيونية تحميل اليهود في أنحاء العالم كافة جرائمها، وتعتبر اليهود مسؤولين عنها لا لشيء إلا لأنهم يهود. لذا ينبغي أن يقدموا الدعم لإسرائيل دون قيد أو شرط. هذا هو المنطق الصهيوني الذي يتهم أي رأي معارض لتلك الأهداف باللاسامية. لكن الصهيونية لا تنجح على الدوام في ترويج دعايتها، وفي كثير من الأحيان تقع في تناقضات كبيرة وخصوصاً في إثارتها مسألة «الولاء المزدوج» أو «المواطنة المزدوجة». إن هذه المسألة كثيراً ما تعرض اليهود للمخاطر لكونهم طائفة تعيش في كنف مجتمعات لا تؤمن بـ«الولاء المزدوج». كما أن الصهيونية لا يهمها معتقدات اليهود وآراؤهم السياسية أو مواطنهم الأصلية. أي إنها لا تطلب سوى الولاء الأعمى والتحمس لكل جرائمها وأفعالها المنكرة. وإذا ما وقف أحد في وجهها اتهمته مباشرة بالعداء للسامية. «الولاء المزدوج» إذن هو أسلوب صهيوني ـ ميكيافيللي. حين تفشل الصهيونية في تهجير اليهود الفرنسيين إلى «إسرائيل»، تحاول التغلغل في الأوساط اليهودية بغية تعبئة جزء منها لخدمة أهدافها بعيدة المدى. لذا فهي تولي اهتماماً كبيراً للمنظمات اليهودية وتحاول فرض سيطرتها وهيمنتها.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، اتسع التوزيع الجغرافي اليهودي في فرنسا وذلك بفعل حركات الهجرة السرّية من أوروبا الوسطى نحو باريس ومن إفريقيا الشمالية نحو مارسيليا. ففي العام ١٩٤٨، أقدمت الصهيونية على تهجير غالبية أولئك النازحين إلى «إسرائيل» مستفيدة بذلك من كل ما قدمته لها النازية من خدمات في التعبئة والدعاية.

ترتكز الصهيونية في ترويج دعايتها من أجل دفع اليهود الفرنسيين للهجرة إلى «إسرائيل»، على أسس معينة تحاول إعطاءها التبرير التاريخي والمنطقي من «هولوكوست» الحرب العالمية الثانية، إنشاء دولة إسرائيل، الحروب العربية الإسرائيلية المتتالية، التناقضات بين يهود شمال إفريقيا والحكومات العربية. كل هذه العوامل جعلت يهود فرنسا في وضع قابل للتأثر بحيث كانت الصهيونية تعتبر «أن انتصار دولة

إسرائيل يعني الانتصار على جميع أشكال الاضطهاد». ففي العام ١٩٧٠، خاطب غي دي روتشيلد باسم «الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد»، ولمناسبة تأسيس أول مستعمرة يهودية فرنسية في إسرائيل «ميكفه إسرائيل» قائلاً: «إننا لم نأتِ للبحث عن مأوى آمن يستقبلنا بقدر البحث عن رغبتنا الجامحة في تأكيد التماثل مع إسرائيل لبقايا شخصيتنا التي شوهت عبر قرون الضغينة والعار، وكذلك من أجل أن أسقط على إسرائيل ذاتي المستعمرة. لا عجب بعد ذلك، من التفجير العنيف لكل الأحقاد المتراكمة فجميع الشعوب المستعمرة (بفتح الميم) حديثاً تثبت ذلك». لقد أثارت الصهيونية، منذ نداء تيودور هيرتزل لتأسيس الدولة اليهودية حماسة بعض المفكرين والبروليتاريا اليديشية التي كانت تعيش في «الغيتو« الباريسي.

كما أن تاريخ الصهيونية في فرنسا، بين الحربين، كان يتركز بأيدي بضعة أفراد ومجموعات صغيرة. ولعل المبادرة الأولى ظهرت من خلال «رابطة اليهود العالمية» alliance israélite universelle بينما زار شارل نيتر، فلسطين في العام ١٨٦٨ لتحقيق مشروع «المدرسة الزراعية» التي بدأ باستقبال المهاجرين الجدد. ومن أبرز الشخصيات الصهيونية التي ساهمت في عمليات الهجرة، أدولف كريميون الذي كان يرأس آنذاك «رابطة اليهود العالمية». في ١٨٧٠، تأسست مستعمرة «ميكفه إسرائيل» Mikveh Israël قرب يافا، وتلتها لاحقاً مستعمرات مماثلة مكونة من جالية فرنسية. وساهمت في عمليات الهجرة مجلات وصحف عديدة منها مجلة «صهيون» Zion التي كانت عبارة عن ترجمة فرنسية لمجلة ألمانية، وكان يرأسها ويديرها الصهيوني الفرنسي المعروف بيرنار لازار. يضاف إلى ذلك، مجلة «الصدى الصهيوني» l'écho sioniste التي كان يرأسها ألكسندر ماروريك، ومجلة «المشعل» flambeau التي كان يرأسها جلك بهار. ومن المعروف أن الاتجاهات الصهيونية المتنوعة تجمعت في «الاتحاد الصهيوني في فرنسا» fédération sioniste de France في العام ١٩٠١. أما في العام ١٩١٥، فقد تأسست «العصبة الصهيونية الفرنسية» ligue franco-ionisie التي جمعت اليهود وغير اليهود من أوساط المفكرين والسياسيين أمثال: شارل جيد،

ماريوس موتيه، شال سيغنوبوسن، أندريه سفيرن إيمانيول في. وفي العام ١٩١٧، تأسست منظمة أخرى تحمل اسم «عصبة أصدقاء الصهيونية» ligue des amis du sionisme التي ضمت كلاً من ريتشارد بلوخن جوليان كين، جول اسحاق، وإدموند فليك. وفي العام ١٩٢٠ أسست مجموعة من الطلبة تنظيماً صهيونياً خاصاً بهم، وفي العام ١٩٢٥ أسس ليوبولد مينسغرن حاكم ستراسبورغ، اتحاداً خاصاً بمنطقتي الألزاس واللورين. وأصبحت لاحقاً مجلتا «المنبر اليهودي» Tribune juive و«أرض الميعاد» Terre promise الناطقتين باسم الصهيونية الرسمية في فرنسا.

إن الغرض من هذا الاستعراض التاريخي ـ الميداني هو توضيح مدىٰ تغلغل المنظمات الصهيونية وتأثيرها في الوعي اليهودي. من الواضح أن عمليات الهجرة إلى إسرائيل لم تتم بهذه البساطة، إذ عملت الصهيونية من خلال مؤسسات فاعلة أنشئت منذ القرن التاسع عشر واستمرت إلى وقتنا الحاضر.

ولتحقيق عمليات الهجرة، بذلت الصهيونية كل ما في وسعها لمساعدة اليهود الفرنسيين على الرحيل إلى إسرائيل ومنها تنظيم مكاتب خاصة للاستشارة والاستعلام، كما أيقظت لدى الجالية اليهودية الفرنسية ما تسمّيه العودة إلى «أرض الميعاد». إضافة إلى ذلك، أقدمت على إرسال الشباب اليهودي الفرنسي للعمل في «الكيبوتز» المزارع الجماعية الإسرائيلية ـ وعلى الخصوص في أعقاب حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ وحرب أكتوبر ١٩٧٣ لأغراض دعائية. ولا تقيم الصهيونية أهمية كبيرة لليهود في فرنسا، إذ يقول سمون إبستن السكرتير العام للحركة الصهيونية في فرنسا في إثر حرب حزيران: «يهود فرنسا نادراً ما شعروا كما يشعرون اليوم بأن إسرائيل تخص كيانهم، وبأن التعبئة من أجل الدفاع عن ـ دولتهم ـ تتخطى ما كانت عليه في خلال حرب الأيام الستة، حتى أن طبيعة هذا الدعم تنطوي على تماثل أكثر كمالاً مع الدولة اليهودية. منذ ستة أعوام، نشهد نضجاً مطّرداً لكفاح اليهودي، وعلى الخصوص، أعمال لجنة دعم يهود الاتحاد السوفياتي إذ سمح لنا ذلك بتثبيت أطر هذا التجمع الذي يعمل الآن على نحو متكامل».

إن الحقائق تكشف أن الصهيونية وإن تغلغلت في مختلف الأوساط، لكنها غير قادرة على تحريك جميع يهود فرنسا، ذلك أن عدداً لا يستهان به منهم لا يزال يرفض الصهيونية والذهاب إلى إسرائيل. يقول أحد الشخصيات اليهودية من البرجوازية الفرنسية: «لا تستطيع إسرائيل أن تتحمل شيئاً من اليهود في ظل أوضاعنا. إننا فرنسيون منذ أمد طويل ومن الصعب أن نستجيب لنداءات الصهيونية. إننا نعتبر الرحيل عن فرنسا ضرباً من الجنون المحض حيث نضطلع بكل شرف وحب بهذه الجنسية، وقد وجدنا، بفضل اندماجنا في المجتمع الفرنسي، مستوى عالياً من الثقافة والحضارة، واستطعنا تطوير قابلياتنا وأذواقنا. إننا لا نتخلى عن كل هذه المعرفة والخبرة من أجل بلد ليس ببلدنا.» إن الصهيونية تصطدم بهذه الأفكار وتجد مصاعب جمة في إقناع أولئك بالهجرة. لكنها بالرغم من ذلك تنجح في أوساط الشباب الصهيوني المتحمس، وعلى الخصوص، الطلبة. أما عدد الأشكيناز ـ اليهود Askenasim يهود أوروبا الشرقية ـ فهم أقل من يهود «السفارديم» Sephardim يهود شمال إفريقيا ـ ممن يرغبون في الهجرة إلى إسرائيل، بينما تذهب الصهيونية إلى طرح شعارات البحث عن الهوية اليهودية من أجل استقطاب اليهود الفرنسيين أو من خلال طرح موضوعات أخرى كالرجوع إلى العرق أو التاريخ أو التقاليد أو الأصول.

ويؤكد معظم اليهود الجزائريين أنهم «فرنسيون في الدرجة الأولى» nous sommes français d’abord وأن إسرائيل وطنهم الثاني، هذه الإجابات تقلق الحركة الصهيونية الفرنسية وتفشل مخططاتها في عمليات التهجير. يبقى أن عدد المهاجرين من اليهود الفرنسيين إلى «إسرائيل» يراوح بين ٣ و٤ آلاف شخص سنوياً وقد هاجر بين عامي ١٩٦٨-١٩٧٢ ما يقرب من ١٩ ألف شخص بفعل الدعاية الصهيونية. لا بد من الإشارة إلى أن هذه الهجرة ازدادت بشكل ملحوظ في أعقاب حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، ومعظم أولئك المهاجرين من الموظفين، والأطباء، والجامعيين، ولعل نكستنا القومية كانت سبباً آخر في تشجيع هذه الهجرة.

- ٢ -

دور الصهيونية في استعمار المغرب العربي

منذ منتصف القرن التاسع عشر، اهتم الاستعمار الفرنسي شأنه شأن الدول الاستعمارية الأخرى كإنكلترا وألمانيا والولايات المتّحدة، بالشرق الأوسط، ومن ثم بالمسألة اليهودية. فقد كتب موشه هسه، الذي ولد في ألمانيا وأمضى سنوات عديدة في باريس، كتابه الشهير «روما وأورشليم» في العام ١٨٦٢ قائلاً فيه: «إن فرنسا سوف تمد اليد بكل طيبة خاطر إلى اليهود لأجل إنشاء مستوطنات من شأنها أن تمد شباكها من قناة السويس إلى أورشليم ومن ضفاف الأردن إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط». ولكي يبرهن موشه هسه على صحة قوله بشأن إمكان الاعتماد على مصالح الدولة الفرنسية، يستشهد بكتاب الفرنسي «لاغارن». فقد جاء فيه أن للدول الأوروبية مصلحة في تأسيس دولة يهودية «تصبح وسيطة بين أوروبا وطرفي آسيا».

كان لليهود الفرنسيين وخصوصاً الصهاينة منهم دور كبير في استعمار الجزائر، إذ قاموا بتنظيم أنفسهم منذ العام ١٨٦٠، وتهيأوا لهذه المهمة. لم تكن المسألة الجزائرية من المسائل السهلة على الإطلاق، خصوصاً وأن وجود اليهود في الجزائر كان يمتد في القدم حتى يصل إلى الفترة القرطاجية. ولم تشر الإحصاءات بالضبط إلى عدد اليهود في الجزائر عام ١٨٣٠: ربما حسب التخمينات يصل عددهم إلى عشرة أو خمسة عشر ألف شخص يعيشون جنباً إلى جنب مع إخوانهم المسلمين الجزائريين. عندما بدأت الحملة العسكرية الفرنسية غزو الجزائر، كان اليهود القاطنون هناك يحكمون أنفسهم بأنفسهم، ويسكنون في أحياء خاصة بهم تسمى «ملاح». كان اليهود الفرنسيون يروجون أن الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر جزء من تحرير اليهود من «الاضطهاد العربي» و«الأحياء البائسة»... وكانوا إضافة إلى ذلك،

يدعون أن من أهداف الحملة الفرنسية سن «قوانين المساواة» بين اليهود الجزائريين واليهود الفرنسيين منذ العام ١٨٣٠ أي منذ دخول الاستعمار الفرنسي الجزائر، أخذ يروج ادعاءاته الكاذبة باحترام كل الأديان. وهي في الحقيقة، لم تكن سوى خطة تكتيكية للسيطرة على جميع الأقليات ومن ثم إخضاعها. وبعد مرور عام واحد على السيطرة الاستعمارية، قررت الحكومة آنذاك «رئيساً للأمة العبرانية» باعتباره حلاً موقتاً لمشكلة اليهود الجزائريين وقد دام هذا التشريع ما يقارب الاثني عشر عاماً. بعد ذلك، بادر اليهود الفرنسيون وخصوصاً ميشيل بيير وغوستاف دي اشتال، إلى اقتراح خطط معينة من أجل الاستعمار والاندماج. ولعل مجلس الكهنة نجح في خططه إذ عهد إلى رئيس كهنة مرسيليا، «التراس» في مهمة الذهاب إلى الجزائر والتفاوض حول أوضاع اليهود هناك، كما ذهب كريميو هو الآخر إلى الجزائر حيث زار كلاهما الجالية اليهودية الجزائرية واقترحا تأسيس مجلس كهنة، وفتح المدارس الخاصة باليهود الجزائريين. وفي العام ١٩٤٠، عهدت الحكومة في هذا الموضوع إلى هيئة محلية لتدارس المشروع. وبالفعل اجتمعت الهيئة لأول مرة في العام نفسه في بلدية الجزائر بمشاركة الكاهن الكبير جيوندا دي دافيد آمانو وبعض المسؤولين اليهود الآخرين. اتفق المجتمعون على أنهم مهيأون لقبول التشريع الفرنسي ونظام الكهنة اليهودي ولكن بشرط واحد وهو خضوعهم لتقاليدهم واستقلاليتهم إزاء مجلس الكهنة الرئيسي. في الاجتماع الأول، لم يخرج المؤتمرون بأية نتائج تذكر لذا تقرر انعقاد لجنة أخرى في باريس عام ١٨٤٣ تحت إشراف النائب أوجين جانفييه تضم كلاً من كريميو، ماكس تيودور سيرفبيرن وفيليب انسياش من أجل تمثيل الطوائف المختلفة. لكن كريميو وأتباعه أيدوا مسألة مساواة الحقوق والاندماج وربط الطوائف اليهودية الجزائرية بمجلس الكهنة الرئيسي، بينما رفض العسكريون ذلك. في العام ١٨٤٥، تقرر تأسيس ثلاثة مجالس كهيئة محلية في المدن الرئيسية: الجزائر، وهران، وقسطنطينة، مرتبطة بمجلس الكهنة الجزائري المستقل. بهذا حاول الاستعمار الفرنسي أن ينشئ لليهود الجزائريين تنظيماً على النمط الفرنسي وذلك وفق خطة لاستعمار البلاد برمتها. كما أخذت الدولة تفرض سيطرتها على الكهنة.

آنذاك قام نزاع بين أطراف عديدة لقيادة المجالس الكهنية الجديدة والاستيلاء على المناصب الرسمية الهامة. وقد لعب كاهن الجزائر الكبير ميشيل فيل، وأنصاره، دوراً كبيراً في إنشاء المدارس لنشر الأفكار الاستعمارية الفرنسية في أرجاء الجزائر، لكن هذا السلوك أثار صغار اليهود الأرثوذكسيين وجعلهم يحتجون في العام ١٨٤٧ إلا أنهم كانوا أيضاً واقعين تحت التأثير الفرنسي. فيما بعد أي في العام ١٨٦٢، نجح اليهود المتسلطون في ربط المجالس الكهنية المحلية بمجلس الكهنة الرئيس في باريس من جهة، ومن جهة أخرى تمكنوا من تعطيل مجلس كهنة الجزائر الذي انتفت الحاجة إلى وجوده. وفي هذه الفترة بالذات تقلد الكاهن الكبير سالمون أولمان لقب «الكاهن الكبير لفرنسا والجزائر».

منذ العام ١٨٤٥، خرج كريميو، اليهودي الشهير، المعادي للصهيونية لاحقاً، من مجلس الكهنة الرئيسي وبدأ ينظم حملاته الانتخابية للبرلمان بعد أن شعر بأن التنظيمات اليهودية لم تكن مخلصة لقضية مساواة الحقوق. وفي العام ١٨٤٧، أصبح لمدة قصيرة عضواً في الحكومة الموقتة، واقترح مع وزراء آخرين مسألة الاندماج التدريجي للجزائر في «المتروبول».. كما طالب بإعطاء المواطنة الفرنسية لا لليهود فحسب وإنما للعرب كافة. لكن ذلك لم يكن سوى ضرب من الخيال لأن العرب المسلمين الجزائريين كانوا مستعمرين تحت الأمبراطورية الثانية. وكان نابليون الثالث يحلم بتكوين «مملكة عربية» خاصة به، كما أن جميع محاولات اليهود المتنورة لم تؤد إلى نتيجة باستثناء حصول بعضهم على الجنسية الفرنسية. أما كريميو فقد استطاع أن يضغط على الحكومة في سن تشريع قانون ٢٤ أكتوبر القاضي بمنح اليهود الجزائريين حقوق المواطنة الفرنسية.

من الواضح أن مثل هذه التشريعات أدخلت في الأوساط اليهودية نوعاً من الارتياح الموقت بالرغم من أنها أثارت في الوقت ذاته معاداة السامية المحلية. بين عامي ١٨٥١-١٩٠٠، ازداد عدد اليهود من ٢١ إلى ٥٧ ألف نسمة. ومع تطورات الجزائر الاقتصادية، استطاع اليهود تحسين أوضاعهم الاجتماعية والمهنية، وأصبحوا

جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الفرنسية. حدثت الأوضاع نفسها في البلدان المجاورة عند إعلان الحماية الفرنسية، منذ ١٨٨١ لتونس ومنذ ١٩١٢ للمغرب.

في الحقيقة، كانت الصهيونية تستخدم سلاحاً ذا حدّين في التعامل مع يهود المغرب العربي، مستندة إلى كل الأوضاع غير الطبيعية التي كانت سائدة آنذاك. فقد دعمت الاستعمار من أجل تهجير يهود المغرب العربي إلى فلسطين، وإنجاح قضية الاستيطان الصهيوني.

وقد مرت عمليات التهجير بمرحلتين: الأولى إدماج اليهود المغاربة في الجالية الفرنسية عن طريق ترحيلهم إلى فرنسا، والمرحلة الثانية تهجيرهم من فرنسا إلى فلسطين.

لقد أدى تدفق الهجرات اليهودية من بلدان شمال إفريقيا ـ الجزائر، تونس، والمغرب ـ منذ العام ١٩٥٦ حتى العام ١٩٦٧، إلى تغيير أوضاع الجالية اليهودية الفرنسية سواء من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية. في أعقاب استقلال الجزائر، كانت فرنسا تستقبل اليهود المهاجرين من المغرب العربي بنسبة خمسة آلاف شخص شهرياً باحثين عن العمل. وأدت هذه الهجرات اليهودية البطيئة إلى إثارة قلق حكومتي تونس والمغرب المستقلتين وجبهة التحرير الوطنية F.L.N في الجزائر.

في تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٥٦، وفي إثر أحداث قنال السويس والعدوان الثلاثي على مصر، هاجر عدد كبير من اليهود المصريين، بتدبير من الصهيونية العالمية، متوجهين إلى مرسيليا ومن ثم إلى باريس. وفي العام ١٩٥٧، اشتدت موجات هجرة اليهود من المغرب العربي وبلغت أوجها في العام ١٩٦٢ عند استقلال الجزائر، إذ هاجر معظم اليهود من مدن وهران وقسطنطينة ومزاب بالسفن أو الطائرات إلى ميناء مرسيليا وبورت فانديز.

بطبيعة الحال، ضاعفت موجات الهجرة من عدد الجالية اليهودية الفرنسية، إلا أن الصهيونية كانت تعد المهاجرين بأن فرنسا ليست سوى مرحلة أولى للسفر إلى

«إسرائيل» ـ الأرض الموعودة ـ لكن هذه الحماسة تضاءلت عند المهاجرين عقب حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ وقرار فرنسا إيقاف شحن الأسلحة إلى «إسرائيل»، نتيجة لذلك اضطر عدد كبير من المهاجرين اليهود العرب إلى الاستقرار في أحياء باريس وضواحيها، بينما توزع القسم الآخر في المحافظات الفرنسية الكبرى مثل: مرسيليا، نيس، ليون، تولوز، ستراسبورغ، وذهب آخرون إلى مدن صغيرة مثل: كاربنتراس، لونفيل، تور، اكس أون بروفانس، نيم، وكان.

أما مرجع هؤلاء المهاجرين الديني فهو كاهن فرنسا الكبير، ومجلس الكهنة الرئيسي في فرنسا والجزائر. في الحقيقة، لم تكن الجالية اليهودية الفرنسية مهيأة لاستقبال الأعداد الهائلة من يهود المغرب العربي. لذا أخذت الصهيونية تنبه مراراً إلى مخاطر اندماج أولئك اليهود وانصهارهم الكلي في المجتمع الفرنسي خوفاً من فقدان سيطرتها عليهم، فقد بادرت إلى تقديم المعونات الاجتماعية كافتتاح المدارس الخاصة وغيرها. في تلك الأثناء اضطرت الحكومة الفرنسية إلى توجيه نداء إلى الهيئات الدينية والاجتماعية اليهودية لاستقبال المهاجرين استقبالاً شخصياً وخصوصاً في المدن الكبرى تشجيعاً لهم.

وكانت المهمات الملحة آنذاك تتركز في توفير السكن والعمل والرعاية الدينية لأولئك المهاجرين بما يتفق وتقاليدهم الأصلية. ولعبت الجالية اليهودية الفرنسية دوراً كبيراً في تسوية الأوراق الرسمية للمهاجرين الجدد. أي قامت بدور الوسيط بين المهاجرين والسلطات الرسمية. وبالرغم من كل الجهود فقد برزت مشكلات عديدة أمام المهاجرين اليهود العرب أهمها: المشكلات الدينية والسيكولوجية والثقافية.

منذ العام ١٩٥٥، كان «لتجمع الكهنة» consistoire في باريس طموحات دينية يريد تحقيقها من خلال يهود شمال إفريقيا، إذ خصص لهم واحداً من أكبر المعابد اليهودية في باريس ذلك الكائن في شارع «تورنيل»، كما شيد الكاهن بول روتمان عام ١٩٦٠ مراكز دينية إرشادية في الضواحي الباريسية. وقد وجه الكاهن الكبير كابلان نداءً إلى الجالية الفرنسية دعاها فيه إلى تقديم أقصى ما يمكن من الدعم

ليهود المغرب العربي، وخصوصاً على الصعيد الديني ـ الروحي. كانت المصاعب التي وقفت بوجه اليهود العرب تمتد إلى جميع الصعد، وعلى الخصوص، المصاعب المالية ذلك أن خزينة تجمع الكهنة الرئيسي كانت تشرف آنذاك على الإفلاس. وحتى المعونات الموسمية أصبحت في حالة ضعيفة جداً. لذا سارع كبار الرأسماليين اليهود إلى تقديم العون إلى «الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد» أمثال إيدموند دي روتشيلد. بينما اضطر «تجمع الكهنة» إلى إعطاء الأموال المخصصة لتأجير صالات الاحتفالات الدينية، إلى اليهود العرب الآتين من وهران، والجزائر، وتونس، ومصر، محاولة منه لكسبهم، وإدماجهم لاحقاً في الطائفة اليهودية الفرنسية.

من المعروف أن شمال إفريقيا تتميز بتعنتها على صعيد العادات والطقوس، فهي تختلف، بعقليتها وأسلوب تفكيرها عن أوروبا. إضافة إلى أن كل مجموعة من هذه المجموعات تجهل عادات المجموعة الأخرى ومشكلاتها. كان لابد من علاج هذا النسيج المتنوع من أساليب التفكير، لذا قرر الكاهن الكبير «رابينا» تعيين ممثلين لكل هذه الطوائف، وذلك حسب حجمها وكثافتها، كي لا تشعر بالغربة والاغتراب معاً. ومنذ العام ١٩٦٣، أنشأت كل طائفة جمعيات ومؤسسات خاصة بها مثل «رابطة اليهود الجزائريين» ولديها ممثلون في مكتب «تجمع الكهنة الرئيسي»، وجمعية «النداء اليهودي الموحد» و«الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد». كان الغرض من إنشاء الجمعيات والروابط الخاصة بيهود شمال إفريقيا هو المحافظة على السمات الخاصة بهم من ناحية، وإلحاقهم بالجالية اليهودية الفرنسية من خلال ممثليها من ناحية أخرى. ومنذ العام ١٩٦٧، حذت الروابط الأخرى حذو «رابطة اليهود الجزائريين»، فتألفت «رابطة اليهود التونسيين» و«رابطة اليهود المغاربة»... ولكننا لابد أن نتساءل: هل قدمت هذه الروابط حلولاً للمشكلة النفسية والثقافية والدينية التي يعيشها يهود المغرب العربي وسط أجواء أجنبية ـ غريبة، وبعيدة كل البعد عن العقلية العربية التي ترسخت في أعماقهم؟ وهل تمكنت هذه الروابط من القضاء على عاداتهم وتقاليدهم الأصيلة؟ الحقائق تجيب أن التناقضات كانت ولا تزال تفصل الطوائف اليهودية بعضها عن بعض.

بعد المشكلات الدينية والسيكولوجية تأتي المشكلات الثقافية. فلم يكن يهود المغرب العربي، الذين تعودوا العيش بشكل جماعي أو عائلي، يعبرون عن الحياة الثقافية إلا من خلال الديانة اليهودية، باعتبارها نشاطاً إنسانياً. وقد حرصت الصهيونية العالمية على الدخول إلى أعماق أولئك اليهود المغتربين من خلال بوابة كبيرة، اسمها الديانة اليهودية فما دام هذا الدين يخدم مصالحها، فليس هناك من تناقض، لذا قامت جمعية «ثورا - في - صهيون» thora - ve - sion على تقديم التعاليم والإرشادات الدينية - اليهودية وخصوصاً في ضواحي باريس. أما حركة «إيش - دات» Ech-dat أي «شعلة المعرفة»، فلم تنقطع منذ العام ١٩٦٥ عن عقد المؤتمرات الثقافية التي ارتكزت معظمها على مشاكل «إسرائيل» لا على مشكلات الجالية اليهودية. وفي الوقت ذاته كانت هذه الجمعية تقدم دروساً خاصة لتعليم العبرية، أو عروضاً خاصة من المسرح اليهودي. وبالرغم من ذلك عاش أولئك اليهود في عزلة خانقة نتيجة لأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية من ناحية، وللنظرة الدونية التي يعكسها اليهود الفرنسيون إزاءهم من ناحية أخرى. لذا فإن هذه التناقضات جعلت معظمهم يطلب الجنسية الفرنسية كي لا ينظر إليهم كعرب سواء من اليهود الفرنسيين أو من الفرنسيين العنصريين الآخرين. بينما تحاول الصهيونية بجميع أساليب الترهيب والترغيب أن تنسي أولئك المغتربين أوطانهم الأصلية وذكرياتهم. فقد فشلت معظم محاولاتها لتهجيرهم إلى «إسرائيل» حيث فضلت غالبيتهم البقاء والاندماج الفرنسي.

هكذا أدت الصهيونية دوراً كبيراً في استعمار بلدان المغرب العربي بغية التأثير في الطوائف اليهودية، التي كانت تعيش في أمان جنباً إلى جنب مع إخوانهم المسلمين.

بيد أن الصهيونية ذهبت أبعد من هذا الحد، وخصوصاً في سعيها لإثارة النعرات الطائفية بين اليهود والمسلمين، وتغذية مشاعر العداء للسامية كي تجعل اليهود المغاربة في أوضاع متأزمة. وهذه السياسة ليست خافية على أحد مهما اختلفت الأساليب وتنوعت الطرائق. ولعل الويلات والاضطهادات الجماعية التي تعرض لها

اليهود المغاربة في الغرب الرأسمالي، لم يتعرضوا لجزء يسير منها في البلدان العربية والتاريخ أصدق شاهد على ذلك.

لقد عملت الصهيونية، وبذلت جهوداً كبيرة في لفت أنظار اليهود إليها، فقد استغل الرأسماليون الفرنسيون «قضية دريفوس» l'affaire Dreyfus التي شغلت فرنسا ومستعمراتها زمناً طويلاً. وقد تصاعدت في فرنسا آنذاك موجة اللاسامية في صفوف البروليتاريين والبرجوازيين الصغار، الذين واجهوا منافسة كبيرة من المهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية في سوق الشغل، فلم تتردّد البرجوازية الحاكمة في تحويل عداء البروليتاريين والبرجوازيين الصغار لها إلى عداء لليهود. وكان الضابط اليهودي دريفوس بمنزلة كبش الفداء الذي ضحّت به البرجوازية لمواجهة حدة الصراع الطبقي.

وإذا كانت فضيحة انكشاف سياسة فرنسا اليهودية بشكل لم يسبق لها مثيل في آب/أغسطس ١٩١٧ قد جرفت جموعاً عديدة من اليهود إلى الحركة الصهيونية، فإنها قد دفعت أيضاً جموعاً أخرى لا تقل عنها كثيراً من حيث العدد نحو الحركات السياسية الأخرى. وقد لعب البرجوازيون اليهود الصغار منهم والمتوسطون دور المزود الرئيسي لهذه الحركات. فقد انخرط بعض اليهود في حركة الماسونيين.

عاشت الحركة الصهيونية العالمية وترعرعت في أجواء عالمية متوترة. وقد سلكت الحركة الصهيونية في فرنسا طريقاً خاصاً تميز بالانتهازية تارة وبالعنف تارة أخرى إزاء يهود المغرب العربي. وأدت مضاعفات الأزمة الاقتصادية العالمية سنة ١٩٢٩ إلى توسيع رقعة الحركة الثورية في البلدان الإمبريالية، فالتجأت الطبقات البرجوازية فيها إلى انتهاج سياسة فاشية، وعلى الخصوص إزاء مستعمراتها. وكان من الطبيعي أن تنعكس نشاطات الحركة الصهيونية على بلدان المغرب العربي ـ الجزائر، المغرب، تونس ـ الواقعة آنذاك تحت الاحتلال الفرنسي. كان يهود المغرب العربي يأملون على الدوام الحصول على الجنسية الفرنسية. وقد رفع شعار المطالبة بالجنسية الفرنسية البرجوازيون اليهود وذلك كوسيلة لضمان مصالحهم الاقتصادية. ومن خلال

ذلك أرادوا النفاذ إلى مواقع هامة في جهاز سلطات «الحماية» وقد أشرفت الحركة الصهيونية، بل ساهمت في إصدار الصحف والمجلات في بلدان المغرب العربي، نذكر منها «النشرة التونسية» ١٨٨٩-١٩٤٨ la dépêche tunisienne وهي الناطق شبه الرسمي باسم سلطات الاحتلال الفرنسي في تونس، و«تونس الفرنسية» ١٨٩٢-١٩٤٦ la Tunisie française وهي جريدة غلاة الاستعماريين الفرنسيين، و«الصدى التونسي» l'écho tunisien اللاسامية التي أنشأها سنة ١٨٩٧ كولاند دي لامور. وقد أرسلت الحركة الصهيونية المستقرة في فرنسا بعثات تبشيرية عديدة لنشر الأفكار الصهيونية وكذلك التعاون مع اليهود المحليين لتأسيس الصحف والمجلات الخاصة بها. وقد وقفت بعض التنظيمات اليهودية ضد ذلك، إلا أن المنظمات الصهيونية المتعصبة الأخرى استقبلت ذلك بحماسة كبيرة. وفي إثرها صدرت بعض الصحف والمجلات التي تدعو إلى لم شتات اليهود في بلدان المغرب العربي وضرورة التوجه إلى إرساء الكيان الصهيوني.

فالمواقف كانت تعبر عن روح انتهازي لدى السلطات الفرنسية آنذاك، إلا أنها تمسكت بضرورة صهر اليهود في الحضارة الفرنسية. وقد لاقى هذا المبدأ رفضاً شديداً من قبل الحركة الصهيونية لكن محاولة السلطات الفرنسية وسعيها المحموم لتطبيق هذا المبدأ توافقا ومصالحها في الشرق الأوسط. وكان الدعاة الصهاينة يذهبون على الدوام إلى بلدان المغرب العربي، فعلى سبيل المثال، قصد الصهيوني موريس مسيكا تونس لتنظيم سفاردي ـ اليهود العرب والأسبان والبلقان ـ وكان الغرض من ذلك ربط التجمعات السفاردية المتناثرة بعضها ببعض على طول البحر الأبيض المتوسط. أما هدفها الثاني فكان يسير ضد حركة انصهار اليهود. وقد عمدت السلطات الفرنسية آنذاك إلى سن قانون تجنيس اليهود للوقوف في وجه الحركة السفاردية الصهيونية المعارضة لطموحات السلطات الفرنسية إلى السيطرة على هذه المناطق. وفي العام ١٩٣٤ وصل تجنيس يهود المغرب العربي إلى أقصاه. ولكن الحركة الصهيونية، كعادتها القديمة ومواقفها الانتهازية المعروفة، كانت تقبل أحياناً تجنيس اليهود للحفاظ على مصالح التجار الكبار من ناحية، وترفض من ناحية أخرى ذوبان اليهود

وانصهارهم داخل الحضارة الفرنسية. وكانوا ينشدون جمع التنظيمات اليهودية كافة في المغرب العربي، وتوحيدها ضمن الحركة الصهيونية. وتركزت الأفكار الصهيونية التي أخذت الحركة بنشرها بين صفوف الجالية اليهودية في فرنسا وبلدان المغرب العربي على الترويج بأن الصهيونية ستعمل على تطوير الطاقة الإنتاجية في فلسطين وسيكون دورها مماثلاً لدور الثورة الفرنسية في العام ١٧٨٩.

وكانت الحركة الصهيونية ولا تزال تهدف إلى انتزاع اليهود من أوطانهم لوضعهم في غيتو عالمي حسب تعبير روجيه غارودي. واليهود الفرنسيون مثل بالغ الدلالة في هذا الصدد، فبعد توقيع اتفاقيات إيفيان عام ١٩٦٢ وتحرير الجزائر غادرها ١٣٠ ألف يهودي، لم يذهب منهم إلى إسرائيل سوى عشرين ألفاً بينما ذهب إلى فرنسا ١١٠ آلاف يهودي. وقد وجدت النسبة نفسها بين المستوطنين الفرنسيين غير اليهود الذين تركوا الجزائر ولم تكن مناهضة السامية سبب هذه الهجرة، بل كان سببها الاستعمار الفرنسي السابق للجزائر وقد عرف اليهود الفرنسيون المصير نفسه الذي عرفه الفرنسيون الآخرون في الجزائر.

وقد وقع اليهود بين اتجاهات متنوعة. فالحركة الصهيونية تطالب معاملة اليهود معاملة خاصة، أما الفرنسيون فيطالبون بانصهارهم في صلب الثقافة الفرنسية وقد لاقت هذه الدعوة نجاحاً ملحوظاً بين الجالية اليهودية، إلا أنها من ناحية أخرى أرعبت كبار البرجوازيين اليهود، فبدأوا يتخوفون من الحركة الصهيونية المعارضة لانصهار اليهود في الثقافة الفرنسية، وهكذا كانت سلطات «الحماية» الفرنسية آنذاك متذبذبة في خططها، فقد عارضت مسألة اعتماد اللغة العبرية واعتبرتها خطراً موجهاً ضد اللغة الفرنسية وانتشارها الواسع بين الجاليات اليهودية في أقطار شمال إفريقيا، وعمدت السلطات الفرنسية إلى الضغط نوعاً ما في الثلاثينيات على يهود المغرب العربي، وخصوصاً في ظروف اشتداد التصادم بين المسلمين واليهود وما سببته هذه الأحداث من زعزعة سيطرتها المحكمة.

ولكن الحركة الصهيونية، بالرغم من كل الجهود، فشلت في معظم أقطار المغرب

العربي، لأن عناصر «مشكلة يهودية» لم تكن تتوافر لأن اليهود لم يعانوا في هذه البلدان كما عانوا في معظم البلدان الأوروبية الأخرى. ولم تتوقف النشاطات الصهيونية البتة، فقد توافد عدد من مبعوثي المنظمة الصهيونية العالمية إلى بلدان المغرب العربي، على سبيل المثال قدوم موريس ستارن، مبعوث الصندوق القومي اليهودي ـ فرع فرنسا ـ إلى تونس. وكذلك زيارة ساسيا إيرليش مبعوثة «المنظمة النسائية الصهيونية العالمية» ـ فرع فرنسا أيضاً ـ إضافة إلى عدد كبير من دعاة الصهيونية.

ولم تتوقف فرنسا لحظة واحدة عن رسم مخططاتها. عندما احتلت الجزائر عام ١٨٣٠ منحت يهود الجزائر الجنسية الفرنسية منذ العام ١٨٧٠، بموجب قرار «كريميو» décret cermieux ذائع الصيت. وقد أدت ظاهرة الحماية الفرنسية في المغرب وتونس في الدرجة الأولى إلى «فرنسة» الطوائف اليهودية في هذين البلدين، كما أدت إلى أن تنتهي إلى النموذج الاستعماري. وهنا لا بد من الإشارة إلى الجالية اليهودية المصرية، في معرض حديثنا، فكانت ثقافتها فرنسية بشكل أساسي. مثلت عام ١٩٥٦ انعطافاً كبيراً في حياة هذه الجاليات، فقد صادفت أحداث حرب السويس واستقلال كل من المغرب وتونس، ما أدى إلى تدفق موجات الهجرة إلى فرنسا والتحاق ما يقرب من ١٠٠ ألف يهودي مصري و٩٠ ألف يهودي تونسي ومغربي بفرنسا. كما سهلت السلطات الفرنسية عملية التحاق ما يقرب من ١٤٠ ألف يهودي جزائري بفرنسا عشية الاستقلال مباشرة. وقد سعت فرنسا على الدوام، إلى إثارة يهود المستعمرات إلى جانبها من ناحية، والعمل على قطع هذه الجاليات عن تقاليدها الأصلية من ناحية ثانية لإخضاعها. وذهبت أبعد من ذلك حين منعت هذه الجالية من التحدث باللغة العربية فارضة عليها اللغة الفرنسية. وسمحت السلطات الاستعمارية آنذاك بتسهيل عمليات تسجيل الأطفال اليهود في المدارس الفرنسية بخلاف ما كانت تفعله مع الأطفال العرب الآخرين.

وأما من الناحية التاريخية، فإن فرنسا أخذت تسن القوانين اللاسامية في إبان

الاحتلال الألماني لها، ما ساهم في تسعير مشاعر اليهود في مستعمراتها الأخرى. وقد سلكت فرنسا طريقاً انتهازياً إزاء اليهود في المغرب العربي، وخصوصاً في إبان حكم «فيشي». ولأن أعوان السلطة آنذاك كانوا من اللاساميين، ولشعورهم بأن اندحارهم أضعف سيطرتهم على بلدان المغرب العربي، فقد بدأوا بإثارة النزاعات بين اليهود والمسلمين. والغرض من ذلك هو السيطرة والتضليل والخداع. وكانت السلطات الفرنسية آنذاك تحدد مهمات هذا النزاع بحيث لا تريده أن يتوسع ويخرج خارج النطاق المرسوم له. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ساهمت النازية هي الأخرى في تحشيد عدد كبير من اليهود وإدخالهم الحركة الصهيونية، إذ إن أعمال الإرهاب واللاسامية ساهمتا في تقوية الحركة الصهيونية سواء في فرنسا أو في بلدان المغرب العربي. ولكن قوانين فرنسا تختلف عن القوانين اللاسامية وذلك بقرار من «اللجنة الفرنسية للتحرر الوطني» في ٨ آب/أغسطس ١٩٤٣ عندما دحرت قوات الحلفاء الغزاة الألمان. ومن هنا فقد أتاح ذلك لليهود حرية التحرك وإعادة تأسيس تنظيماتهم الدينية والاجتماعية والثقافية ذات التوجه الصهيوني. ولم تفعل اللاسامية التي شجعها كل من الألمان والفرنسيين أكثر من جمع شمل اليهود وتوحيد تنظيماتهم، وتشجيعهم على الانتماء إلى الحركة الصهيونية. فالمشكلة اليهودية لم يخلقها سوى الغرب.

إن الصدمة التي هزّت الطائفة اليهودية في بلدان المغرب العربي في إبان صعود الفاشية، واحتلالها فرنسا، دفعت اليهود إلى الانخراط أو التعاطف مع الحركة الصهيونية، التي تحركت في اتجاه إقناع اليهود بأن البلدان كافة معادية لهم ما عدا «أرض الميعاد» ـ فلسطين ـ. وقد أقنعت الحركة الصهيونية كبار التجار والبرجوازيين اليهود بذلك. كما عمّقت لديهم الإحساس بالاغتراب والاضطهاد. وفي هذا المجال، تولت «الوكالة اليهودية» عمليات تهجير اليهود العرب من بلدان المغرب العربي إلى فلسطين. أما يهود المغرب العربي المتعاطفون مع الصهيونية، فتحولوا إلى صهاينة بعد العام ١٩٤٨ أي بعد تأسيس الكيان الصهيوني. إن هجرة اليهود بأعداد ضخمة إلى فلسطين بعد العام ١٩٤٨ يعود إلى أسباب عديدة منها:

١- ميلاد «الدويلة» الإسرائيلية؛

٢- عجز الدول العربية آنذاك عن التصدي لها؛

٣- انحسار الاستعمار الفرنسي عن بلدان المغرب العربي، وخصوصاً تونس والمغرب عام ١٩٥٦.

كانت غالبية اليهود في بلدان المغرب العربي، بمن فيهم الصهاينة، موالية لسياسة فرنسا. وكانت تقف على الدوام ضد استقلال هذه البلدان لأن الحضارة الفرنسية طغت أكثر من نصف قرن على الحياة العامة لليهود. ولهذا السبب اختار معظمهم فرنسا موطناً لهم وأسسوا أحياء خاصة بهم ذكرناها سابقاً.

كان يهود المغرب العربي «السفارديم» يخلقون الأوهام تلو الأوهام عن زوال العنصرية في دولة «إسرائيل» وخصوصاً بعد أن تعرضوا إلى الوحشية النازية، إلا أن هذه الأوهام تبدّدت عندما أدركوا أن التناقضات بين اليهود الشرقيين والغربيين حقيقة واقعة لا يمكن تغييرها في أعتى دويلة إرهابية وعنصرية أوجدها التاريخ ألا وهي «إسرائيل».

لقد أوضح التاريخ أن سلطات «الحماية» الفرنسية استخدمت اليهود كأداة، ولم يكن هدفها سوى السيطرة على مستعمراتها وامتصاص خيراتها.

وجاءت ألمانيا اللاسامية وسيطرة فرنسا الاستعمارية، ونشاطات المنظمات الصهيونية المحلية لتساهم جميعاً في ترسيخ الكيان الصهيوني وهجرة اليهود إلى فلسطين المحتلة.

- ٣ -

الصحافة الصهيونية

تلجأ الصهيونية العالمية، على الدوام، إلى تغليف دعايتها بمادة أدبية تبدو «محايدة» و«غير سياسية» في نظر القارئ العادي، فتحقق بذلك نوعاً من التوازي بين العمل الأدبي والفني والإعلامي وما يحمله من قضايا ذهنية وأيديولوجية خطيرة. ويتشعّب هذا الأخطبوط ما بين وسائل الإعلام ودور النشر والإذاعات الحرة والوسائل السمعية ـ البصرية والميادين الثقافية الأخرى.

قبل الخوض في هذا الموضوع الشائك والمعقد، لابد لنا من إلقاء الضوء على هذه الصحافة وارتباطاتها بالمنظمات الصهيونية العالمية.

تمتلك الجالية اليهودية البالغ عددها ٦٠٠ ألف وربما عدة أضعاف هذا العدد، شأنها شأن جميع الأقليات الإثنوغرافية والدينية المنتشرة في العالم، صحافة متميزة بالرغم من أنها شهدت انخفاضاً واضحاً سواء في مبيعاتها أو انتشارها في السنوات الأخيرة. والمزية الأساسية لهذه الصحافة ـ وهذا دليل على تراجع الخصوصية اللغوية ـ أنها تنتشر باللغة الفرنسية مائة بالمائة. وليس ثمة صحيفة أو مجلة تصدر باللغة العبرية لأن هذه اللغة تبقى غير مفهومة لدى غالبية اليهود القاطنين في فرنسا. أما عدد الصحف اليومية التي تنشر باللغة «اليديشية» ـ لغة يهود أوروبا الوسطى ـ فلا يتجاوز الاثنين وهما «أنزيرفورت» unzer wort ذات الاتجاه الصهيوني الواضح و«ناي بريس» nair press المغلفة بالاتجاه الاشتراكي. ومعظم قراء هاتين الصحيفتين من اليهود القاطنين في باريس وغالبيتهم من المسنين. ولعجز الصهيونية عن نشر هذه اللغة، العبرية واليديشية ـ تعمد إلى فرنسة الجيل الثاني متجاهلة الأبجدية اليديشية

وقد أدت مواقف هاتين الصحيفتين المتعصبة إلى التقليل من رقعة انتشارهما بشكل واسع. وقد انخفض عدد مبيعات صحيفة «ناي بريس» منذ العام ١٩٦٧ بسبب بعض مواقفها الانتقادية لإسرائيل، ما جعلها تندمج اندماجاً واضحاً في مواقف الحزب الشيوعي الفرنسي.

وتعتبر هذه الصحف جزءاً لا يتجزأ من تراث الماضي وهي مهدّدة بالزوال في السنوات العشر المقبلة. وعدا الصحف اليديشية ليس هناك جريدة يومية يهودية في فرنسا سوى نشرة «الوكالة التلغرافية اليهودية» agence télégraphique juive المحدودة النسخ.

ومن الصعب جداً معرفة أو تقدير عدد النسخ التي تطبعها أهم الصحف وكثيراً ما يميل المسؤولون فيها إلى المبالغة في تقدير عدد القراء.

وتعيش هذه الصحافة المعتمدة على مساعدة المنظمة الصهيونية العالمية والاشتراكات، صعوبات خطيرة. ومما يدل على ذلك اضطرار بعض الصحف مثل «النشرة اليهودية» information juive و«صحيفة الجاليات» journal des communautés إلى الاندماج واختفاء صحف أخرى مثل «كاديما» kadimah الصادرة عن «اتحاد الطلبة اليهود في فرنسا». ولعلنا في هذا المقام نشير إلى أهمية صحيفة «لارش» Arche، وهي شهرية يصدرها ويمولها «الصندوق الاجتماعي اليهودي المتحد» ويديرها «روجيه أسكوت». وهي تمثل وجهة نظر جهاز الإعلام الصهيوني الرسمي في فرنسا. وتتميز هذه النشرة الصحفية بطرحها للمناقشات داخل الجالية اليهودية كما يعمل فيها عدد من الصحفيين البارزين، وتشمل الأخبار التي تتناقلها أوضاع اليهود في إسرائيل وخارجها.

والجدير ذكره أن بعض هذه الصحف الصهيونية قد تأسست في الجزائر في إبان الاحتلال الفرنسي مثل «النشرة اليهودية» وذلك في العام ١٩٤٨، ثم عادت إلى الصدور من فرنسا منذ نيسان/أبريل عام ١٩٦٣ وهي تشرف عليها وتمولها «جمعية اليهود الجزائريي الأصل» ويديرها جاك لازاريس. وقد لعبت هذه النشرة الصحفية

في خلال العشرين سنة الماضية دوراً خطيراً في نشر الفكر الصهيوني، بالرغم من أنها تتظاهر بانفتاحها وشموليتها واستقلاليتها إزاء المؤسسات الرسمية. وقد ركزت هذه الصحيفة على نشر جميع المعلومات والأخبار عن حياة الجالية اليهودية غير أنها ولأسباب عديدة، اندمجت في «صحيفة الجاليات»، لسان حال «جهاز مجلس الكهنة اليهود».

أما صحيفة «المنبر اليهودي» الأسبوعية tribune juive التي يديرها الكاهن جاكو كرينيفالد، فتتظاهر بأنها تحمل رأياً مستقلاً، وخصوصاً تجاه السياسة الفرنسية في الشرق الأوسط والصراع اللبناني ـ الإسرائيلي، إلا أن أعدادها لا تدل على ذلك فهي الأخرى شديدة الارتباط بالصهيونية.

تتظاهر الصحافة اليهودية في فرنسا على الدوام بأنها لا تخضع لتبعية المؤسسات الرسمية. ولكن نلاحظ أنها تنتقد الواحدة الأخرى إلا أنها تشترك في المصير الواحد وهو الدفاع، بأي شكل من الأشكال، عن الصهيونية. وهذه الصحافة حذرة جداً أمام القراء اليهود الفرنسيين لأنها غير واثقة بانتماءاتهم الفكرية والثقافية.

ومن النشرات الشهرية أو الفصلية، نذكر «الدفاتر الجديدة» les nouveaux cahiers التي تصدرها منشورات «التحالف العالمي اليهودي» وتتميز بتركيزها على الجوانب الثقافية. وكذلك «دفاتر برنار لازار» les cahiers Bernard Lazare القريبة فكرياً من حزب «مابام» الإسرائيلي، الذي يلعب دوراً كبيراً في تنسيق العلاقات مع اليسار الفرنسي. وهناك أيضاً مجلة أخرى عنوانها «الأرض المستعادة» la terre retrouvée وهي لسان حال الحركة الصهيونية.

وإذا كانت الصحافة الصهيونية تعيش أزمة حادة، فإن تطور أجهزة الإعلام الأخرى، وخصوصاً الوسائل السمعية ـ البصرية، منذ مجيء الاشتراكيين إلى سدة الحكم، ونعني بذلك منذ انتشار ظاهرة الإذاعات الحرة، أعطى الصهيونية حصة الأسد من بين كل الجاليات الأخرى. ففي منطقة باريس، أسست الصهيونية أربع إذاعات حرة وهي: «راديو ج» «Radio «j» وجيدايك» ف.م. Judaiques F.M

و«راديو الجالية» Radio communauté و«راديو شالوم» Radio Shalom. وقد استطاعت هذه الإذاعات أن تكون جمهورها من المستمعين اليهود أو من المتعاطفين مع الصهيونية، وقد استغلت أحداث تفجير «مطعم روزنبرك» الكائن في شارع «روسييه» لكي تبث سمومها على الأثير، إضافة إلى تعليقاتها الواضحة على الحرب في لبنان. غير أن القانون الجديد الذي أقره البرلمان الفرنسي أجبرهم على إدماج هذه الإذاعات في موجة واحدة وتشكيل مجموعتين «راديو ج» و«راديو شالوم» من جهة و«راديو الجالية» وجيداييك ف.م.» من جهة أخرى. ومن المعروف أن هذا الإدماج جاء ضد إرادة الصهاينة المعنيين بهذه الإذاعات.

وتتظاهر هذه الإذاعات بأنها مختلفة ومتناقضة فيما بينها إلا أن حقيقة الأمر تدل على العكس. ومعظم هذه الإذاعات، شأنها شأن الصحف، مرتبطة بأحد التنظيمات الصهيونية. فعلى سبيل المثال، إذاعة «راديو ج» قريبة بل مرتبطة بتنظيم «النهضة اليهودية» وهي تركز برامجها على نشر أخبار إسرائيل والجاليات اليهودية، كما تركز على التخصص في نشر الصهيونية، أما «جيداييك ف.م» فتعارض «راديو ج» ظاهرياً كما تنتقد سياسة الحكومة الإسرائيلية. وقد وسعت هذه الإذاعة رقعتها عندما أعلنت أنها لن تقتصر على اليهود، بل ستسعى إلى التعبير عن جميع الحوارات السياسية الجارية في الساحة الفرنسية. ويهتم «راديو شالوم» بالتسلية والموسيقى في الدرجة الأولى وهدفه التعريف بالثقافة اليهودية والصهيونية وتدّعي هذه الإذاعة بأنها لا تحمل أية رسالة سياسية.

وهناك بالإضافة إلى هذه الإذاعات الأربع برامج موجهة إلى الجاليات اليهودية المحلية في باريس أو في المدن الأخرى. ولم يسمح الوقت حتى الآن بتكهن شيء معين فيما يتعلق بمستقبل هذه الإذاعات، وخصوصاً ما يحمله الفيديو والتلفزيون الحر من إمكانات مقبلة. ولابد من الاشارة إلى أن هناك طاقماً تقنياً ضخماً يعمل على تسيير أعمال وبرامج الإذاعات الصهيونية المذكورة. وقد لعبت هذه الإذاعات دوراً خطيراً في تزييف الحقائق وتضليل الرأي العام الفرنسي حول ما جرى في صبرا وشاتيلا من مجازر وحشية اقترفتها الصهيونية. وجميع هذه الإذاعات مرتبطة

بإسرائيل والصهيونية العالمية بشكل من الأشكال، على الرغم من كل ما تبديه من استقلالية واعتدال وحذر.

إن التأثير الصهيوني يمتد إلى الصحافة الفرنسية أيضاً. فوسائل الإعلام الفرنسية تفتح بين حين وآخر ملف اليهود المقيمين في البلاد العربية وما يعانونه من «قسر واضطهاد». أما المصادر التي يستقون منها فهي أقوال اليهود الصهاينة الهاربين من هذه البلاد. وقد نشرت صحيفة «لوماتان» ملفات من هذا النوع. هناك أمثلة عديدة على تعاطف الإعلام الفرنسي مع الصهاينة، وقد توضح كل ذلك في إبان الاحتلال الإسرائيلي لبنان عام ١٩٨٢. ويتجاوز مبدأ التعاطف مع إسرائيل في بعض الأحيان اليسار واليمين. وهناك صحف معروفة بمواقفها اليسارية، ولكنها تظهر نوعاً من الميوعة والإهمال في نقل حقائق التدخل الإسرائيلي في لبنان. وقد هاجم أحد صحفيي مجلة «الأزمنة الحديثة» temps modernes، جان ـ كلود لانزمان مراسل صحيفة «لوماتان» في لبنان، مارك كرافتس، لأنه دافع عن الفلسطينيين. وقد يذهب الحد أبعد من ذلك، فقد نشرت صحيفة «اللوموند» مقالاً عنوانه «أن تكون فلسطينياً» être palestinien في ١٦ تموز/يوليو ١٩٨٢ على أنه شهادة من الفلسطينيين على أوضاعهم، وتبين لاحقاً أن كاتب المقال صهيوني. وهناك ردود فعل واضحة في الصحافة الفرنسية، فقد نشرت مجموعة من الصهاينة مقالاً عنوانه «اليهود غاضبون»، فحواه استغراب تعاطف الشعب الفرنسي مع ليش فاليسا والشعب البولوني ومع ذلك يتعاطف مع ياسر عرفات و«إرهابييه».

وتسعى بعض الصحف والمجلات الأخرى إلى تنظيم نشر المواد الصحفية والصور في أوقاتها المناسبة. ففي الوقت الذي قتل الصهاينة الآلاف من الفلسطينيين في لبنان، نشرت مجلة «لوي» Lui صوراً عارية لجندية إسرائيلية حسناء.

كما لا تتوانى الصحف اليومية والأسبوعية الفرنسية في نشر تحقيقات عن إسرائيل على مساحات واسعة من صفحاتها، وخصوصاً في صحف مثل «لوماتان» و«الكوتيديان دي باري» وغيرهما.

أما دور النشر الفرنسية المتعاطفة مع الصهيونية فهي عديدة، ونضرب لذلك مثلاً السلاسل الثقافية التي تصدرها دار «ألبان ميشيل» الباريسية، التي تستغل المحاور التاريخية والعلمية والأدبية لنشر الفكر الصهيوني في فرنسا. ومن هذه السلاسل نتذكر سلسلة معنونة بـ «حضور الدين اليهودي» présence du judaïsme وتتوزع على الموضوعات الآتية: الدين والحياة اليومية (نشرت عنهما أربعة كتب)، والفكر والفلسفة (تسعة كتب)، والمختارات (أربعة كتب)، والتاريخ وعلم الاجتماع (سبعة كتب)، والأدب من روايات وقصص وحكايات (ستة كتب)، والشعر (ثلاث مجموعات)، والدراسات والسير (أربعة كتب).

وتسعى هذه المنشورات إلى تركيز الفكر الصهيوني والدفاع عنه من خلال الحديث عن أوضاع اليهود وتاريخهم وطوائفهم.. إلخ. وأبرز مثل على ذلك كتاب «إسرائيل والبشرية» و«النشيد الجديد»، و«اليهود في العالم» و«الطريق المستقيم» و«شرارات» و«نجوم الصباح» وهي تعالج موضوعات متعدّدة عن تاريخ إسرائيل وأوضاع اليهود في الشتات، والهوية اليهودية وغيرها من الموضوعات.

وما دمنا نتحدث عن النشاط الثقافي والفكري الصهيوني، فلابد من الإشارة إلى جمعية «لوبي المؤرخين» التي تأسست عام ١٩٧٣، وحدد أهدافها الرئيسية في إظهار الوجه التاريخي لليهود من خلال التاريخ الفرنسي. ويتظاهر هذا اللوبي بأنه يهتم بالنواحي الثقافية والتاريخية. فهو يتوجه إلى اليهود وإلى الفرنسيين من غير اليهود في آن واحد. ويشرف على هذه المنظمة عدد من الكتاب والمؤرخين الذين أصدروا كتباً عديدة هدفها تشويه التاريخ وتزييف الحقائق.

ومما لاشك فيه أن النشاط الصهيوني في فرنسا أخذ بالازدياد والتوسع بعد قرار ديغول في أعقاب حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ وقف شحن الأسلحة إلى إسرائيل. وفي هذا المناخ بدأت المنظمات اليهودية السرية تظهر إلى السطح على مختلف الصعد، وخصوصاً من خلال السيطرة على وسائل الإعلام عبر السيطرة السياسية والاقتصادية على عدد كبير من الصحف والمجلات الفرنسية. إضافة إلى سيطرتها

على قنوات الإذاعة والتلفزيون وتوجيه البرامج في خدمة الأغراض المرسومة مسبقاً التي تركز على التراجيديا وعقدة الشعور بالذنب. وتجد هذه الموضوعات صوراً ملائمة في «الهولوكوست» النازية لدين العالم بأسره حيث يتم تنظيم عرض هذه الصور في الوقت المناسب. وبين حين وآخر، تفتح وسائل الإعلام الفرنسية ملف اليهود المقيمين في البلاد العربية وما يعانونه من «اضطهاد».

ولعلني أتذكر اللقاء الذي نقلته القناة الفرنسية الأولى مع مناحيم بيغن في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٨٢ وقد وجه إليه الصحفيون أسئلة تتعلق بضرب المفاعل النووي العراقي والغارة على الأحياء السكنية في بيروت. وكعادة القادة الصهاينة، أخذ بيغن يتحدث عن مجازر النازية ضد اليهود ليبرر أفعاله البربرية.

ولابد أن نتساءل: لماذا تركز الصهيونية العالمية بشكل خاص على يهود فرنسا، وليس على يهود البلدان الأوروبية الأخرى؟ الإجابة تكمن في أن أكبر جالية يهودية في العالم، بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، تعيش في فرنسا. وتقدر الإحصاءات الرسمية أن عدد اليهود ٦٠٠ ألف. وتبلغ نسبة اليهود الفرنسيين المتدينين ٢٥-٢٨ ألفاً. ولهذا الحجم الكبير دافع من أهم الدوافع المنظمة العالمية للتركيز على يهود فرنسا، وأكثر ما تخشاه الصهيونية العالمية هو الاندماج الكلي في المجتمع الفرنسي. وقد وقفت الحركة الصهيونية العالمية، على الدوام، ضد قرار تجنيس الجالية اليهودية في فرنسا.

ويمكن ملاحظة التوجه الإعلامي ـ الدعائي في مجمل الأفلام الوثائقية التي تحكي قصة الاحتلال الألماني، فتركز على الغبن الذي لحق باليهود. والهدف من عرض هذه الأفلام هو إظهار الشعور «بعقدة الذنب» التي تسعى الصهيونية، بجميع وسائلها إلى غرسها في الأذهان. وكلما قامت إسرائيل باعتداء على العرب، تقوم الأجهزة الصهيونية ببث هذه الأفلام، لكي ينسى العالم وحشية إسرائيل، وتتركز في ذهنه ذكريات «الهولوكوست» و«عقدة الشعور بالذنب».

ويعرض التلفزيون الفرنسي بين الحين والآخر أفلاماً صهيونية واضحة الأهداف والمرامي، مثل فيلم «القرصان» من إخراج كينيث أناكين، الذي عرض على حلقتين

وهو لا يظهر من العرب إلا صوراً شائنة، والعربي الوحيد الإيجابي فيه يهودي الأصل. كما عرضت القناة الثانية المسلسل الشهير عن حياة غولدا مائير وعنوانه «غولدا» الذي لا يحتاج إلى تعليق. وهناك أفلام تلفزيونية مثل «الألم والشفقة» و«ترول.. بترول» وغيرهما من الأفلام.

ويبث التلفزيون الفرنسي أفلاماً وثائقية وروائية أنتجتها شركات أميركية متخصصة في الدعاية المناهضة للعرب والمعادية لفلسطين. ومما لا شك فيه، أن اللوبي الصهيوني يلعب دوراً كبيراً في ممارسة الضغوط السياسية، و«غي روتشيلد» هو أحد المنظمين لهذا اللوبي في فرنسا. وقد صرح مراراً بأنه لعب دوراً هاماً على الصعيد الحكومي لمنع توجيه أية دعوة لزيارة ياسر عرفات باريس.

وتعتمد أساليب الإعلام الصهيوني بوضوح على إستراتيجية مزدوجة الأهداف: أولاً، التركيز على الشعور «بعقدة الذنب» لدى الشعب الفرنسي، وتوفير غطاء إعلامي لاعتداءات إسرائيل التوسعية. ثانياً، زعزعة ثقة اليهود بالأنظمة التي يعيشون في ظلها وذلك لدفع يهود الدياسبورا إلى الهجرة.

وفي اعتقادنا أن اليهود في فرنسا، وإن كانوا يتميزون بعاداتهم الاجتماعية، فإن هذه الخصوصيات لم ترتق بأي شكل من الأشكال إلى مصاف الثقافة القومية المستقلة، ولم تنتصر وتتفاعل لتكون كياناً خاصاً متميزاً من المحيط الاجتماعي والقومي الواسع، الذي اندمج فيه اليهود الفرنسيون على صعيد اللغة والثقافة والانتماء.

مما لاشك فيه أن التخريب الأيديولوجي الذي تمارسه الصحافة الصهيونية، ليس أمراً طارئاً، وإنما هو جزء من استراتيجية مدروسة بعمق، اعتمدتها الصهيونية العالمية، بمؤسساتها وفرقها وفصائلها المنتشرة.

ومن الصعب إكمال هذه الكلمة، من دون الإشارة إلى الدور الذي تلعبه المؤسسات الإسرائيلية الممثلة في فرنسا. وهي تحتل مكانة معينة في الوعي اليهودي المعاصر ما ينعكس على حياة المؤسسات. و«إسرائيل»، على سبيل المثال، تعمل على تزويد «الوكالة اليهودية» المنبثقة من المنظمة الصهيونية العالمية، مساعدين دائمين، كما تشارك في تكوين أطر الجالية بالرغم من عجزها عن تنظيم هجرة

مهمة إلى الأرض المحتلة، وتبدي السفارة الإسرائيلية اهتماماً كبيراً بالتطور الداخلي للجالية اليهودية، وتشجع المبادرات المحلية. وبالرغم من أن المؤسسات الصهيونية تدّعي استقلاليتها، إلا أنها مرتبطة بالصهيونية العالمية حيث تعيش تمزقاً حاداً بين الولاء لإسرائيل والتشبّث بالجنسية الفرنسية.

اللوبي الصهيوني والإعلام الفرنسي

في الميدان الإعلامي هناك مجموعة من الصحفيين والكتاب المدافعين عن الكيان الصهيوني في كل الحالات وبدون أي تحفظ، يتهمون من ينتقده بمعاداة السامية، منهم آلان فنكلكروت وأندريه غلوكسمان، وإيفان ريوفول وألكسندر أدلار وفليب فال (الذي أصبح مديراً لإذاعة القطاع العام «فرانس أنتار») وبرنار هنري ليفي وإيفان لوفاي، وبرنار كوشنير... كما اشتهر بعض المثقفين والباحثين (غير اليهود) بمغالاتهم في الدفاع عن جيش الاحتلال، «الجيش الأكثر أخلاقية وديمقراطية في العالم» حسب ادعائهم، مثل «بيار أندريه تاغييف»، الذي اشتهر لعدة سنوات بـ«مكافحة العنصرية»، وزميلته «ميشيل تريبالا»، والمخرج «رومان غوبيل»... وقد شهّروا بعدد من المثقفين والصحفيين وتسببوا بمحاكمتهم، بدعوى معاداة السامية، منهم الفيلسوف إدغار موران وبيار بيان وفليب كوهين ودنيال مرميه وباسكال بونيفاس وجاك بوفراس وشارل أندرلان، والباحث في علم الاجتماع بيار بورديو (قبل وفاته)... وجميع هؤلاء المتهمين، هم كتاب وصحفيون «معتدلون» في نقدهم للكيان الصهيوني، يقر جميعهم بشرعية احتلال ١٩٤٨، وما نتج منه من تهجير وتشريد وتدمير، ويعيبون على الكيان الصهيوني «الإفراط في استعمال القوة»، أو «عدم احترام المواثيق والشرعية الدولية»... وقام عدد من المثقفين والصحفيين ونواب البرلمان وممثلي الأحزاب (من يمين ويسار، والحزب «الشيوعي») بترويج عريضة تندد بالدعوة لمقاطعة الكيان الصهيوني، وقد نشرت صحيفة «لوموند» افتتاحية تستنكر من خلالها نداءات المقاطعة، ما شجع الحركة الصهيونية على المضي قدماً في سياسة التهديد والوعيد.

- ٤ -

النشاط الثقافي - الصهيوني

تحدثنا من قبل عن الصحافة الصهيونية، واستكمالاً للفائدة لابد من إلقاء بعض الضوء على نشاط الجالية اليهودية الثقافي في فرنسا. فالمعروف جيداً أن الصحيفة وسيلة اتصال جيدة بين بقية يهود العالم. فالصحافة المكتوبة باللغة الفرنسية ظلت ناجحة حتى العام ١٩١٣. وأهم صحف ومجلات هذه الفترة «الأرشيف اليهودي لفرنسا» archives israélites de France (أسبوعية) و«العالم اليهودي» (شهرية ومن ثم أصبحت أسبوعية) l'univers israélite و«مجلة الدراسات اليهودية» revue des études juives و«الصدى الصهيوني» l'écho sioniste. ومن عام ١٩٠٦ حتى ١٩١٤ نشطت وتعددت الصحف والمجلات الصادرة باللغة «اليديشية» وتميزت باتجاهاتها السياسية المتنوعة: الفوضوية، والاشتراكية، والصهيونية، لكن صدورها لم يكن منتظماً. فالصحافة اليهودية المكتوبة باللغة الفرنسية لم تكن تتعرض إلا للموضوعات اليهودية الخاصة، بينما ركزت الصحف اليديشية على الكتابة في الموضوعات الساخنة. ولم تكن هذه الصحافة بشقيها الفرنسي واليديشي، بعيدة عن طرح الموضوعات الصهيونية وترويجها بين الحين والآخر.

من الملاحظ أن هذه الصحافة كلما ابتعدت عن طرح الموضوعات الصهيونية، ظهر كاتب أو قائد صهيوني ينبه إلى تلك «المخاطر» وخصوصاً طرح التهديدات التي تسببها عملية الاندماج. في العام ١٩٠٨ كتب روبرت دريفوس قائلاً: «يبدو أن يهود فرنسا يتطابقون أكثر من اللزوم مع المجتمع الفرنسي، ويتشابهون إلى حد بعيد مع كل الجماعات والأصول، وأصبحوا غير قادرين على التعبير عن حساسيتهم وأفكارهم واتجاهاتهم اليهودية المحضة بحيث عدنا لا نجد ذواتنا وأنفسنا». وفي

العام نفسه أصدر الشاعر والكاتب أندريه سفير ديوانه «قصائد يهودية» Poèmes Juifs وفي العام ١٩١٣ نشر كتاباً يضم مجموعة مقالات عنوانه «بعض اليهود» Quelques Juifs. وفي العام ١٩١١ أصدر جان ريتشارد بلوخ مجموعة قصصية عنوانها «ليفي» Levy... ثم نشر روايته «أي سي» Et cie عام ١٩١٧ يتحدث فيها عن عائلة «يهودية» من الألزاس تختار عام ١٨٧١ فرنسا وطناً لها. نشر هنري فرانك عام ١٩١٢ قصيدة طويلة عنوانها «في مواجهة القوس» Devant L'Arche أما الشاعر أدموند فليك فأصدر عام ١٩١٤ ديوانه «اسمعي إسرائيل» Écoute Israël الذي قال عنه موريس ليبرب: «ولد بيننا شاعر يهودي، شاعر اليهودية... من كان يعتقد أن اليهودية الفرنسية قادرة على إنجاب شاعر».

في تلك الفترة نزل لأول مرة بعض الشعراء والكتاب اليهود من «الغيتو» نحو باريس. وهذا لم يكن يمنع الآخرين من الشعراء والكتاب أن يفعلوا العكس، أي أن ينتقلوا من باريس إلى «الغيتو» كما هي حال الشاعر أندريه سفير. وفيما يخص الكتابة اليهودية يمكننا أن نذكر كلاً من موريس ليبر، تيودور ريناش، مايور لامبيرت، موسى شواب، إسرائيل ليفي، وجان جوستر.

ومنذ بدء الهجرة في مطلع القرن، يمكننا أن نذكر أسماء بعض الفنانين اليهود، وخصوصاً في مجالي الرسم والنحت: ماركوسيس يصل إلى باريس في ١٩٠٣، باسين في ١٩٠٥، مود لياني في ١٩٠٦، ليبشيدز وزادكين في ١٩٠٩، كيسلنغ وشاغال في ١٩١٠. وبعد الحرب العالمية الأولى، يصل كل من جانكو، سيغال، مان كاتز، بين، ريباك، شانا أورلوف، اتلان. وأولئك جاؤوا من إيطاليا، وبولونيا وليتوانيا (روسيا)، وبلغاريا، ورومانيا وإفريقيا الشمالية. ومن بين أولئك فنانون عظام أمثال مود لياني وشاغال جذبتهما باريس لأنها كانت ومازال مركزاً عالمياً للفن وخصوصاً في تلك الفترة التي شهدت ولادة الاتجاهات الفنية المتنوعة كالواقعية والتعبيرية والدادائية والسريالية. إن معظم أولئك الفنانين لم يكونوا يهوداً إلا من حيث جنسيتهم، أما فنهم فكان عالمياً من دون أن يكون ليهوديتهم دور في الإبداع كما يحاول بعض الكتاب

والنقاد الصهاينة أن ينظروا إلى ما يسمّونه «الفن اليهودي» واختلافه عن بقية الفنون سواء في الاستيحاء أو الأسلوب.

أما على صعيد الكتابة، فإن العبرية لم تعد لها مكانة متميزة، بل ظلت مقتصرة على العبادات الدينية. وفي فرنسا لم تظهر إلا بعض النصوص بين الحين والآخر في الوقت الذي طغت اللغة الفرنسية على الكتابات اليهودية. لكن الصهيونية كانت ولا تزال تشجع الكتابة بالعبرية كي لا يستسلم الكتاب اليهود لعملية الاندماج والانصهار. إضافة إلى أن هناك عدداً من اللهجات التي اختفت مثل لهجة «لادينو» Ladino، وهي لهجة يتحدث بها اليهود البرتغاليون، وكذلك اللهجة اليهودية المحلية إذ اختفت في العام ١٨٦٠. أما اللغة اليديشية Yiddish الألزاسية فقد عاشت عمراً طويلاً.

النشاطات الملحوظة في هذه الفترة، وهي النشاطات الفلسفية والدينية التي كانت تنتقد بشدة مواقف «تجمع الكهنة» المعروف بـ consistoires. ومن أبرز أولئك الكتاب اليهود ميشيل بير، ابن بير إسحاق بير. كما أن معظم أولئك الكتاب ساروا على نهج الاشتراكي الفرنسي المعروف سان سيمون... ومن المجلات العامة الصادرة آنذاك مسيحية الصناعيين catéchisme des industriels والمسيحية الجديدة nouveau christianisme. كانت اشتراكية سان سيمون ضرباً من الاشتراكية (الطوباوية) الخيالية. وبالرغم من أنه لم يطرح المسألة اليهودية كما طرحها ماركس لاحقاً، إلا أنه أثر في اثنين من اليهود إذ تبنيا أفكاره حتى موته عام ١٨٢٥. وهما عالم الرياضيات أوليند رود ريغيزن والكاتب ليون هالفي وهو ابن أحد الصحفيين القدماء العاملين في صحيفة «اليهودي الفرنسي» Israélite français.

ومن بعد الجيل الأول، ظهر كتاب الجيل الثاني، وأبرزهم: جوزيف سلفادور وألكسندر ويل. الأول كان يدعو في كتاباته المتنوعة إلى «تآخي اليهود والمسيحيين والمسلمين والعودة إلى أصولهم وبناء مدينة القدس مثالاً للسلام والتآخي العام». وأدى هذا الرأي إلى نقمة الصهيونية على كتاباته لاحقاً. أما ألكسندر ويلن فعلى العكس تماماً فقد رفض «التلمود» واحتقر الكهنة والوجهاء. نقل في كتاباته

ومذكراته كل تفاصيل الحياة اليومية لليهود الفرنسيين في هذه الحقبة. لكن أياً من هذين الكتابين لم يمثل مدرسة فكرية تذكر.

من بين موجة الكتاب والفنانين ظهر بعض المستشرقين، أبرزهم: سليمون مونك، المتخصص في الفكر اليهودي العربي في العصور الوسطى، والفيلسوف أدولف فرانك إذ انتميا إلى «تجمع الكهنة» أما فيما بعد ١٨٧٠، بعد انصهار غالبية اليهود في المجتمع الفرنسي، فقد انحسر الفكر اليهودي، ولم يكن للجيل الثالث من نتاجات تذكر.

في أثناء الجمهورية الثالثة، ظهر بعض العلماء والجامعيين الذين اهتموا بجميع مجالات المعرفة من دون التركيز على اليهودية بشكل أحادي الجانب وأبرزهم جوزيف ديرنبورغ، وابنه هارتوج، والأخوان أرسين وجيمس دارميستير اللذان قدما تطويراً معيناً للدراسات العبرية. وفي العام ١٨٨٠ أسس الكاهن الكبير زادوك كاهن مجلتين الأولى «المجتمع» société والثانية «مجلة الدراسات اليهودية» revue des études juives وفيهما نشرت معظم الأبحاث والدراسات العبرية آنذاك.

لا بد من الإشارة إلى أن جميع أولئك المفكرين والكتاب تعاملوا مع اليهودية على أنها مادة للدراسة «كفعل حياتي»، وهذه هي أبرز انتقادات الصهيونية لنتاجاتهم، التي تعتبر أنها اقتصرت على إلقاء الضوء على اليهودية الفرنسية من دون أن تؤدي دورها على الصعيد العالمي.

ومن ناحية أخرى، أكدت الصهيونية ضرورة اهتمام اليهود بالثقافة الدينية لا بمفهومها الضيق، وإنما بآفاقها الواسعة بما يخدم قضية العودة إلى «إسرائيل»، كما دعت إلى دراسة التوراة وتعليمها للأولاد وغيرها من الدعوات التبشيرية. ومن خلال الدين، استطاعت الصهيونية في فرنسا اجتذاب عدد لا بأس به من الأعضاء، وخصوصاً الشباب، وعملت على تنظيمهم في العام ١٩٥٢ في «منظمة المجلس التمثيلي» C.R.J.T.F. وقد دعا «الاتحاد الليبرالي اليهودي» أعضاءه جميعهم إلى التخلي عن جزء من برنامجه لعام ١٩٠٦ والتعمق في دراسة اليهودية ومعرفتها،

وكانت الهموم نفسها تلاحق تكوين متحف الفن اليهودي musée d'art juif في باريس. وكذلك مدارس أخرى مثل: مدرسة يابن، مدرسة أكوبا، مدرسة جلبرت بلوش، ومدرسة ياشيفا (المدرسة التلمودية العليا) في فرنسا. وهكذا تأسست مدارس عديدة همها الوحيد هو تدريس التعاليم اليهودية.

لا بد من الإشارة إلى أن نشاط الجالية اليهودية الثقافي منذ بدايته حتى الوقت الحاضر، لم يكن منعزلاً عن تركيبة المؤسسات والمنظمات الخاصة بها، وعلى الخصوص، الصهيونية منها.

إن النشاط الثقافي ـ الصهيوني في فرنسا واسع الانتشار جداً، وهو لا يقتصر، بطبيعة الحال، على اليهود الصهاينة فحسب، وإنما يمتد إلى مناصري هذه الأيديولوجيا سواء من المفكرين أو المؤسسات. وتستغل الصهيونية جميع عملائها في المؤسسات العلمية لنشر أفكارها. فقد بذلت قصارى جهودها لإدخال مادة «اليهودية المعاصرة» في الجامعات. على سبيل المثال، يشرف الأستاذ دوريس بنسيمون، على « مجموعة سوسيولوجيا الأديان» التابعة لكل من الـ CNRS أي «المركز الوطني للأبحاث العلمية» ـ أكبر مركز للبحث في فرنسا ـ والـ EHESS «المدرسة العليا لدراسات العلوم الاجتماعية» بالتعاون مع الجامعة العبرية في القدس. وهناك مركز أبحاث ضخم آخر وهو «سوفريس» sofres الذي يركز على الإحصاءات والتحقيقات.

وقد أصبح المثقفون الذين هاجروا من أوروبا الوسطى إلى فرنسا دعامة هامة في ترويج النشاط الثقافي ـ الصهيوني في فرنسا، خصوصاً وأنهم وجدوا حريتهم في التعبير والعمل. وأهم هذه الشخصيات الثقافية والفنية والأدبية: ب. هالفين، ل.شوارتزنبيركن جان بير ميلفيل، داليو، أندريه شوارتز ـ بارت، روجر أيكور، ليون بولديكوف، فلاديمير رابي، اندريه كلكسمان، ماريك هالتر، كلارا مالرو، ايمانيول ليفيناز، ليونيل ستولريو، شارك فيترمان، روبرت بادنتر، هنري كراسوكي. أولئك المثقفون انقطعوا عن جذورهم واستطاعوا أن يؤسسوا تراثهم من جديد وهذه الجماعة تبلغ حوالى ٢٤٠ ألفاً وهي تتمركز في باريس.

يمكننا القول إن النشاط الثقافي ـ الصهيوني لا يمكن حصره في مجال معين، فهو يشمل الميادين كافة: الجامعات، المدارس، المكتبات، المؤسسات العلمية، دور النشر، الصحافة، الإذاعة والتلفزيون والسينما. وهذا ما سوف نعالجه من خلال كتابات المناصرين للحركة الصهيونية.

الفصل الرابع

التغلغل الصهيوني في فرنسا

- ١ -

تأثير النفوذ الصهيوني

مما لا شك فيه أن الدول الغربية، وفي مقدّمتها الولايات المتحدة، وكذلك الحركة الصهيونية بمؤسساتها المالية والصناعية، بذلت جهوداً جبارة من أجل ترسيخ قاعدة تكنولوجية لولاها لما تمكن الكيان الصهيوني من القيام باعتداءاته المتكررة على أجزاء عديدة من وطننا العربي. والنفوذ الصهيوني كما عرفنا من خلال ما عرضناه من منظماته السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية والاجتماعية، تسلل إلى أعلى المناصب في الإدارة السياسية الفرنسية. وتمتلك الصهيونية هذه القدرة من خلال امتلاكها سلطة رأس المال. ولم تكتف الدول الغربية الاستعمارية بإمداد الكيان الصهيوني بكل الخبرات العلمية، التي تتطلبها عملية إنتاج الأسلحة المعقدة. ومع وصول إمدادات الأسلحة الفرنسية في منتصف العام ١٩٥٦، بدأت التكنولوجيا العسكرية الفرنسية تتدفق على الكيان الصهيوني، حتى تمكن بعد فترة وجيزة من إنتاج الطائرات الفرنسية الأصل. وإننا حين نشير إلى دور فرنسا لضرورة البحث المفصل، فلا ننسى بطبيعة الحال ما يماثله من أدوار للولايات المتّحدة وألمانيا وبريطانيا. وهذه السياسة لا يمكن أن تنفذ إلا من خلال تأثيرات مراكز القوى المتعدّدة والمنتشرة في الميادين كافة.

تمثل عائلة روتشيلد في فرنسا سلطة قوية تتحكم في أسواق لندن وباريس وروما وبروكسل وجوهانسبورغ وتل أبيب. فحسب قول الباحث الفرنسي سيشار، تكاد عائلة روتشيلد تمثل «حكومة يهودية عالمية» تستطيع التحكم في مصير أهم الشركات الصناعية والتجارية في ثلاث قارات، أوروبا وأميركا وآسيا. وبموجب المراجع المذكورة أعلاه، يقع في حوزة عائلة روتشيلد رصيد من المال يقدر بـ ٨,١

مليارات دولار ويحتل الفرع الإنكليزي لعائلة روتشيلد بنك «روتشيلد إندسانس» مواقع قيادية في بورصة العملات في لندن. وفي بلجيكا يمارس بنك «سوسيتيه جنرال» société générale المرتبط بعائلة روتشيلد عملياته بنشاط وتقدر الأموال التي يملكها في هذا البلد بـ ٤,٣ مليارات دولار.

وبالإضافة إلى ذلك، يترأس مارسيل داسو، أحد الممثلين المعروفين للطغمة المالية الصناعية، والذي يمثل حسب قول المراقبين الاقتصاديين في فرنسا «دولة داخل دولة شركة «داسو» العسكرية الصناعية التي تنتج طائرات الميراج. وداسو هذا معروف بتحمسه الشديد للصهيونية وللكيان الصهيوني وهو أحد رموز مراكز القوى في فرنسا، التي تضغط على الحكومة باتجاه دعم مواقف «إسرائيل» شرق أوسطياً ودولياً.

وهناك صناعي فرنسي آخر معروف بميوله الصهيونية وهو مسيو «شبيلوف»، الذي يشرف على شركة «توريامك» قام ببناء مصنع لإنتاج المحركات النفاثة قرب تل أبيب بالاشتراك مع الشركة الإسرائيلية «إيركرافت أند وستريز».

لعبت فرنسا دوراً كبيراً في تأسيس وإنشاء القاعدة التكنولوجية للكيان الصهيوني، ويرجع هذا التعاون العسكري الفرنسي ـ الإسرائيلي إلى العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ واستمراره حتى العام ١٩٦٧ عندما أعلنت فرنسا بقيادة الجنرال ديغول حظر تصدير وشحن الأسلحة للكيان الصهيوني. وعلى مدى أحد عشر عاماً من التعاون العسكري، استطاع الكيان الصهيوني تحقيق تقنيات عالية في مجال التصنيع الحربي. ومن أبرز منجزات التعاون الفرنسي ـ الصهيوني ما يأتي:

١- ساهمت فرنسا في إنشاء صناعة جوية صهيونية وأعطتها ترخيصاً لإنتاج طائرة الفوجا ميجيستير ومستير وقطع غيار الطائرات. [صحيفة معاريف ٢٦-٩-١٩٧٥ ـ مجلة آفاق عربية ـ العدد ٧ آذار/مارس ١٩٧٩. ص ١-١٠].

٢- لعبت شركة داسو الفرنسية دوراً هاماً في تعزيز الصناعة الجوية الصهيونية عن طريق إنتاج طائرات «الميراج» داخل الكيان الصهيوني.

٣- أنشأت فرنسا صناعة الأسلحة المتطورة مثل الصواريخ بعيدة المدى والزوارق حاملة الصواريخ. وقد تم تطوير الصواريخ المعروفة بأرض ـ أرض من خلال تعاون الكيان الصهيوني وشركة مارسيل داسو بموافقة الحكومة الفرنسية. ومن أهم هذه الصواريخ طراز (٦٦٠ م.د. ٦٢٠ م.د) الذي يبلغ مدى كل واحد منه حوالى ٤٥٠ كلم.

٤- أما في الحقل النووي، فقد بدأ التعاون الفرنسي ـ الصهيوني في الخمسينيات، وقد تجلى في بناء مفاعل نووي في «ديمونه»، ويعترف الكيان الصهيوني بأنه لولا المساعدة الفرنسية في المجال العسكري والنووي لما استطاع الصمود في حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧ وقد تقلبت المواقف الفرنسية إزاء الكيان الصهيوني نتيجة لتطور الأحداث.

إن موقف الجنرال ديغول إزاء الكيان الصهيوني منذ حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ لا يزال جوهر ومدار مناقشات ومجادلات حادة بين مختلف القوى والأحزاب السياسية الفرنسية. وقد قيل عن هذا الموقف بأنه يعبر عن «قطيعة أخلاقية» مع «إسرائيل». وموقف ديغول كما قلنا أثار تحليل المراقبين السياسيين وانتقادهم. وغالباً ما كانوا يعتبرونه ينبع من اتجاهات متناقضة منها: اتجاه مناصر للعرب أو اتجاه معاد للسامية أو اتجاه وطني صرف. وهكذا بالنسبة إلى وزير إعلامه المفكر والروائي الكبير أندريه مالرو الذي لم يخف تعاطفه الشديد مع الصهيونية آنذاك إذ قال: «انبثقت دولة إسرائيل من الشجاعة التي كان يتحلى بها رواد الحركة الصهيونية، وبدون هذه الشجاعة لم تكن للأموال المتوافدة من الولايات المتحدة أية فائدة تذكر. وبدونها أيضاً لم تغادر الأيديولوجيا الصهيونية الأراضي الأوروبية حيث ولدت وترعرعت. إن الأمم الشهيدة أمم ضحايا، وتاريخ إسرائيل يبدأ بلحظة خضوعها للقوانين الفارسية، التي كانت تجعل اليهود يدفعون ديونهم بالعملة السوداء ثمن الدم اليهودي، إلى آخر معاركهم في فرصوفيا حيث ناضلوا بدون أمل من أجل الشرف، الذي ولد في فلسطين بالقدس المحاصرة وفي عزلة مزارع النقب المهدّدة». إن هذا الموقف العجيب لمفكر كبير كمالرو يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه لم يفهم الطبيعة

العدائية والنزعة العنصرية للصهيونية، فراح يؤيدها من موقعه الأدبي والرسمي شأنه شأن كبار الكتاب والمفكرين أمثار سارتر وريمون آرون وغيرهما. وإذا كان مالرو يؤمن بـ «الأمم الشهيدة» حسب تعبيره، فإنه ينسى المجازر الوحشية التي اقترفها الصهاينة في بداية أعمالهم الإرهابية بحق الشعب الفلسطيني. وربما يثبت التاريخ أية أمة أصبحت شهيدة؟ لقد أيد الجنرال ديغول إقامة دولة صهيونية يستطيع فيها اليهود التمتع باستقلالهم، كما شجّعهم في أيام أزمة قناة السويس على التشبث بالأراضي التي اقتحموها في سيناء. وكذلك زود إسرائيل الطائرات التي تضمن حمايتها. ولهذا السبب فقد أثار خطاب ديغول الشهير عقب نكسة حزيران/يونيو استغراب وشجب الديغوليين التقليديين، الذين لم يستوعبوا تقلبات آراء ديغول ومواقفه السياسية. فقد اعتبروا موقفه هذا مناورة للاقتراب من الدول العربية انطلاقاً من الاعتبارات المصلحية. لذا عبر عدد كبير من بين صفوف الديغولين عن يأسهم من السياسة الديغولية الخارجية. ولم يتردد أعرق مناصري ديغول في دينه علناً ما يدل على مدى تأثير نفوذ الصهاينة في الساحة السياسية الفرنسية آنذاك. كما استطاعت في الوقت ذاته أن تقلل من القيمة السياسية لشخصية تاريخية كشخصية الجنرال ديغول في نظر شعبه الذي أصبح يتمنى استبداله برئيس آخر.

أما الرئيس جورج بومبيدو الذي تولى السلطة بعد الجنرال ديغول، فقد تميز بمفاهيم مختلفة فيما يتعلق بدور فرنسا في الشؤون الدولية. غير أنه لم يتوقف عن مساعدة الكيان الصهيوني وذلك من أجل تهدئة الرأي العام الفرنسي المناصر للصهيونية، فقد عمل على توطيد علاقة فرنسا بالدول العربية انطلاقاً من المصالح التجارية والاقتصادية، ولم تفسح وفاة الرئيس بومبيدو المبكرة بالنسبة إلى فترة رئاسته بعد أشهر قليلة من حرب تشرين ١٩٧٣، في المجال لإيضاح موقفه من الصهيونية ومن أزمة الشرق الأوسط عموماً. ويمكن القول إنه اتبع طريق سلفه.

أما مجيء الرئيس جيسكار ديستان إلى السلطة، فقد مثّل نوعاً من الانعطاف في سياسة فرنسا تجاه أزمة الشرق الأوسط، إذ كانت أول مبادرة تقوم بها الحكومة الفرنسية هي إيفاد وزير خارجيتها سوفينيارك، إلى بيروت لمقابلة ياسر عرفات،

كما شهدت فترة رئاسته فتح مكتب رسمي لمنظمة التحرير الفلسطينية لأول مرة في باريس. وتميزت في هذه الفترة السياسة الفرنسية باتجاهها العادل نوعاً ما فيما يتعلق بأزمة الشرق الأوسط، إذ لم ينس العرب تصريح الرئيس ديستان في خلال إحدى رحلاته إلى الدول العربية، موضحاً: بأنه يدافع عن حق تقرير المصير فيما يخص الشعب الفلسطيني. ولم يعن ذلك تضاؤل أو تناقص نفوذ الحركة الصهيونية في فرنسا، بحيث يعجز المرء عن تفسير كل المبادرات السابق ذكرها انطلاقاً من إرادة الدفاع عن مصالح معينة، أو انطلاقاً من تعاطف حقيقي مع قضية الشعب العربي. ومما يثير التساؤل الزيارة التي قام بها الرئيس ديستان إلى الكيان الصهيوني لمصلحة المرشح فرانسوا ميتران سنة ١٩٨١، وتلك عائدة إلى أن الحزب الاشتراكي الفرنسي لا يخفي أبداً تعاطفه المطلق مع الكيان الصهيوني عبر تاريخه، وحسب ادعاءات الاشتراكيين الأوروبيين عموماً ينبثق هذا التعاطف من تقارب وجهات النظر بينهم وبين رواد الحركة الصهيونية، التي ادعت بأن جوهر الصهيونية هو الاشتراكية. ويؤكد المسؤولون الفرنسيون باستمرار عدم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ما دامت ترفض الاعتراف بالكيان الصهيوني. وهذا ليس بالأمر الجديد، غير أنه خيّب الآمال لدى الأوساط التقدمية الفرنسية، التي كانت ترى في وصول الاشتراكيين إلى السلطة فاتحة جديدة أمام مصالح العالم الثالث. أما زيارة الرئيس ميتران إلى الكيان الصهيوني، وهي أول زيارة يقوم بها رئيس جمهورية فرنسي، فقد أثارت عاصفة من النقد والتأييد. والرئيس الفرنسي وعد «إسرائيل» بزيارتها وهو لا يزال في طور الترشح للرئاسة، وقبل أن يصبح في قصر «الإليزيه». ولا بد من الإشارة هنا إلى العواطف التاريخية لدى ميتران عندما أعلن بنفسه اعتراف فرنسا بالدولة الصهيونية باسم العهد الاشتراكي الأول بعيد الحرب العالمية الثانية. ومما يؤكد نفوذ اللوبي الصهيوني في فرنسا، وبالذات داخل الحزب الاشتراكي الحاكم، آخر تصريحات السكرتير العام والناطق الرسمي بلسان الحزب الاشتراكي، ليونيل جوسبان، الذي قال فيه إنه لا يرى مانعاً من نقل السفارة الفرنسية في إسرائيل إلى القدس المحتلة لأنها أكثر جمالاً.

وإذا ألقينا نظرة خاطفة على دور اليهود في الانتخابات الفرنسية، نلاحظ أن التصويت اليهودي في الانتخابات الرئاسية كان لمصلحة اليسار الاشتراكي، وذلك بسبب تصريحات القادة الاشتراكيين ومناصرتهم للكيان الصهيوني. وبلغت نسبة التصويت ٦٥٪ من المنتخبين، غير أننا لاحظنا في خلال الانتخابات البلدية التي جرت عام ١٩٨٣، بأن اتجاههم قد انحرف نحو اليمين. يدل ذلك على أن الجالية اليهودية الفرنسية بصفة عامة وبسبب ازدواجية ولائها (فرنسا و«إسرائيل») لا ترتكز في تصويتها على اعتبارات فكرية بحتة، بل على مدى تعاطف الأحزاب والحكومات مع الكيان الصهيوني. ويمكن تأويل هذا الانحراف نحو اليمين بمسألة المناقشات بشأن مصير المدارس الحرة إذ هنا مبادرة حكومية تعمل على توحيد نظام التعليم الفرنسي، وجعله نظاماً علمانياً عاماً ما يهدد المدارس اليهودية المنتشرة في أنحاء فرنسا. على أن المحاولة الحكومية المذكورة قد تهدد المناهج التربوية اليهودية المحددة بالأطر الدينية التقليدية المعروفة فيما يخص الأجيال المقبلة.

من الملاحظ أيضاً أن انقسام المنتخبين بين اليمين واليسار يصاحبه الانتماء إلى الطبقات الاجتماعية والمهنية لليهود. وفي إحصاء حديث أجري على نموذج من مائة يهودي ممن يصوتون لمصلحة اليسار، تبين أن تركيبهم الاجتماعي والطبقي هو ٢٥٪ كوادر متوسطة، ٢٧٪ كوادر عليا، ١٦٪ بدون مهن أو متقاعدون، ١٣,٥٪ موظفون، ٦,٦٪ مهن حرة، ٣٪ عمال [الإحصاءات مأخوذة من صحيفة لوموند، ١٢-١٣، شباط/فبراير ١٩٨٤]. أما النموذج الآخر من المصوتين لمصلحة اليمين فهم مائة أيضاً تبين أن تركيبهم هو: ١٤,٥٪ صناعيون وتجار وحرفيون، ١٩,٥٪ مهن حرة، ٢١,٥٪ كوادر متوسطة، ١٢,٥٪ عمال وموظفون.

إذن نستنتج أن اليهود يمثلون جالية محظوظة من حيث العناية الخاصة، التي تشملهم ويرجع أصل هذه الظاهرة كما قلنا، إلى تصريح الجنرال ديغول عقب حرب حزيران/يونيو إذ أصبح شغلهم الشاغل هو مصير اليهود المرتبط بالكيان الصهيوني. ففي العام ١٩٨٠، ومع ظهور «منظمة الانبعاث اليهودي» طالب اليهود الفرنسيون بأحقية اختلافهم عن بقية المقترعين الآخرين. لا بد من أن نذكر بأن رئيس هذه

المنظمة نادى بضرورة إيجاد ما سماه «التصويت اليهودي» vote juif وبمرور الزمن، تتوسع هذه الجالية وتقوى بين صفوفها الحركة الصهيونية ما يمكنها من التأثير بشكل فاعل وجذري في توجيه القرارات الحكومية وكذلك في مسار الانتخابات.

- ٢ -

الرأي العام الفرنسي تجاه الصهيونية

ظهرت مسألة إسرائيل منذ أيار/مايو ١٩٦٧ على الساحة الفرنسية كظاهرة أخذت تهم الرأي العام الفرنسي وذلك عبر المواقف والكتب والتظاهرات والتحقيقات. وبرزت هذه الظاهرة الجديدة خصوصاً لدى الديغوليين والأحزاب السياسية الأخرى. ترى ما هي ردود فعل الرأي العام الفرنسي فيما يتعلق بحربي ١٩٦٧ و١٩٧٣؟ كذلك ما تعكسه هذه الردود من مواقف وآراء بالنسبة إلى القضية الفلسطينية؟ إذا ألقينا نظرة خاطفة على المناقشات في تلك الفترة في الوسائل السمعية ـ البصرية، نلاحظ أنها تتميز بجو من التوتر والارتباك والغموض أحياناً، خصوصاً وأن هيمنة الصهيونية على الوسائل الإعلامية المختلفة لا يمكن إخفاؤها بأي شكل من الأشكال.

يمكن ملاحظة مزيتين هامتين لدى الرأي العام الفرنسي:

أولاً: تعلق الرأي العام بفكرة السلام وما توحيها من أبعاد سياسية وفكرية.

ثانياً: تفضيل «إسرائيل» في الغالب باعتبارها نموذجاً أوروبياً في الشرق الأوسط.

قبل حرب حزيران، أكدت الحكومة الفرنسية عدم انحيازها إلى أي من الطرفين، لكن حسب الإحصاءات التي نشرت آنذاك في الصحف والمجلات، وافق ٥١٪ من الفرنسيين على هذا القرار. وأما النسبة المتبقية ٤٩٪ فقد أبدت رأيها بضرورة عدم تزويد أي من الطرفين أية أسلحة.

[إحصاءات من وثائق مركز الدراسات اليهودية بباريس].

لأول مرة، عبر الرأي العام الفرنسي عن تحفظاته عن سياسة ديغول الخارجية انطلاقاً من أحداث الشرق الأوسط، وعلى الخصوص حرب حزيران. تشير الإحصاءات إلى انخفاض عدد مؤيدي هذه السياسة من ٥٤٪ في آب ١٩٦٧ إلى ٣١٪ في كانون الثاني ١٩٦٩.

يعود انعطاف الرأي العام الفرنسي إلى أسباب عميقة داخلية في تركيب التفكير الفرنسي، لعل أهمها عقدة الشعور بالذنب لدى غالبية الأوروبيين، التي تعمد الصهيونية إلى تحريكها واستدرار العواطف الساذجة منذ أحداث الحرب العالمية الثانية إلى الوقت الحاضر. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، عزف الصهيونية على وتر الإشادة بالمنجزات الاجتماعية والاقتصادية داخل إسرائيل باعتبارها تجربة أوروبية بحتة في الشرق الأوسط. إضافة إلى ادعاءاتها المزيفة حول «الشكل الديمقراطي الإسرائيلي» الذي لا يختلف عن الأشكال الديمقراطية السائدة في الأنظمة الأوروبية. فالهدف الذي تريد تحقيقه الصهيونية من ذلك هو خلق الروابط النفسية ـ الفكرية بين اليهود داخل الكيان الصهيوني وفيما بين المواطنين في البلدان الأوروبية. وهكذا، فإن الدفاع عن «إسرائيل» يتحول إلى دفاع عن نموذج أوروبي مهدد بالفناء، ما يعني فناء التجربة والنموذج في آن واحد. يضاف إلى ذلك وجود تضامن جذري بين اليهود الفرنسيين ويهود إسرائيل.

من الأسباب المباشرة لهذا التعاطف الفرنسي ـ الإسرائيلي، يمكننا ذكر مسألة السويس عام ١٩٥٦ التي ساعدت على التقارب بين «الشعبين الفرنسي والإسرائيلي». كما ولدت حرب الجزائر لدى غالبية الفرنسيين حقداً وكراهية إزاء العرب. ولا بد من الإشارة إلى التظاهرات الضخمة التي جرت في فرنسا تضامناً مع «إسرائيل» قبيل حرب حزيران، منها تظاهرة قامت في باريس جمعت ثلاثة آلاف شخص، بينهم شخصيات سياسية من مختلف الاتجاهات اليمينية واليسارية وكذلك بعض الكتاب والفنانين. هذا التعاطف ترجم إلى أفعال متعدّدة منها: توافد عدد كبير من المتطوعين إلى السفارة الإسرائيلية في باريس للالتحاق بالجيش الإسرائيلي كما جمع الفرنسيون المتعاطفون مع الكيان الصهيوني مبلغاً قدره عشرة ملايين فرنك في خلال ثلاثة أيام.

تشير إحدى الإحصائيات التي أجريت عام ١٩٦٧ والتي نشرتها الصحف الفرنسية، إلى أن عدد المتعاطفين مع «إسرائيل» في فرنسا كان يراوح بين ٥٦-٥٧٪. أما عدد المتعاطفين مع العرب فلم تتجاوز نسبتهم ٢٪. تدل هذه النسبة بشكل لا يقبل الشك، على مدى تغلغل الدعاية الصهيونية في الرأي العام الفرنسي. وقد أثار قرار الجنرال ديغول قطع شحن الأسلحة إلى الأطراف المتحاربة، موجة من الاحتجاجات من الرأي العام الفرنسي، الذي اعتبر أن «إسرائيل» هي المقصودة بهذا القرار في الدرجة الأولى. في كانون الثاني/يناير ١٩٨٠، أثار بيع الحكومة الفرنسية طائرات ميراج للحكومة الليبية، موجة أكبر من الاحتجاجات، لأن الرأي العام الفرنسي اعتقد أن البلدان العربية كافة قد تشارك في الحرب وليس مصر والأردن وسوريا التي قاطعها الجنرال ديغول ومنع عنها تصدير الأسلحة. ففي خلال حرب تشرين، عبر ٥٥٪ من الفرنسيين عن عدم رضاهم عن السياسة الفرنسية في المنطقة إذ اعتبروها مناصرة للعرب. أما عدد المتعاطفين مع العرب، فقد عرف تطوراً تحول من ٢٪ عام ١٩٦٧ إلى ١٦٪ في العام ١٩٧٣.

على أن الرأي العام الفرنسي يعتبر بنسبة ٥١٪ أن العرب مسؤولون عن حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧. أما النسبة المتبقية ٤٩٪ فإنها تدين سياسة ديغول المناصرة للقضية الفلسطينية بعد حرب حزيران.

ففي مقابل الفرنسيين الذين يتعاطفون مع إسرائيل، ثمة ١٦٪ يؤيدون العرب و٣٠٪ لا يهمهم الأمر و٨ ٪ من المتعاطفين مع الطرفين.

لا يمكن بأي شكل من الأشكال إهمال دور يهود فرنسا في تحويل الرأي العام الفرنسي إلى رأي متعاطف تعاطفاً مطلقاً مع الكيان الصهيوني. هكذا تألفت في آذار/مارس ١٩٦٧ «هيئة التضامن الفرنسي - الإسرائيلي» comité de solidarité français avec Israël التي نظمت تظاهرات ضخمة جمعت الألوف من الأشخاص، وعملت على نشر وتجميع نداءات وتوقيعات لمصلحة «إسرائيل». كما حاولت آنذاك الضغط على الحكومة الفرنسية لدفعها إلى اتخاذ قرارات ومواقف مناصرة

للكيان الصهيوني. إلى جانب هذه الهيئة، برزت على الساحة الفرنسية هيئات ومنظمات أخرى منها «الرابطة الفرنسية ـ الإسرائيلية» alliance France-Israel التي تضم بين صفوفها وجوهاً سياسية معروفة مثل ميشيل بونيا توفسكي، وزير الداخلية في عهد جيسكار ديستان، وجان ليكانيويه، السياسي المعروف وآخرين. اعتبرت هيئة التضامن المذكورة وسياستها لوبياً حقيقياً وهو عبارة عن تركيب دائم من أجل ترسيخ العلاقات بين الشخصيات السياسية الفرنسية والإسرائيلية وتطويرها. وبالرغم من تعاطف الرأي العام الفرنسي بغالبيته مع إسرائيل، بقيت الشخصيات السياسية منقسمة بهذا الشأن.

فالشخصيات السياسية في الوسط هي الأكثر تعاطفاً مع الكيان الصهيوني نذكر منها: جان ليكانيويه، ألن بوير. أما الاشتراكيون فينقسمون تيارين متنازعين حول الموقف من «إسرائيل»: التيار المناصر ويمثله كل من غاستون ديفير، وزير الداخلية الحالي، وغي موليه، وزير سابق، وجان بوبرين، رئيس الكتلة الاشتراكية في البرلمان الفرنسي، وبيير موروا، رئيس الوزراء السابق بينما يمثل التيار المعارض لإسرائيل كل من جان ـ بيير شوفينمان، وزير حالي، وبيير جوكس. أما الرئيس ميتران فلم يخف منذ العام ١٩٧٣ مناصرته «لإسرائيل» فهو يؤكد باستمرار ضرورة توفير الحدود الآمنة لها.

إن ظاهرة الاهتمام بأمور السياسة الخارجية تبقى مسألة استثنائية، إذ نادراً ما تؤدي دوراً كبيراً في اهتمامات الفرنسيين الانتخابية إذ إنها تنصب على المشكلات الاقتصادية والاجتماعية الداخلية. أما مسألة الشرق الأوسط فقد دخلت الحياة السياسية الفرنسية بشكل مفاجئ ولم يكن من المتوقع أن تثير هذا الصدى الواسع.

مع تطور الأحداث السياسية في المنطقة، أصبحت أزمة الشرق الأوسط واحداً من المحاور الهامة في الحملة الانتخابية الرئاسية عام ١٩٦٩ عند استقالة ديغول.

في هذه الفترة بالذات، استطاعت الصهيونية أن تسيطر سيطرة تامة على أجهزة الإعلام الفرنسية، وتؤثر في الرأي الفرنسي لمصلحة «إسرائيل». في تلك الفترة،

صرحت شخصية سياسية معروفة «بأن الأوساط المتصهينة في فرنسا بذلت جهوداً وصرفت أموالاً طائلة للإسراع في استقالة الجنرال ديغول».

من نتائج حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، ازدياد عدد اليهود الفرنسيين المناصرين للكيان الصهيوني الذين أصبحوا يتصورون أن مصيرهم إنما يرتبط بمصير «إسرائيل». أما غالبيتهم فيعتبرون أنفسهم مجرد مواطنين فرنسيين لا علاقة لهم بالنزاعات الخارجية. وقد شجع الرأي العام الفرنسي الجالية اليهودية على التحرك السياسي بعد حرب حزيران. وهكذا أصبح المرشحون الفرنسيون للرئاسة يستخدمون أزمة الشرق الأوسط كأحد المحاور في توجيه التصويت عند الفرنسيين ومن ناحية أخرى، نجح اليهود الفرنسيون في إقناع الرأي العام الفرنسي بأن «إسرائيل» ليست سوى دولة صغيرة «مسالمة» يحيطها «أعداء متوحشون». وهذا الرأي هو السائد بفعل الدعاية الصهيونية المنصبة في قنوات مؤثّرة ومتعدّدة.

لابد من الإشارة إلى أن هذه الدعاية كانت مؤثّرة على الدوام. قبل اندلاع حرب حزيران، صدر عن «التجمع الفرنسي من أجل إسرائيل» rassemblement français pour Israël بيان جاء فيه: «من المستحيل مراقبة الجماعات المتعصبة التي تكن لإسرائيل عداء مميتاً. هناك عدد لا يحصى من الفرنسيين مستعدون لمساعدة «إسرائيل» بجميع الطرائق والوسائل، لإيمانهم بأن «إسرائيل» دولة تنتمي إلى منظمة الأمم المتّحدة. يضاف إلى ذلك أن شعبها عاش الاضطهاد والتعسف، وكان يأمل أن يجد له ملجأ آمناً. لذا يهدف تجمعنا إلى تعبئة المتطوعين الفرنسيين وإرسالهم إلى «إسرائيل» للتعويض في الحقول والمصانع من «الإسرائيليين» الذين كانوا يحاربون آنذاك».

يسعى هذا التجمع الفرنسي - الإسرائيلي إلى التأثير في الرأي العام الفرنسي بجميع الوسائل الإعلامية والثقافية، منطلقاً من الأسس التي تستند إليها الصهيونية. إلا أن التجمع المذكور يتناسى أن اليهود لم يعرفوا الاضطهاد والتعسف إلا على أيدي الأوروبيين وهذه الدعوة ليست إلا محاولة للتخلص من عقدة «الشعور بالذنب». والأمثلة عديدة فيما يخص تغلغل الدعاية الصهيونية في الرأي العام الفرنسي.

والغريب أن الغالبية الساحقة من الشعب الفرنسي، تبقى مقتنعة في صميمها بأن «إسرائيل» ليست سوى ضحية لجيرانها ـ الدول العربية.

من المؤسف حقاً أن يخضع الفرنسيون لعملية تشويه الحقائق وتزييف التاريخ من خلال الوسائل الإعلامية والثقافية. لقد بذلت الدعاية الصهيونية جهوداً كبيرة في ترسيخ أنماط معينة من شخصية العربي في أذهان الفرنسيين. فالعربي في أذهانهم إما أن يكون «مليونيراً» وإما «عاملاً مهاجراً» في المصانع الفرنسية وإما «إرهابياً». لا تستطيع العقلية السائدة إلا أن ترى صورة نمطية للعربي، خصوصاً وأن الرأي العام يستقي كل معلوماته من المصادر السمعية ـ البصرية أو المصادر المكتوبة.

يبدو من الصعب تغيير أو زحزحة اقتناع الرأي العام الفرنسي بما يتعلق بالصراع العربي ـ الصهيوني، ما دامت الصورة النمطية للعربي سائدة في مختلف الميادين. إننا أمام عملية غسل جمعي للدماغ تعمل الصهيونية على تنفيذها في جميع المراحل.

بين هذين التاريخين ١٩٦٧-١٩٧٣، تطورت الحركة الصهيونية، مستندة إلى تطور الأحداث السياسية في الشرق الأوسط وغياب الإعلام العربي الفاعل في أوروبا على العموم.

- ٣ -

المعارضون للصهيونية من المفكرين اليهود الفرنسيين

أطلق الكتاب الصهاينة مصطلحات عديدة على زملائهم الذين يخالفونهم في الرأي. مصطلحات شائعة مثل «كابوس» kapos وهو الاسم الذي كان يطلق على الحراس اليهود في معسكرات الإبادة في أثناء الاحتلال النازي، «ويهود الجنسية» juif de. كذلك وصفوهم بنعوت أخرى مثل «تدمير الذات» autodestruction و«كراهية الذات» haine de soi و«الخيانة» trahison وما إلى ذلك من قائمة السباب والشتائم لماذا؟ ببساطة لأن أولئك الكتاب اليهود الشرفاء قالوا كلمة الحق، وعارضوا قيام إسرائيل غير المشروع. إضافة إلى أنهم ساندوا قضية الشعب الفلسطيني. أولئك الكتاب الشرفاء هم: مكسيم رودنسون، فرانسيز كريميون، ناثان وينستوك، إيريك رولو، آنيا فرانكوس، ايمانيويل ليفين، م.روسنكار، جيروم لندن وغيرهم.

تتهم الصهيونية أول ما تتهم أولئك الكتاب بأنهم تخلوا عن دينهم اليهودي من أجل اعتناق فكرة سياسية أو فلسفية أو أيديولوجية. وتعتبر ذلك نوعاً من «السقوط الأخلاقي»، وهذه المسألة ليست بجديدة فمنذ العام ١٢٤٠عندما نادى أحد اليهود «المرتدين» نيكولا دونين بضرورة قراءة التلمود ونقده نقداً موضوعياً أثار حفيظة عدد هائل من الكهنة المتعصبين في باريس. وكذلك عندما أسس درومو صحيفته الشهيرة «الكلام الحر» la libre parole بالمعونة المالية التي قدمها له اليهودي «المهتدي» غاستون ويلارد.

في السنوات التالية، انضم اليهودي أرثر ماير إلى جانب الرأي المعادي لقضية «دريفوس»، إذ إن الصهيونية لا تسامح في هذا الميدان، فهي تعتبر كل من يخالف

رأيها من اليهود» «خائناً لشعبه»، ومن ثم فهو معادٍ لإسرائيل، وما يثير الصهيونية هو الرأي المخالف لأولئك الكتاب اليهود في قضية الصراع العربي - الإسرائيلي وتأثيراتهم في الرأي العام العالمي، خصوصاً عندما يعتقد أولئك الكتاب بأن لا مبرر لوجود إسرائيل، وبأن اليهود ليسوا بحاجة إلى دولة، وينبغي للإسرائيليين ألا يحتلوا أرض فلسطين بالذات. تعتقد الصهيونية بأن سلوك أولئك الكتاب قائم على أساس إرضاء العرب وتتهمهم بالعداء للسامية مباشرةً من دون تمحيص أو وعي.

يعد المفكر الفرنسي المعروف مكسيم رودنسون (من أصل يهودي) من أوائل المفكرين الذين تصدّوا للصهيونية، وفضحوا مراميها التوسعية وذلك في عدد من كتبه وخصوصاً في كتابه الهام «شعب يهودي أم مشكلة يهودية؟». لذلك تنبري الصهيونية لكيل الحقد والكراهية لهذا المفكر الحر. كتب المفكر الإيطالي المتعاطف مع الصهيونية، ريسارديتو، في مجلته epoca التي يرأس تحريرها قائلاً: رودنسون يهودي من أصل روسي على ما أعتقد، كرس حياته ليحارب شعبه: إنه يهودي معاد للسامية فهذه الحالة ليست جديدة وليست نادرة في التاريخ اليهودي. ومهما كانت هذه الحالة قديمة وجارية فإنها تثير الحزن والاشمئزاز. أن يشعر يهودي بأنه غريب عن شعبه.. فذلك أمر «مرعب» . بهذه العبارات الرنانة، يحاول الرأي الصهيوني تزييف فكر الآخرين وتشويهه لا لشيء، إلا لأن هذا الرجل لا يتفق مع عمليات الاضطهاد في الأرض المحتلة. ولا يحاول الفكر الصهيوني مناقشة آراء رودنسون ومفاهيمه الفكرية والسياسية لأنه غير قادر على دحضها أو محاجّتها. كشف رودنسون أبعاد الصهيونية في مقالته الشهيرة «الصهيونية والاشتراكية» التي نشرها في مجلة «النقد الجديد» nouvelle critique في شهر شباط/فبراير ١٩٥٣م. ووقف آنذاك موقفاً عظيماً تجاه جميع الصحف والمجلات اليمينية المتعاطفة مع الصهيونية أمثال «الفيغارو» figaro و«الأورور» Aurore والأوبسرفاتير» observateur و«إسبري» esprit. وتعتمد تفسيرات رودنسون على التفريق بين العداء للسامية والعداء للصهيونية. كتب رودنسون بهذا الصدد مقالة عنوانها «أكذوبة العداء للسامية في الاتحاد السوفياتي» قائلاً: «إن يهود الاتحاد السوفياتي ابتهجوا بدون شك، لكل

الحريات التي أصبحت رسمية لاحقاً». بيد أن قول الحقيقة غاظ الصهيونية التي تهدف إلى دفع اليهود للهجرة إلى «إسرائيل» دائماً. كانت الصهيونية تتهم رودنسون بالترويج الدعائي للاتحاد السوفياتي.

إن ما أثار الصهيونية وأفقدها صوابها هو مقالة رودنسون الشهيرة «إسرائيل حقيقة استعمارية» Israël fait colonial التي شرح فيها الأسس الاستعمارية التي قامت عليها إسرائيل.

كان رودنسون يتوقع كل تحركات «إسرائيل» الاستعمارية فقد كتب قبل وقوع حرب حزيران/يونيو١٩٦٧، مقالاً هاماً عن الصراع العربي الإسرائيلي نشرته مجلة الأزمنة الحديثة temps modernes. وفي أماكن أخرى يؤكد رودنسون بتحليله الدقيق لإسرائيل كحقيقة استعمارية قائلاً: «من المشروع أن يعتبر العرب أن زرع عنصر أجنبي جديد في أرض فلسطين ـ عنصر أوروبي في غالبيته آنذاك ـ لم تفرضه إلا القوة الأوروبية» ويضيف: «إن تكوين دولة إسرائيل على الأرض الفلسطينية ليس إلا نتيجة لعمليات ارتبطت تماماً بالحركة الأوروبية ـ الأميركية الكبيرة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين للسيطرة اقتصادياً على الشعوب الأخرى». بعد ذلك، ألف رودنسون كتابه الشهير الثاني «إسرائيل والرفض العربي» Israël et le refus arabe (منشورات سوي ١٩٦٧) الذي شرح فيه استحالة تحقيق السلام مع هذا الكيان.

ولا يزال الكتاب الصهاينة يشنون حملات شعواء على فكر رودنسون محاولين بجميع الوسائل «القضاء» عليه فكرياً بين الأوساط الثقافية الفرنسية، خصوصاً وأن رودنسون يحتل مكانة مرموقة في الأكاديمية الفرنسية. يضاف إلى ذلك أن الصحف اليومية، المتعاطفة مع الصهيونية، تكيل له السباب والشتائم وتحاول التقليل من قيمته الفكرية. يمكن القول إنه لم يكن هناك كتاب أو مفكر تعرض للهجوم الإعلامي الصهيوني كرودنسون.

وكذلك فرانسيز كريمو، لا يقل أهمية عن رودنسون في معاداته الصهيونية، فقد نشر مقالة هامة في المجلة نفسها التي نشر فيها رودنسون «النقد الجديد»

تحت عنوان «الصهيونية والمسألة اليهودية» في العدد الثالث كاشفاً أبعاد المؤامرة الصهيونية العالمية. أدّى كريميو دوراً مهماً في تعريف الفرنسيين بحقيقة الصهيونية وخصوصاً على صفحات مجلة «الحدث» l'événement التي كان يرأس تحريرها. كما ساهم في الندوة التي عقدت في الثاني من شباط/فبراير عام ١٩٧٠ في باريس حول موضوع «فرنسا وإسرائيل» في إعطاء صورة حقيقية عما يشاع عن انتشار معاداة السامية في الوطن العربي قائلاً:

«ينبغي أن أقول إني في خلال زياراتي الحديثة للبلدان العربية لم أواجه قط أي نوع من مشاعر العداء للسامية» بيد أن السلاح الوحيد بيد الصهيونية، هو اتهام كريميو بالعداء للسامية وهو بريء من هذه التهمة. وبعد انعقاد هذه الندوة، انبرت له الصهيونية بأكاذيبها، إذ ادعت في أحد الردود عليه «وجود معسكرات الإبادة لليهود في كل من سوريا ومصر. إضافة إلى عمليات طرد قرابة مليون يهودي من البلدان العربية منذ أكثر من عشرين عاماً». يبدو أن الصهيونية تحاول بسذاجة الرد على كريميو وهي تعرف حق المعرفة من الذي أقدم بجميع الوسائل وأساليب الترهيب والترغيب، على تهجير أولئك اليهود ودفعهم إلى داخل الكيان الصهيوني لاستخدامهم مجرد وقود لأطماعها الاستعمارية ـ التوسعية. ولعلها تتناسى كل عمليات التفجيرات التي كانت تقوم بها في البلدان العربية ضد اليهود لترويعهم من دون أن تفتح أمامهم سوى نافذة واحدة هي نافذة «الأرض الموعودة». لكن أولئك اليهود شعروا منذ اللحظة التي أطلقوا عليهم «السفارديم» بأنهم وضعوا في أسفل السلّم الهرمي لمجتمع الشتات والعنصرية. ولم تكتف الصهيونية بذلك، بل عقدت مؤتمراً عالمياً في ٢٧ كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٧٠ للرد على كريميو تحت عنوان «اليهود في الشرق الأوسط» juifs au Moyen-Orient في باريس، ترأسه بوهيرن وقد جمع المؤتمر ما يقرب من ممثلي خمسين بلداً، غالبيتهم من الكتاب والجامعيين والفنانين. وكان هدف المؤتمر لفت أنظار العالم إلى يهود البلدان العربية.

أما الكاتب ناثان وينستوك Nathan Weinstock فكان يعمل في صفوف حركة

«هاشومير هاتزر» Hashomer Hatzair اليسارية المتطرفة والمعادية لإسرائيل. ومن ثم انخرط في الحركة التروتسكية، ودان في مؤلفاته الصهيونية وإسرائيل وخصوصاً في مؤلفه الشهير «الصهيونية ضد إسرائيل» Sionisme contre Israël (منشورات ماسبيرو ١٩٦٩) ويؤكد وينستوك أن اليهود لا يؤلفون أمة وإنما هم مجرد طبقة وعندما تنتهي هذه الطبقة ينتهي اليهود على النحو المنظم في «إسرائيل». كما يذهب المؤلف في نظريته إلى أن «دولة إسرائيل» دولة برجوازية تختفي عندما يتحالف البروليتاريون ـ العمال ـ الفقراء العرب واليهود. يقول وينستوك: «بماذا تختلف الأقلية الإسرائيلية التي تكوّن في هذه المنطقة من العالم ظاهرة مختلفة تماماً عن الأقليات مثل الأكراد وجنوبيّ السودان بالنسبة إلى الأمة العربية»، والرد الصهيوني على آراء وينستوك هو «أن الدول العربية تقوم بإبادة الأقليات الموجودة لديها» كما فعلت الصهيونية وإسرائيل.

أما إريك رولو Eric Rouleau فهو اسم صحفي معروف في الصحافة الفرنسية، إذ يعمل في صحيفة «لوموند»، ويعد واحداً من أكبر مناصري العرب. وهو يهودي من أصل مصري، بدأ حياته متعاطفاً مع اليسار المصري في إبان حكم الملك فاروق وقد طرد ونفي من مصر عام ١٩٥٦ في أثناء العدوان الثلاثي على قناة السويس. ومنذ ذلك الحين، استقر مع عائلته في باريس. أعطاه إدوار سابلييه، المسؤول عن صحيفة «اللوموند» آنذاك فرصة العمل في الصحيفة المذكورة وذلك لموهبته ومعرفته بشؤون الشرق الأوسط. بعد سنوات قليلة ترك سابلييه الصحيفة مخلياً مكانه لإريك رولو. لم يتأثر رولو بجذوره اليهودية ولم يعرها الاهتمام اللازم، بل وطّد علاقاته مع العرب، واستطاع أن يحقق نجاحاً هائلاً للصحافة الباريسية.

في آذار/مارس ١٩٦٦ زار إريك رولو «إسرائيل» وعاد منها لينشر في «اللوموند» سلسلة من المقالات دان فيها كل الممارسات الصهيونية. ومنذ ذلك التاريخ تم الطلاق بينه وبين الكيان الصهيوني.

واشتد الصراع بينهما بعد حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ وخصوصاً بعد مساهمته في كتاب «إسرائيل والعرب» Israël et les arabes.

حاولت الصهيونية، بأي شكل من الأشكال، جر الكاتب والصحفي الجريء إلى الحديث عن «الأوضاع السيئة» لليهود في مصر، ولكن رولو رفض على الدوام ذلك مؤكداً نوع الرقابة الذاتية إزاء هذه الأمور. وذهب أبعد من هذا الحد، مصرّحاً بآرائه وأفكاره بشجاعة، متحدثاً بصراحة عن الصراع الإسرائيلي ـ العربي في برنامج إذاعي في إذاعة «أوروبا الأولى» الباريسية. كان من المقرر في البدء أن يتحدث رولو بمفرده عن حيثيات الصراع، إلا أن الصهيونية المسيطرة جاءت في اللحظات الأخيرة بالصحفي رولاند فورن الموالي لإسرائيل، كي يرد على رولو. لقد أقسم رولو للإسرائيليين بخسارتهم على المدى الطويل. عندما أراد أن يرافق جاك فوفييه، رئيس تحرير «لوموند» إلى «إسرائيل» رفضته السلطات الصهيونية ومنذ ذلك الحين إلى العام ١٩٦٧ لم يزر رولو الكيان الصهيوني.

في العام ١٩٧٠، التقى رولو الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ونشر تفاصيل ذلك اللقاء الهام على صفحات «لوموند» ما أثار حفيظة «إسرائيل»، إضافة إلى البرامج التي بثها من «الإذاعة الفرنسية» ORTF، بعنوان «بانوراما الشرق الأوسط»، في إثر ذلك اللقاء التاريخي. إن خدمة رولو للقضية العربية لا يمكن أن تقدر بثمن وخصوصاً على صعيد التأثير في الرأي العام العالمي.

وفيما يتعلق بالصحفية آنيا فرانكوس Ania Francos فقد ألفت كتاباً عنوانه «الفلسطينيون» وقامت بزيارات عديدة لمعسكرات الفلسطينيين في جنوب لبنان. لذا كانت تتعرض على الدوام لهجوم الصهيونية. بينت فرانكوس في مناسبات عديدة أن اللوبي الصهيوني يتحكم في وسائل الإعلام الأميركية والأوروبية كافة.

أما الكاتب إيمانوييل ليفن Emmanuel Levyne فقد نشر مقالاً شهيراً تحت عنوان «اليهودية ضد الصهيوينة» judaïsme contre sionisme أوضح فيه التناقض الجذري بين معالم الديانة اليهودية ومبادئ الصهيونية التعسفية.

إن مواقف أولئك الكتاب اليهود الشرفاء تكشف كل عمليات التضليل التي يمارسها الإعلام الصهيوني من ناحية، كما تكشف عن عدالة القضية الفلسطينية من

ناحية أخرى، لكن الإعلام الصهيوني لا يتحمل المناقشة والجدل والحوار فهو لا يرى غير الولاء «لإسرائيل» بشكل أعمى مهما كانت الحقائق.

لا بد من الإشارة في نهاية المطاف، إلى أننا لم نتناول جميع الكتاب والمفكرين المعادين للصهيونية في هذا الحيز الصغير. ولنا عودة للوقوف على أهم الكتاب والمفكرين، كتاباتهم ومواقفهم، لاستجلاء حقيقة الصراع الدائر بين اليهودية والصهيونية في فرنسا.

- ٤ -

البحث عن الهوية اليهودية

في السنوات الأخيرة، ظهرت في الصحافة الفرنسية أصداء انبعاث الذات اليهودية في فرنسا، كما تضاعف إصدار الكتب والروايات والمقالات والتحقيقات بهذا الصدد، وتبين من خلال هذه الأبحاث أن ثلثي الجالية اليهودية الفرنسية يعيشان خارج نطاق المنظمات اليهودية. ويتلقى ما يقارب الـ ١٠٪ فقط من الشباب اليهود تربية دينية محضة.

إن التجمع الذي حشد أكثر من ١٠٠ ألف نسمة في العام ١٩٨٠، والذي أطلق عليه اسم «اثنتا عشرة ساعة من أجل إسرائيل» Douze heures pour Israël، أصبح من الصعب بعثه وإحياؤه من جديد. وجمعت التظاهرات المناصرة لحكومة بيغن ما يقل عن ألفي نسمة، بينما كانت التظاهرات التي قامت بين عامي ١٩٦٧-١٩٧٣ تتميز بحجمها الضخم من المتظاهرين. واضح من خلال أحداث صيف ١٩٨٢ أن تعلق اليهود الفرنسيين بالكيان الصهيوني، مرتبط بصورة إسرائيل في الرأي العام غير اليهودي، وكلما ظهرت هذه الصورة بشكل إيجابي، ازداد تعلقهم بها، وقويت لديهم النزعة المساومة بالهوية اليهودية. ومنذ الانعطافة التي تمت فيما يتعلق بصورة إسرائيل في الوسائل الإعلامية، لوحظ ابتعاد عدد كبير من اليهود عن مناصرة الصهيونية. وهؤلاء ينتمون في غالبيتهم إلى فئة المثقفين «الأنتلجنسيا» أمثال البروفسور مينوفسكي، الذي صرح بعد مذابح صبرا وشاتيلا بأنه «يشعر بالخجل من كونه يهودياً». لذا نلاحظ أن تعلق اليهود الفرنسيين بالكيان الصهيوني لا يعبر عن تقليد ثقافي راسخ في الوعي الجماعي اليهودي، بل إنه قابل للتبدل حسب صورة إسرائيل والمتغيرات التي تطرأ عليها في الوسائل السمعية ـ البصرية العالمية.

وإذا ما استثنينا كل ما يتعلق بالنزاع العربي ـ الإسرائيلي، نلاحظ أن اليهودية فشلت في أن تصبح وسيلة لتجميع اليهود في الشتات. وقد شهدت السبعينيات تآلف عاملين أولهما اكتشاف جانب إيجابي في الشخصية اليهودية، وثانيهما محاولة تأكيد الهوية. فالعامل الأول مرتبط «بعقدة الذنب» التي أخذت تمس المجتمع الفرنسي منذ الحرب العالمية الثانية. وهذا أدى إلى خلق شعور التعاطف مع ضحايا الحرب وأسلافهم، كما لوحظ انعطاف ملموس داخل المجتمع الفرنسي، بحيث لم يجعل من اليهود ضحايا حرب ينبغي «استرجاع حقوقهم» فحسب، بل «أفراداً متميزين» في المجتمع يستحقون العناية والاهتمام أكثر من المواطنين الآخرين.

عقب حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، شهدت الجالية اليهودية تطوراً ملموساً في مواقفها. فقد أصبح أفرادها يصرحون علناً بتعلقهم بالكيان الصهيوني كمحور رئيس لنشاطهم السياسي. وشهدت الحركة الصهيونية منذ ذلك الوقت ازدياد نفوذها في الأوساط السياسية الفرنسية.

ولم نزل نذكر ردود الفعل العنيفة التي أثارها الجنرال ديغول حين دان سياسة إسرائيل العدوانية. ومن آثار حرب حزيران وانعكاساتها، أنها أدت إلى انفجار حركة استرجاع وتأكيد الهوية اليهودية كعنصر منفصل متميز من المجتمع الفرنسي. قبل العام ١٩٦٧ لم يكن اليهود يشاركون في إدارة منظماتهم، بل كانوا يهتمون بمصير الكيان الصهيوني بالدرجة الأولى قبل أي اهتمام آخر. ومما دفعهم في هذا الاتجاه هو الرأي العام الفرنسي، وردود فعله، في مناصرة الكيان الصهيوني ما أعطاهم فرصة التعبير عن التضامن الأعمى مع الدويلة الصهيونية، فضلاً عن تضاعف التبرعات لها إلى أن بلغت ملايين الفرنكات.

وإذا ألقينا نظرة خاطفة على الصحافة الفرنسية منذ بداية العام ١٩٧٠ حتى العام ١٩٧٨، نلاحظ أن طرح قضية استرجاع الهوية اليهودية ارتبط على الدوام بنزاع الشرق الأوسط والصراع الصهيوني ـ العربي. ونذكر أن الجنرال ديغول قد أعلن حظر بيع الأسلحة لإسرائيل في خريف ١٩٦٧، وتبعه في هذا السياق كل من

الرئيسين الفرنسيين جورج بومبيدو وجيسكار ديستان. وفي أثناء تولي جيسكار ديستان مقاليد الحكم، وقع طلاق بين الجالية اليهودية والحكومة الفرنسية ما يفسر لاحقاً تصويت اليهود الكبير للرئيس الحالي فرانسوا ميتران، الذي لا يخفي تعاطفه مع الكيان الصهيوني هو وحزبه الاشتراكي لكون إسرائيل تنتمي إلى مجموعة النظم الاشتراكية الديمقراطية في العالم الحر، ومن المعروف أن خلافاً واسعاً قد وقع بين الجالية اليهودية واليسار الليبرالي الفرنسي. فاليسار الفرنسي كان ولا يزال يكن الإعجاب باشتراكية «الكيبوتز» الإسرائيلية. غير أن وقوع حرب حزيران قد غيّر نوعاً ما في مواقفه تجاه الكيان الصهيوني، أو أقله الحركة الصهيونية. وقد أدى الحزب الشيوعي الفرنسي دوراً بارزاً في إحداث انعطافة هامة في الرأي العام اليساري إزاء القضية الفلسطينية ما وجهها في الطريق الصحيح. كما عرفت منظمات سياسية أخرى انشقاقات من جراء حرب حزيران، منها ما جرى داخل منظمة «الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا» المعروفة UNEF وتميزت هذه الفترة بالمشاجرات العنيفة بين الطلبة التقدميين المناصرين للقضية الفلسطينية ومنظمة الطلبة اليهود والصهاينة. ومنذ العام ١٩٧٢، قرر مسؤولو منظمات الجالية اليهودية التعبير علناً عن غضبهم وعدم رضاهم عن الحكومات التي اتخذت مواقف حاسمة من الحركة الصهيونية قاطبة. وهكذا على سبيل المثال، عبر الكاهن «كابلان» kaplan عن احتجاجه على مقاطعة فرنسا إسرائيل فيما يتعلق بحظر بيع أو شحن الأسلحة إليها. وعقب هذا القرار، نظمت الأحزاب السياسية من كل اتجاه، تجمعات ضخمة في باريس ومدن أخرى أكدت فيها أن الكيان الصهيوني كان ولم يزل «صديقاً وحليفاً». وكان من الملاحظ اختلاف اتجاهات الجالية والحكومة الفرنسية. ومنذ العام ١٩٧٧، تبيّن أن المطالبة بتأكيد هوية معينة متميزة صحبها إنتاج ثقافي كان رواده: بيرنار هنري ليفي، أندريه لوكسمان، إيلي فيزيل، كلود ليفي، أندريه شفارتز بارت وغيرهم.

وبعد حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، عملت الحركة الصهيونية جاهدة على تحريك الجالية اليهودية في اتجاه البحث عن الهوية identité juive وهذه المسألة لم تخص سوى أقلية من اليهود القاطنين في فرنسا.

والجدير ذكره أن الجالية اليهودية بمعناها الديني الصرف، شهدت ازدياداً ملحوظاً في عدد المنتمين إلى الديانة اليهودية منذ عشرين عاماً في إثر تدفق الهجرات نتيجة لاستقلال المستعمرات الفرنسية، وعلى الخصوص في شمال إفريقيا: الجزائر وتونس والمغرب ما بين ١٩٥٥-١٩٦٢، وقد ازداد عدد أفراد الجالية اليهودية بمقدار ٢٥٠ ألفاً ما عزّز من الناحية العددية الجالية اليهودية الفرنسية، التي أخذت تتناقص نتيجة أحداث الحرب الثانية. وبالرغم من أن الجالية اليهودية في فرنسا تعتبر أكبر جالية في أوروبا، إلا أنها تأتي في الدرجة الثالثة بعد الجالية اليهودية في كل من أميركا والاتحاد السوفياتي. وتتفاوت الإحصاءات في فرنسا لأسباب متعدّدة، فقد أشارت في العام ١٩٧٧ إلى أن عدد الجالية أخذ بالتناقص بسبب عملية الاندماج في المجتمع الفرنسي. أما اليهود المتبقون في المغرب وتونس، فربما يختارون فرنسا موطناً للعيش بسبب أواصر اللغة وبعض التقاليد الاجتماعية والثقافية الأخرى.

إن عملية البحث عن الهوية اليهودية لا تتم وفقاً لما رسمته الحركة الصهيونية لأن عدداً ضخماً من «الإسرائيليين» من أصل شمال إفريقيا، يعادون الكيان الصهيوني، نتيجة لشعورهم بمظاهر الاضطهاد والتفرقة، ويلتحقون بأهاليهم القاطنين في فرنسا. ومنذ عشرة أعوام تعيش الجالية اليهودية على مصادرها البشرية الخاصة. أما الهوية الجديدة التي ينادي بها بعض أفراد الجالية اليهودية فتمتلك مزايا خاصة على النطاق الديمغرافي، أهمها:

النسبة المرتفعة من الزيجات المختلطة إذ إن ما يقارب الـ ٥٠٪ منها تتم مع مواطنين من غير اليهود، وتتطور هذه الظاهرة بشكل ملحوظ ما يثير غضب وقلق المسؤولين الدينيين اليهود الذين يرون في ذلك خطراً يهدد توازن الجالية اليهودية ووحدتها، غير أن الأوضاع تغيرت منذ ربع قرن تقريباً إذ لم تعد الزيجات المختلطة تعبر بالضرورة عن انقطاع الفرد اليهودي عن الجالية الأم. وفي معظم الأحيان يعتنق الزوج غير اليهودي الديانة اليهودية. وقد سبّبت هذه الظاهرة مشكلات شتى لأن نقل اليهودي يتم عن طريق الأمومة، لكن أغلبية الزيجات المختلطة تعقد بين رجال يهود

ونساء مسيحيات. وترفض السلطات الدينية اليهودية اعتبار الأطفال يهوداً مهما كان تعلقهم بديانة الآباء.

إن استرجاع الهوية اليهودية، كما أشرنا من قبل، لا يعني بالضرورة الانغلاق على أنفسهم لأنهم يعملون على توطيد علاقاتهم الاجتماعية مع الفرنسيين المسيحيين وتقوية مكانتهم في المجتمع الفرنسي، للحفاظ على مصالحهم الخاصة. إلا أن ظاهرة انخفاض المواليد اليهود من فرنسا وأوروبا الغربية بدأت في مطلع الستينيات، وقد أدى ذلك إلى ظهور مشكلة شيخوخة السكان سواء في المجتمع اليهودي أو في المجتمع الفرنسي بشكل عام.

ويمكن القول، إن الجالية اليهودية الفرنسية، بموجب تاريخها المتميز تختلف في استجاباتها لهذه المشكلات، ولا بد من الإشارة إلى أن ثلث الجالية اليهودية الفرنسية ولد في أعقاب الحرب العالمية الثانية، ولم يكن لذلك أثر واضح في يهود شمال إفريقيا الذين يمثلون النواة الصلبة للجالية الفرنسية. وبالرغم من ذلك، فإن عدد الجالية اليهودية قد تضاعف منذ الخمسينيات بسبب توافد اليهود من شمال إفريقيا، وقد ساهمت هذه الموجة من الهجرة بحل مشكلة انخفاض النسل لدى الجالية. ومع هذا التعويض، ظهرت بداية تلاشي التقاليد وانفجار التركيبات العائلية وارتفاع نسبة الزيجات المختطلة. وبطبيعة الحال، أدت هذه الأوضاع إلى اعتقاد معظم اليهود أن ازدهار الديانة والحياة اليهوديتين لا يمكن أن يتم إلا داخل الكيان الصهيوني. وهؤلاء يمثلون ثلث الجالية التي تلح في عدم اختلاطها بالجاليات الأخرى والمجتمع المحيط. وغالبيتهم من يهود شمال إفريقيا. وتهدف الجالية إلى اعتبار نفسها منعزلة عن المجتمع الفرنسي. ويصح أن نؤكد، بالنسبة إلى الجالية اليهودية، عدم وجود نموذج طائفي سوى الكيان الصهيوني الذي جعلوا منه مرجعاً أساسياً. أما احتمال عودتهم إلى أوطانهم الأصلية، أوروبا الشرقية أو بلدان المغرب العربي فيمكن اعتباره مستحيلاً، لذا يرون وجودهم في فرنسا حقيقة لا جدال فيها ولا رجوع عنها.

إذن نستخلص أن الجالية اليهودية الفرنسية مكونة من ثلاثة فروع أحدها فقط من أصل محلي، ويلاحظ تقاليد متضاربة عن الفرعين الآخرين فيما يتعلق بالأجيال القديمة. ويتضاءل شعور التناقض بين الطائفتين السفاردية لدى الشباب اليهود، لأن اليهودية الفرنسية تعتبر ملتقى لتيارات فكرية مختلفة.

أما لدى الأجيال الجديدة، فقد تحولت اليهودية من ثقافة غنية إلى تظاهرة تضامن عمياء مع الكيان الصهيوني. ويبدو أن قضية الهوية اليهودية التي تصر عليها الحركة الصهيونية آلت إلى الفشل الذريع وخصوصاً أن الإحصاءات والتحقيقات الحديثة تشير إلى أن الغالبية الساحقة من الشباب اليهودي تجهل تماماً اللغة العبرية واليديشية وتاريخ اليهود قبل العام ١٩٤٨، أي تاريخ تأسيس الكيان الصهيوني. ولهذا انعكاسات متعددة على صعيد السلوك والفكر منها تفصيل التاريخ تفصيلاً ميكانيكياً، وإهمال كل حادثة لا ترتبط بتأسيس الكيان الصهيوني.

وشيئاً فشيئاً، بدأ اليهود يتخلون عن الأحزاب التقدمية وينخرطون في أحزاب متعصبة معادية لكل فكر إنساني نير. ولعل أبرز دليل على ذلك، تأييد الجالية اليهودية لاعتداءات الكيان الصهيوني على لبنان عام ١٩٨٢، بل حماستها لكل الجرائم التي اقترفتها الصهيونية تحت ستار «السلام في الجليل».

الفصل الخامس

اللوبي الصهيوني في كواليس قصر الإليزيه

- ١ -

الجنرال ديغول وإسرائيل

شهدت عودة «شارل ديغول» إلى الحكم وتأسيسه الجمهورية الخامسة في العام ١٩٥٨ تغييراً في السياسة الخارجية الفرنسية، على الرغم من آفاق التعاون التي ظلت قائمة بين فرنسا وشبكات الصهيونية. كان موقف ديغول غامضاً إلى حد ما، لأن تحمسه لم يفتر إلى إسرائيل، والدليل على ذلك أن الدعم العسكري ظل قائماً وخصوصاً فيما يتعلق بسلاح الجو، وتزامن ذلك مع تراجع النفوذ الفرنسي في الوطن العربي، بعد أن فقدت فرنسا مواقعها عند اعتلاء ديغول سدة الحكم، وأصبحت أميركا تنافسها حتى في لبنان، أمام تراجع نفوذها الثقافي، المحرّك الأساسي والغطاء الخفي لبسط نفوذها السياسي.

وساعدت حرب الجزائر، والعدوان الثلاثي (حرب السويس ١٩٥٦) على تغيير صورة فرنسا فظهرت بالمظهر السيىء ما أدى إلى انحسار دورها الثقافي في كل من مصر وسوريا. وأمام هذه الحالة، سعى ديغول إلى تغيير هذه الصورة محاولاً تقديم صورة أخرى عن «فرنسا جديدة» قادرة على التواصل مع العالم العربي، ثم انتهت هذه المحاولة باستقلال الجزائر في العام ١٩٦٢. لكن معاناة فرنسا استمرت باستمرار مستعمراتها الأخرى في إفريقيا. وقد ولدت في عهده «سياسة عربية» تمكنت من خلاله من كسب الرأي العام العربي. ونتيجة لذلك، اتهمت إسرائيل الجنرال ديغول بمعاداة الساميّة لأنه صرّح في مؤتمر صحفيّ بعد حرب ١٩٦٧ بأن إسرائيل «دولة توسعيّة تسعى إلى مضاعفة عدد سكانها عن طريق هجرة اليهود إليها»، وطالب بـ«جلاء القوات الإسرائيليّة عن الأراضي العربية المحتلة»، وقد أصر على رأيه هذا في مراسلاته مع بن غوريون، انطلاقاً من رؤيته إلى العلاقات الدولية ومكانة فرنسا

واستقلالية قرارها وبناء علاقات على أسس عقلانية تراعي مصالح فرنسا قبل أي شيء آخر، ويندرج انسحاب فرنسا من القيادة المشتركة للحلف الأطلسي (وليس الانسحاب من الحلف كما يروّج بعضهم) في هذا الإطار.

في عهد ديغول، جمعت المنظمات الصهيونية ٦,٥ ملايين دولار لمساعدة الكيان الصهيوني، في خلال شهر حزيران/يونيو ١٩٦٧، و«هرّبت» المخابرات الصهيونية البوارج العسكرية من ميناء «شربورغ» الفرنسي، وكانت فرنسا حليفاً رئيسيًّا لإسرائيل من ناحية التسليح، إذ ساعدتها على بناء المفاعل النوويّ، والقنبلة النووية، وبعد العام ١٩٦٧، أصبحت الولايات المتّحدة السند الرئيسي للكيان الصهيوني.

وجاء من بعده «جورج بومبيدو» الذي سار على السياسة نفسها بعد استقالة شارل ديغول في العام ١٩٦٩... إلا أن كليهما حافظ على علاقات قوية مع إسرائيل، أما كبار المثقفين أمثال سيمون دي بوفوار وجان بول سارتر وريمون آرون وجان دانيال فقد وقفوا إلى جانب الكيان الصهيوني

- ٢ -

فرانسوا ميتران

منذ أن اعتلى فرانسوا ميتران سدة السلطة في العام ١٩٨١وسط هرج اليسار وصخبه وخيبة اليمين ومؤامراته الخفية، بدأ الرئيس الفرنسي يتكلم باسم يهود فرنسا. وهذا ما دفع رئيس تحرير صحيفة (ليبراسيون) الشهيرة، سيرج جولي أن يقول، بمزيج من السخرية الواضحة والمرارة الظاهرة: «كان بود ميتران أن يقول بأنني من أصل يهودي..» ويتحدث باسم ـ الدياسبورا ـ والحقيقة التي تصفع الأوساط السياسية الفرنسية على اختلاف انتماءاتها، أنها لم تر، منذ تأسيس الجمهورية، رئيساً مثل ميتران يبدي هذا التعاطف غير الحيادي مع اليهود، وليس هذا من قبيل التأويل، فالمفكر اليهودي المعروف بيرنار- هنري ليفي يؤكد: «بأن ما جرى في فرنسا يعادل قيام ثورة تقريباً، وجهت صفعة قوية لكل من يردد بأن إسرائيل - عنصرية - ثيوقراطية - ورجعية - وهذه الثورة مثلت قطيعة من دون رجعة، مع التقاليد التي أرساها جيسكار ديستان الذي لم يبادل اليهود سوى الحقد». وبدلاً من أن تهدّئ تصريحات الرئيس الفرنسي غضب اليهود، زادتهم عدوانية.. عبّر عنها المفكر الفرنسي المعروف ريمون آرون بقوله: «إنني لا أحب العدوانية الحادة التي يبديها اليهود إزاء أعداء السامية إذ ينبغي لهم أن يتقبلوا، بل يتحملوا بدون مبالاة حقيقة أنهم ليسوا بالضرورة محبوبين من قبل جميع الناس». هكذا هم يهود فرنسا يضعون أنفهسم فوق الجميع ويشقون لأنفسهم خنادق خاصة يتسلحون فيها ضد الجميع، هذه حقيقة معروفة - ازدواج وانفصام وشعور بالتميز- يمارسه هذا اليهودي أو ذاك سواء أكان بائع ساعات قديمة في أسواق الخردة الباريسية أم موظفاً في بنك روتشيلد، فهو مغربي أو بولوني أو من جزر الكناري، يحمل الجنسية الفرنسية في جيب سترته، وخريطة إسرائيل في قلبه،

ويلبس المعطف اليهودي كهوية أو كوثيقة تميز، واليهودي الفرنسي يقلق مرتين، حين تجري الانتخابات في إسرائيل: في فرنسا لا يفكر إلا في الرئيس المتعاطف مع اليهود، وفي إسرائيل لا يفكر إلا في الرئيس الذي يحقد على الفلسطينيين. هذه التركيبة العجيبة المحيرة هبطت من السماء فجأة، في صحون طائرة خرافية، جمعت الحلم الصهيوني ومزجته بالجبن الفرنسي - وهو أربعمائة نوع. هذه التركيبة تنتظر على الدوام إتيان الحل من الخارج.

ولكن ما أن استقر ميتران في الحكم حتى هدأ صراخ اليهود الفرنسيين، ولاح لهم البيرق اليهودي، المرصع بنجمة داود، يرفرف على برج إيفل وقوس النصر.

وفجأة خرج عرّابهم الكبير من سراديب معامل الخياطة السرية اليهودية جاك أتالي ليرى الجالية اليهودية تلتف من حوله، وتضع بيده مفاتيح معابدهم ومصارفهم، مستشار ميتران المدلل هذا الذي يتكون نصفه من النبيذ المعتق ونصفه الآخر من حاخامات القدس، وجه طفل عجوز، معقوف الأنف كالصقر يعرف كيف يدور حول كرسي الرئيس الفرنسي ويقرأ في رأسه وصايا اليهود السرية، لكن جاك أتالي ليس مكشوفاً إلى هذا الحد فهو محاط شأنه شأن رجال البورصة المتنكرين بأثواب شحاذي يوم الأحد بستارٍ من الغموض والدبلوماسية فهو يعد نفسه أول من دفع الرئيس الفرنسي لاستقبال ياسر عرفات، وكان الجميع يتساءلون: هل كان يحشو رأسه بأسرار الإرهاب أم بآلام المخيمات؟ ولمَ يهدف مستشار الرئيس اللامع في هذا اللقاء السياسي، ميتران - عرفات، سوى إلى معرفة ردود أفعال الجالية اليهودية التي تتطلع إلى شاشة التلفزيون تارة وإلى مرايا بيوتها تارة أخرى. لكنها لم تكن ترى سواء في الشاشات أو في المرايا سوى لحى حاخامات إسرائيل الهرمين الذين يتسكعون في المعابد القديمة.

وهكذا أصبح جاك أتالي، من حيث يدري أو لا يدري، سيد اللعبة في إداره قصر الإليزيه من خلف الكواليس. يتناول قهوته الصباحية مع الرئيس المنبهر بعبقرية اليهود ويتعشى مع زوجة الرئيس التي تملأ رأسه بأساطير اليهود. وربما جاء أتالي متأخراً إلى عقل ميتران. ففي العام ١٩٧١ التقى الرئيس الفرنسي المسؤولين الإسرائيليين في

القدس وتل أبيب، ومد خيوط الوصل بين الصليب الذي يعلقه بخجل تحت قميصه وبين المؤتمر العالمي للمسيحيين من أجل فلسطين. وميتران، الذي يحتمي بتراث اليسار ونظرياته، يريد الخروج من جلده ليدخل تحت أظفار اليهودي ليعرف كيف تجري الدماء في عروقه.

وميتران الذي رفع شعار (من أجل فرنسا موحدة) على اعتبار أن حزبه يمثّل الأكثرية، أصبح من حيث يدري أو لايدري مجرد مرشد ديني للجالية اليهودية التي لا يتجاوز عددها الـ ٨٠٠ ألف نسمة. يقول غي دي روتشيلد بأن (ميتران فعل كل ما في وسعه ليربح أصوات الجالية اليهودية التي كانت مهيأة هي الأخرى للإيمان بأن الحماية لا تأتيها إلا من اليسار).

ومنذ ١٠ أيار/مايو ١٩٨١، بعد فوز ميتران بالانتخابات الرئاسية، رفع الناخبون اليهود قبعاتهم السوداء، عالياً إلى السماء، مبتهلين إلى تعاليم ميتران الاشتراكية، وهم يلعنون بالهمس والتمتمة، جيسكار ديستان الذي ترجح بين حب اليهود تارة والانبهار بمجوهرات بوكاسا تارة أخرى، لكن ميتران منذ تسلمه السلطة، بدأ يواجه ما يسمّى مخلفات (نظام فيشي) المعادي للسامية.

يعتبر الرئيس ميتران من أكثر السياسيين الفرنسيين المتحمسين لـ(إسرائيل)، إذ وصل به الأمر (حين كان رئيساً للجمهورية الفرنسية) أن ساند موقف مناحيم بيغن، رئيس الحكومة الصهيونية (اليمينية) ضد وزير خارجيته كلود شيسون، في شباط/فبراير ١٩٨٢، وفي أثناء مداخلته في مجلس الوزراء، انبرى الرئيس فرانسوا ميتران (الاشتراكي، العلماني) يدافع عن «العقد الذي يربط اليهود بربهم، في يهودا والسامرة» (أما الفلسطينيون فلا رب لهم؟)، ويبرر عدم تنازلهم عن أي شبر من أرض الضفة الغربية ... ويقول البارون دي روتشيلد: «لقد فعل ميتران كل ما يجب لكسب أصوات الطائفة اليهودية، وبذل جهوداً تميزت بالذكاء وتستحق التقدير، وعرف بأنه صديق اليهود»، ويعتبر جاك أتالي (اقتصادي صهيوني ومستشار الرئاسة في عهد ميتران) أن وصول فرانسوا ميتران إلى الرئاسة حدث سعيد لليهود ولإسرائيل...

سبق وصول الحزب الاشتراكي إلى سدة الحكم في العام ١٩٨١، حراك عمالي هام في قطاعات المناجم والحديد والصلب وقطاع صناعة السيارات... وغداة وصوله إلى السلطة صفى الحزب الاشتراكي قطاعات المناجم والصلب، ونعت رئيس الحكومة «بيار موروا» العمال العرب المضربين في شركة «سيتروين» (قبل إدماجها في شركة بيجو) بـ«الأصوليين المسلمين»، وكان العمال العرب في أسفل السلّم وكان المشرفون على العمل (رؤساء الفرق) ينتسبون إلى «نقابة» فاشية، تمولها المؤسسة بغية منع أي حراك أو احتجاج عمالي، وقامت الحكومة «الاشتراكية» بتشويه نضال العمال والتنديد بهم، متحالفة «موضوعياً» مع أرباب العمل ومع النقابات الصفراء الفاشية...

أما أبناء المهاجرين (وهم مواطنون فرنسيون) فكانوا (وما زالوا) يعانون العنصرية التي تمارسها أجهزة الدولة في عدة ميادين (التعليم، التشغيل، السكن، الشرطة، جهاز القضاء...) وقاموا بمسيرة سلمية تحت اسم «مسيرة المساواة»، ضمت آلاف الشبان والمتضامنين معهم، جابت فرنسا من الجنوب إلى الشمال، واستقبلهم الرئيس «فرانسوا ميتران» في قصر الإليزيه، ونهر من كانوا يتوشحون بكوفية فلسطينية، وأمرهم بنزع هذه «الخرقة، رمز الإرهاب»... وعوض الاستجابة لمطالبهم، وإنصافهم كمواطنين فرنسيين كاملي الحقوق، التف على حركتهم (بمساعدة خبير الاتصالات، جاك سيغالا الذي أشرف إعلامياً على حملته الانتخابية) وأنشأ منظمة «أس أو أس راسيزم»، وهي منظمة «مناهضة للعنصرية»، يشرف عليها عتاة الصهاينة في الحزب الاشتراكي، مثل جوليان دراي (وأخوه زعيم إحدى فصائل المستوطنين الأكثر تطرفاً في فلسطين المحتلة)، وتتمتع بدعم مالي وإعلامي هائل، فقد التفت على تحركات الشباب العرب قبل إقصائهم من قيادتها، ثم أصبحت جزءاً من اللوبي الصهيوني في فرنسا وتخصصت في محاربة كل من هو عربي أو مساند للقضية الفلسطينية واتهام من ينتقد الكيان الصهيوني بـ«معاداة السامية»، ومقاضاة عدد لا يحصى منهم ومن الداعين إلى مقاطعته، وشكلت حلفاً مع «اتحاد الطلبة اليهود» و«اتحاد رجال الأعمال اليهود» و«الرابطة الدولية

لمكافحة اللاسامية»، و«غرفة التجارة الفرنسية الإسرائيلية»، وجمعيات الصداقة مع الصهاينة إلخ... وتمكنت في بداياتها من ضم عدد هام من مناضلي «المجتمع المدني» و«منظمات اليسار» (خصوصاً من تيار الأممية الرابعة، التروتسكي)، وقد ساعدها على ذلك الإمكانات المادية الهائلة والسياسة الإعلامية المدروسة التي يشرف عليها محترفون من الدرجة الأولى عالمياً، أشرفوا سابقاً على الحملات لمصلحة الجناح اليميني في نقابة «تضامن» البولندية والحملات المطالبة بخروج «المنشقين» السوفيات من الاتحاد السوفياتي نحو فلسطين المحتلة، مثل تشارنسكي الذي أصبح وزير داخلية في حكومة الكيان الصهيوني... وكانت SOS racisme تروج في بداياتها رفض الإقصاء وقبول الآخر ثم أصبحت بوقاً لدولة «إسرائيل» وللأيديولوجيا الصهيونية، بدعوى «قبول الآخر المختلف، وعدم إقصائه»، واتهمت كل من انتقد ممارسات إسرائيل بمعاداة السامية.

ومن هنا خرجت المسألة من الملفات السياسية لتدخل المحرمات الأخلاقية حيث اقتنع اليهود الفرنسيون بأن القطيعة مع السلطة السياسية تبدّدت نهائياً. وما أن اطمأنت الجالية اليهودية إلى السلطة الجديدة حتى وقع انفجار شارع كوبرنيك وبعد مرور ساعتين على الحادث، طلب ميتران إلى مستشاره جاك أتالي أن يشرح له الموقف، لكن هذا الأخير لم يخف غضبه من اللامبالاة التي تهيمن على أجواء الإليزيه، وشاركه في هذا الغضب رئيسه الذي اندهش من ردود أفعال بعض مراكز قوى السلطة، آنذاك قال له ميتران:

ـ ماذا تفعل هذا الصباح؟

أجابه أتالي:

ـ ذاهب لزيارة معبد كوبرنيك.

فأجابه الرئيس على الفور:

ـ لا تتحرك .. سأذهب معك.

مما لا شك فيه أن الرجل السياسي الوحيد، الذي أبدى تعاطفه المتحمس لليهود من بين الطبقة السياسية هو ميتران. وهذا الرأي لمستشاره المعروف جاك أتالي.

أسئلة محيرة يطرحها الناخب الفرنسي، وهو يتجه نحو صناديق الاقتراع المحشوة بالإيمان اليهودي والصراع على السلطة. ولعل أول هذه الأسئلة المحيرة هو: ما الذي دفع ميتران، ابن العائلة الكاثوليكية العريقة أن يفهم اليهودية واليهود على هذا النحو وبهذه الحماسة؟ هل نصدق جاك أتالي حين يقول بأن (ميتران يهودي أكثر من غالبية اليهود المحيطين به. هذا الرجل الذي كان كثيراً ما يعيب على أصدقائه اليهود بأنهم ليسوا يهوداً كما ينبغي)، بل يذهب ميتران في تعاطفه مع اليهود أبعد من هذا الحد بقوله: «إن المرء حين يكون يهودياً يكون محظوظاً»، وماذا يقول عنه زوج أخته روجيه هانة؟

ـ في أحد لقاءاتنا حول مائدة الطعام في منزله بمنطقة (لاندز) طرحت عليه مسألة تطويب اليهودية التدريجي ـ والحتمي ـ في المجتمع الفرنسي لكنه وقف بشدة ضد تحليلي هذا وشرح لي بأنه لا يعتمد إلا علينا نحن اليهود لمنع هذا الاحتفاء وهذا التطويب، ثم يضيف قائلاً: «وربما كان يشغل هذا الأمر أكثر مني شخصياً»، ويؤكد هذا الشغف باليهود تحليل أتالي: لم ينحدر ميتران من ثقافة كاثوليكية كلاسيكية أو تقليدية بل تربى كأي بروتستانتي، قليل العلاقة أو لا علاقة له بالكنيسة بقدر ما له علاقة مباشرة وعميقة بالنصوص الدينية.

أما جان دانيال، رئيس مجلة نوفيل أوبسرفتير، فيقول: «ولد ميتران في عائلة كاثوليكية تمارس عبادتها، وتلقى ثقافة مسيحية حيث عُمّد وتزوج في الكنيسة، إلا أنه كان يحمل في أعماقه ريبة هائلة ويقظة استثنائية بإزاء ما كان يأتي من المؤسسة الكاثوليكية»، بل يذهب ميتران أبعد من ذلك حيث ينظر إلى اليساريين المسيحيين على أنهم يفتقرون إلى الفهم الواضح،... كان من الطبيعي جداً أن يشعر اليهود بالطمأنينة إزاء الرجل الذي ينتمي إلى الفلاسفة الساميين.

فإذا كان ميتران يفكر على هذا النحو، فإن اليسار الفرنسي كان ولا يزال يفكر

في صوته الانتخابي.. وليس من قبيل المصادفة أن يسيطر اليهود سيطرة تامة على اليسار الفرنسي، وربما لهذا السبب ينحدر معظم مستشاري رئيس الجمهورية الفرنسي من أصل يهودي. وهم ليسوا طارئين، بل يتمتعون بثقل اقتصادي وإعلامي وسياسي.

بماذا يحلم يهود فرنسا بعد ذلك؟

هل يحلمون بتحويل قصر الإليزيه إلى معبد يهودي يطوفون حوله بأرصدتهم المالية، أم يحلمون بتحويله إلى مركز بلدية يتلقى أوامره من إسرائيل؟

بالرغم من التعاطف الذي كان يبديه ميتران نحو الجالية اليهودية، كان اليسار يتخوف من هذا العنكبوت الوحشي الذي يلقي بأمواله في كل الصناديق ويغرق كل الأسواق بتأثيره. لذا أقدم الاشتراكيون على تأميم أقدس مكان لليهود وهو بنك روتشيلد، بحيث قال عنه، نائب مدينة ليون، ميشل نوار: «يحطم الاشتراكيون بهذا العمل مكاناً مقدساً ليهود فرنسا»، أما البارون غي، مدير هذا البنك، فقال: «عندما فتحنا بنك روتشيلد، رحب بنا وزير المالية جاك ديلور وكان حزيناً لاحقاً لقرار التأميم وقد فهم مرارتنا، ولم يكن هناك سوى مطلب واحد وهو ألا نستخدم اسم روتشيلد بحجة أننا نواجه بذلك مشكلات خطيرة مع النقابات» هذه هي الحال، تراثنا عبارة عن ـ تابو ـ محرمات مزعجة للجميع.

والسؤال المطروح هو: هل كان هذا القرار خاضعاً لضغط الحزب الاشتراكي الفرنسي، الذي رأى في هذا البنك مركزاً لاستقطاب السياسيين وإيقاعهم في فخ الأموال، أم أن قرار تأميم هذا البنك اليهودي طمس مجموعة من الفضائح ودفنها في كواليس السياسيين بعيداً عن صناديق رجال المصارف المهندسين؟ وبالرغم من كل ذلك، كانت إسرائيل تعشش في رأس ميتران كطائر خرافي فبعد مدة وجيزة من دخوله قصر الإليزيه، أعلن عزمه زيارة إسرائيل وهو بذلك نفذ عهداً قديماً اتخذه على عاتقه. وزاد من تقارب الجالية اليهودية من ميتران اتهام مناحيم بيغن جيسكار ديستان في أثناء الانتخابات بأنه تخلى عن إسرائيل حتى دفع سفير الكيان الصهيوني في باريس، ميير روسين، إلى التعليق على تصريحات بيغن بأنه لا يمتلك الحق في

توجيه أصوات الناخبين من اليهود الفرنسيين، ولم يبدأ التفاهم بين يهود فرنسا وقصر الإليزيه حتى أعلن ميتران زيارته لإسرائيل في آذار/مارس عام ١٩٨٢. ولم يؤثر في زيارته للقدس قصف الطيران الإسرائيلي مفاعل تموز/يوليو في العراق في ٩ حزيران/يونيو من العام ١٩٨١ الذي بناه المهندسون والفنيون الفرنسيون، بل اكتفى بالتنديد بالكيان الصهيوني عبر لقاء هاجم فيه بيغن وطالبه بتقديم شروحات كافية لأسباب هذه العملية الجوية، وإذا كان جيسكار ديستان قد راوغ الأوروبيين في شجب مقررات كامب ديفيد في قمة فينيسيا عام ١٩٨٠، فإن ميتران أقدم على ممارسة سياسة تتناقض وتقاليد دبلوماسية الجمهورية الخامسة بقوله علناً دون تردد: إنني صديق لإسرائيل والرجل السياسي الوحيد من بين مسؤولي حزب فرنسي كبير استحسن مقررات كامب ديفيد.

وأضاف: إن لكل شعب الحق في وطن، ولكن ليس من حق منظمة التحرير الفرنسي أن تنكر على إسرائيل حقها في الوطن، ألا يمكن أن نبني شيئاً على قاعدة تحطيم إسرائيل وهو ما لا يسمح به شعبها وهو على حق.

في الحقيقة، إن ميتران يعبر بذلك عن جوهر تفكير اليسار الفرنسي، ولكن بنوع من الدهاء والمخاتلة. ولعل خطاب ميتران في الكنيست الذي حدد فيه علاقته باليهود يلخص كل ذلك: (نحن فرنسا، لا ندخر وسعاً في بذل كل ما نمتلكه لكي يصبح حق إسرائيل في الوجود معترفاً به عالمياً ويعترف بحقها في الحصول على وسائل هذا الوجود).

وبهذا الخطاب يشطب ميتران خمسة عشر عاماً من السياسة الديغولية إزاء العرب، وبالرغم من كل ذلك فإسرائيل غير راضية عن فرنسا، بل إنها لا تغفر لها حتى سياستها الماضية، وسط تأكيدات ميتران بأنه لم يتخل عن إسرائيل في اللحظات الحرجة عندما كان وزيراً شاباً بدعمه عملية الهجرة اليهودية إلى فلسطين عام ١٩٤٧. وظلت إسرائيل غير راضية عن فرنسا حتى عندما أوعز ميتران إلى وزير التجارة ميشيل جوبير، الذي تنظر إليه إسرائيل بحقد، أن يلغي دعوة الغرب إلى مقاطعة إسرائيل تجارياً، حيث

أكد ميتران في خطابه في الكنيست الإسرائيلي بأن: (الشعب الفرنسي صديق لشعب إسرائيل... حيث شعر بالارتياح عند تأسيس دولة إسرائيل أما ـ الهولوكوست ـ فقد ترسخ في روحه الذي لا ينفصل عن ولادتكم). وقد أدت الأيام الإسرائيلية الثلاثة التي أمضاها ميتران، بصحبة جان بوبرين وكلود لاندزمان، المتعصبين لإسرائيل، إلى نتائج سياسية لاحقة بالنسبة إلى العلاقة الفرنسية ـ الفكرية وضرورة قيام علاقات جديدة مع إسرائيل التي أنقذها ميتران من الانغلاق الأيديولوجي، الذي وقعت فيه عشية حرب الأيام الستة. وهكذا عاد اليسار الفرنسي إلى ترداد أطروحاته ومفاهيمه التقليدية، التي تؤكد أن المشكلة اليهودية نتيجة منطقية للظلم الرأسمالي، وأن اليهود هم ضحايا هذا النظام. ولم يكتف ميتران بذلك، بل وجه نقده اللاذع إلى اليسار الغربي وحتى إلى يسار العالم الثالث الذي يصوِّر إسرائيل كشيطان شرير بصورة كاريكاتيرية، وهكذا انقلبت أطروحات اليسار التي راحت ترى في خلق دولة إسرائيل عاملاً من عوامل تحقيق العدالة والتقدم، ولكن يهود فرنسا يدركون بأن جزءاً كبيراً من الطبقة السياسية الفرنسية، وفي عدادها الحزب الاشتراكي لا يستحسن آراء ميتران.

وتتوالى الأحداث السياسية في فرنسا، ويبرهن الرئيس الفرنسي في كل مرة ولاءه المطلق لإسرائيل، ونذكر على سبيل المثال وليس الحصر، حادثة انفجار مطعم (غولدنبرغ) الشهير الواقع في الحي اليهودي، الذي تسبب بمقتل ستة أشخاص وجرح عشرين آخرين في ٩ آب/أغسطس من العام ١٩٨٢، أي بعد مرور بضعة أسابيع على دخول إسرائيل بيروت. ما الذي جرى بعد هذا الحادث؟ قبيل ساعات هب ميتران بمرافقة وزير داخليته آنذاك غاستون ديفيد لزيارة المعبد اليهودي الكائن في شارع (بافيه) بجوار مطعم (غولدنبرغ). وهنا، عند بوابة المعبد، تظاهر اليهود متهمين ميتران ووزير داخليته بـ (التآمر) مع (القتلة) و(خيانة) إسرائيل. فلم يتحمل غاستون ديفيد هذا المشهد في حين ظل وجه ميتران بدون أية ردود فعل، بل ذهب أبعد من ذلك حين أمر حراسه بألا يدفعوا المتظاهرين مهدّئاً غضبهم بعبارة واحدة: (كنت ولا أزال صديقاً للجالية اليهودية في فرنسا، وما هذا التعصب ـ الإرهاب ضد اليهود ـ إلا حالة من حالات التعصب الأخرى التي أجد نفسي أمامها دائماً).

وعادت العلاقات بين ميتران واليهود حتى انفجر التوتر في العام ١٩٨٩، تاريخ زيارة ياسر عرفات قصر الإليزيه حيث لم يستطع العقل اليهودي استيعاب مغزى تلك الزيارة، ولم يغب عن ذهن ميتران، في هذا اللقاء، ما قاله لمسؤولين فلسطينيين - رئيس بلدية - نفتهما السلطات الإسرائيلية، بأنه لابد من التخلي عن فكرة تدمير الدولة اليهودية.

يقول الصحافي الفرنسي فرانسوا كاسترو - فابيوس بشكل ساخر عن ميتران: «بأن الأمر الوحيد الذي يعيبه يهود فرنسا على ميتران هو كونه غير يهودي»، وربما تساءل: هل يستبدل ميتران كنيسة نوتردام بمعبد كوبرنيك ليمارس طقوس عبادته؟

... ما زال الوسط السياسي الفرنسي ينظر، بحيرة وارتباك، إلى هذه العنكبوت التي نسجت خيوطها من بين لحى اليهود... وسراديب قبعاتهم السوداء، وظهرت إلى السطح لتغطي سماء السياسة الفرنسية، بشبكة من الأسئلة المحيرة، فما كان لهذه العنكبوت - اللوبي الصهيوني - أن تمزق كفنها لا كعنكبوت واهية الحركة، بل كوحش متزن لولا المناخ الملائم الذي وفره لها رأس الهرم السياسي فرانسوا ميتران.

في العام ١٩٨٦، هاجم جان - ماري لوبين رئيس الجبهة الوطنية اليمينية المعروفة، أربعة من أهم الصحافيين اليهود الذين لا يهيمنون على الصحافة الفرنسية فحسب، بل يرسمون عقول الصغار والكبار، هم جان - فرانسوا كان، جان دانيال، وإيفان ليفي، وان سانكلير، ولوبين هذا السياسي الاستفزازي، لا تهدأ حركته. يلقي، بين حين وآخر، حجراً في بركة السياسة الفرنسية الراكدة، فما أن تهدأ دوائرها الملتوية، والطافحة إلى ضواحي باريس العمالية ومدن فرنسا الصناعية، ومدن كان وسان تروبيه ومونت كارلو السياحية، حتى يعيد الكرة ثانية. روحه الاستفزازي هذا لا ينبع من عقل لامع بقدر ما ينبع من شهوة المشاغبة السياسية. فقد وضعه هذا الروح - الاستفزازي - في صميم الأحداث شاء أم أبى. فقبل مدة وجيزة، وبعد هجوم على الصحافيين اليهود، صرح بأن غرف الغاز التي أعدها هتلر لليهود كأفران للإبادة في إبان الحرب العالمية الثانية ما هي إلا مسألة مشكوك فيها ولا تعدو أن تكون

تفصيلاً من تفاصيل التاريخ، ولم يتوقف عند هذا التصريح ـ الخطير ـ بل ذهب أبعد من ذلك في قوله بأن اليهودية العالمية تساهم في تغذية الروح المعادي للقومية، ولم يقف لوبين عند هذا الحد، بل أكد عند استضافته في البرنامج التلفزيوني الاستعراضي (ساعة الحقيقة) أن (لليهود سلطة كبيرة في عالم الصحافة)، وبدأ همس الجالية اليهودية يمتد من أزقة الأحياء المحصنة بالمعابد والأسلحة ليتحول إلى غضب واحتجاج وتصريحات وبكاء. ماذا؟ «اللوبي» الصهيوني؟ ومع أن لوبين لم يلفظ هذه الكلمة طوال حديثه، لكن قاعدة اليهود الفرنسيين شعرت بوخز الإبرة في جلدها من تحت الثياب، وراحت تستذكر وجود هذا (اللوبي)، بل هي لا تعترف به، بيد أن الرأي العام الفرنسي يؤمن بوجوده.

تروبين جويف ـ المجلة اليهودية ـ طلبت إلى شركة (سوفريس) للإحصاءات إجراء تحقيق لها بخصوص هذا اللوبي، فأشارت نتائج الإحصاء إلى أن لليهود سلطة عالمية حقيقية لأنها تربط بين اليهود من مختلف أنحاء العالم، إن انتقاد جان ماري لـ (اليهودية العالمية) وكشف دورها في خلق اللوبي على الأرض الفرنسية جعلاه يظهر كوحش في نظر اليسار.

هذا اللوبي العنكبوتي الذي يرعى مصالح الجالية اليهودية ويضع مصالحها فوق مصلحة المجتمع الفرنسي قاطبة ليس من صنع الخيال، كما يتبادر إلى الأذهان، فهو يمتد من عالم الأموال والاقتصاد والأرصدة مروراً بالإعلام ووسائل الإعلام، إلى أن يتحكم في كواليس الإليزيه ويرسم السياسة الفرنسية، وذلك من خلال ثلاثة رجال معروفين: جاك أتالي، روبير بادنتير، وروجه هانة. وأولئك ينتشرون كالشظايا ويمارسون ضغطاً جماعياً مؤثراً في السياسة الداخلية والخارجية.

روبير بادنتير، وزير العدل المكروه من قبل حكومتي موروا وفابيوس، استطاع أن يقتحم عالم القوانين الفرنسية ويلغي (عقوبة الإعدام) ويكسب بذلك نصراً سياسياً لا مثيل له. منحه ميتران هذا المفتاح ليسجل اسمه، مرة واحدة إلى الأبد، في سجلات التاريخ الفرنسي أولاً وفي تاريخ الجالية اليهودية ثانياً. روبير بادنتير، يهودي عريق

لم يتردد في السبعينيات في ترؤس المؤسسة المالية اليهودية المعروفة بـ (الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد). هذا الرجل الذي أزاح عن أعناق الفرنسيين مقصلة الموت، لا يتردد في صنع مقاصل الموت للآخرين، للفلسطينيين إذا لم تخني الذاكرة من خلال دعم هذا (الصندوق السحري) إسرائيل.

هل أراد ميتران بذلك منح بادنتير شارة أو وساماً يبقى متألقاً في تاريخ الفرنسيين، وكذلك في تاريخ يهودها. يقول بادنتير: «منحني ميتران فرصة مذهلة لأعرض مسألة إلغاء ـ عقوبة الإعدام ـ على الجمعية الوطنية، أعرف أنها ليست مهمة سهلة، فهي أدت إلى إثارة كل الأحقاد من حولي». وهكذا بزغت شخصية بادنتير بين رجال السياسة المتكاثرين لتمارس دورها الفاعل على مجمل مكونات المجتمع الفرنسي وهو تأثير فعال، داخلي وسري، وهذا هو طبيعة اللوبي الذي يعمل خفية في كواليس الدوائر وصالونات الكوكتيل.

... (يهود الرئيس)، عبارة أطلقها الشارع الفرنسي على ميتران بعد أن خرج أولئك السياسيون من السر إلى العلن. ولم يحن الوقت للتساؤل عن شخصية جاك أتالي وطبيعة علاقته المتميزة بالرئيس الفرنسي إلا بعد عشرة أعوام. هذا المقرَّب من الرئيس أثار رجال الطبقة الحاكمة والمعارضة على السواء... فالغموض الذي يلف شخصيته يلف منصبه في الدرجة الأولى. وجاك أتالي لا يحب الأسئلة المحرجة (لا أحد له الحق في معرفة ما يجري بينه وبيني)، يقصد بينه وبين الرئيس الفرنسي، هكذا وبعبارة واحدة يسدل ستاراً كثيفاً على الحوارات الحميمة بينهما، تلك التي ترسم سياسة فرنسا برمتها وهناك دائماً عيون تراقب هذا المستشار المدلل وتريد التخلص منه.

لكن أتالي، بذكائه المعروف وحنكته السياسية يدافع عن نفسه ويبعد من حوله شبهة اليهودية حين يقول: «إنني لست يهودياً تابعاً للرئيس... فقد كنت أرفض ولا أزال أن أشغل نفسي بقضايا الجالية اليهودية في قصر الإليزيه».

ولكن من يثق بأقوال الرجل الأول في اللوبي الصهيوني في فرنسا؟

الرأي العام الفرنسي ليس مخدوعاً إلى هذا الحد، وليس بمصادفة أن تطلق عليه تسمية (يهودي البلاط). فهي ليست مستخرجة من بطون القواميس بقدر ما هي مستخرجة من الشارع الفرنسي. (يهاجمونني لأنني أزعجهم.. نعم.. نعم، إني يهودي.. وإنني في الإليزيه من دون وظيفة محددة. أبدي رأيي في كل الأمور، لكن علاقتي مرتبطة بالرئيس فقط ولا أعرف أحداً غيره)، الرأي العام يعرف هذه العلاقة وربما يتطير منها لأنها تكاد تكون علاقة غامضة. وميتران يصطحب مستشاره أينما سافر في الطائرة الرئاسية الشهيرة الكونكورد. وحواراتهما المعرفية حول الإنجيل واضطهاد اليهود، كثيراً ما تتم على متن هذه الطائرة خارقة السرعة.

ما هي السلطة في نظر أتالي؟

... يقول أتالي من دون تردد بأن (السيطرة على السلطة هي جزء من اللذة)، هذه الشخصية المثيرة للقلق ما أن تتحدث حتى يصمت الجميع. رجل إضافي بالنسبة إلى الكثيرين وخصوصاً من المناصرين للعالم الثالث والقضية الفلسطينية الذين يعتبرونه، من دون تردد أو أسف (عميلاً إسرائيلياً). فهو الذي دفع ميتران إلى تغيير سياسة فرنسا الخارجية وإعادة توازنها مع الدولة اليهودية، فقد بعثه ميتران إلى إسرائيل مرات عديدة، ممهداً بذلك الطريق لزيارته الرسمية، وكان أتالي يعرف حق المعرفة بأنه يدخل رأسه في هذه الملفات الاستثنائية ـ العلاقات الفرنسية الإسرائيلية ـ التي لا تشبه غيرها من الملفات، وهو يمسك بلعبة الصمت ليثير جملة من التأملات والأقاويل... والرأي العام الفرنسي يعرف هو الآخر بأن أتالي يزرع في رأس ميتران جميع الأفكار تقريباً، وخصوصاً ما يتعلق بالصراع العربي ـ الإسرائيلي.

والسؤال المطروح هو:

في أي اتجاه يؤثر أتالي في العلاقات الفرنسية ـ الإسرائيلية؟

المعروف أن جاك أتالي ساهم إلى حد كبير في تقريب وجهات النظر بين الحكومتين الفرنسية والإسرائيلية.

قال عنه أحد الصحافيين بأنه (اختار أن يمشي بحرية على أرض الآخرين، وهو موقف لا يتحمله الآخرون بالضرورة)، ولعل ما يثير غضب الآخرين هو تقربه إلى الإليزيه. فلم يتمكن أي سياسي، منذ انتخاب ميتران وحتى الوقت الحاضر أن يتقرب إلى الإليزيه وكواليسها مثل جاك أتالي، فقد حاول الصناعي المعروف، جان ريبو، وهو مقرّب إلى ميتران أيضاً، أن يدافع عن اللوبي البروتستانتي لكن محاولته باءت بالفشل. ليونيل ستوليريو، وهو وزير سابق، اقترح على الفرنسيين نسيان أو تناسي صفة اليهودية لهذا السياسي أو لذاك... وهو أمر في منتهى الصعوبة.

الرأي العام الفرنسي يعيب على اليهود مواقفهم السياسية الازدواجية.

ما الذي يدفعهم إلى هذ السلوك؟ هل هو الشعور بالهامشية؟

رد الفعل إزاء الهامشية يدفعهم بدون شك إلى التكتل والتجمع والاتصال على شكل لوبي في صفوف الأنتلجنسيا والإعلام والسياسية.

يتجمع هذا اللوبي في المدن الكبرى بينما يسعى قادته إلى زرعه في المدن الصغرى والأحياء.

كان فرانسوا ميتران، محاطاً بالمستشارين اليهود من جميع الأجيال. جورج دايان وجورج بوشان، وهما رفيقا مقاعد الجامعة. ولم يأت دور جاك أتالي إلا بعد مرور عشرة أعوام، أما رجال الظل الآخرون من هذا اللوبي، فهم لوران فابيوس الذي ترأس الحكومة الفرنسية مدة من الزمن، وهنري وبيير الجامعي، وجو دنيال رجل الاتصال، وجيرار أنكر رجل الإعلانات، وموريس بيناساي خبير شؤون الحزب الاشتراكي، وكذلك جاك فريدمان الذي عمل في ظل وزير المالية إدوار بالادور، إضافة إلى جان ـ شارل نوري، ألن بوبليل وهيرفي هالنون الذين عملوا مستشارين مع وزير الاقتصاد السابق ورئيس الوزراء الحالي بيير بيرغفوا.

هذا اللوبي الذي يلتف حول الرئيس ميتران حقيقة يغذيها رجال أمثال روجيه هانه وفرانسواز كاسترو فابيوس، وسيرج موانيه، المخرج التلفزيوني في القناة

التلفزيونية الثالثة. أولئك اليهود يشغلون مناصب مهمة وخطيرة، ويتحركون بطريقة منتظمة ومدروسة. ولا تؤثر انتماءاتهم إلى الحزب الاشتراكي في تفكيرهم الخاص.

النجمان المفكران، بيرنار - هنري ليفي وماريك هالتر ساهما مساهمة فعالة في إظهار هارليم ديزير، رائد منظمة معاداة العنصرية SOS Racisme لكنهما أصبحا، بعد مدة وجيزة، من الآباء الروحيين لهذه المنظمة. وفي أعقاب ذلك، انخرط في هذه المنظمة غالبية الفنانين اليهود أمثال الراحلة سيمون سيمون سينيوريه، كلود ليلوشي، إيف سيمون، بيير دوغلاس، ودومنكي بوديس، نائب مدينة تولوس... فيما انخرط أيضاً بشكل جماعي في هذه المنظمة اتحاد الطلبة اليهود... وكان واضحاً أن دخول اللوبي الصهيوني إلى هذه المنظمة الإنسانية كان يهدف إلى منع دخول الجاليات العربية فيها.

الرئيس الفرنسي... وكذلك جاك أتالي اختارا رجال الظل ليس لأنهم (رجال فكر) وإنما (رجال فعل) حسب تعبير ميتران... ويبدو هذا اللوبي ـ الذي يتكون من رجال الظل ويهود الرئيس ويهودي البلاط الأول - صامتاً، بل غائباً ظاهرياً، لكنه مثل الشخصية اليهودية التي تبدو قوية ومعزولة، مهيمنة وضعيفة، وفي أقصى درجات الميكافيلية تتبادل هذه الأدوار بين حين وآخر حسب الظروف.

بينما يذهب موريس ليفي إلى القول: «إن في الولايات المتحدة رجال أعمال يهوداً يمولون بنسبة معينة من أرباحهم وارداتهم الصندوق اليهودي لكننا لا نغفل مثله. هل لأن الفرنسيين يشعرون بفرنسيتهم ولا يلعبون هذه اللعبة (الخطرة)».

أيهما نصدق: اللوبي الإعلامي؟ اللوبي الاقتصادي؟ اللوبي السياسي بكل مظاهره وقوته المتكاملة؟ هذا اللوبي يعرف تاريخ فرنسا جيداً ويقرأ باستمرار أدق تفاصيله، بل يتذكر القطيعة الأخلاقية التي أحدثتها الديغولية مع إسرائيل، ولم تختف آثار تلك الصدمة حتى العام ١٩٨١ عندما صوتت غالبية الجالية اليهودية لمصلحة ميتران، الذي لم يخف تعاطفه مع إسرائيل وتعاطف حزبه مع الحركة الصهيونية، الذي لا يزال يعتقد بأن جوهر الصهيونية هو الاشتراكية.

التصويت اليهودي.. هل كان يحلم رئيس يهودي بدخول قصر الإليزيه؟

وهنا يلتمع اسم لوران فابيوس رئيس وزراء الحكومة الفرنسية الأسبق، وتلميذ ميتران الذي يعده عبقرية يهودية فذّة. فمنذ ولادته، قررت عائلته أن تربيه على الديانة الكاثوليكية لأنها كانت تحلم له بمستقبل سياسي. تقول سيمون فاي: «كان هذا هو الموقف السائد لأن العائلات كانت تحرص على إعطاء أطفالها أسماء ذات رنين مسيحي»، هل يعني أن عائلة فابيوس تخلت عن اليهودية أم كان ذلك ينبع من شعورها بأن صعود السلّم السياسي الفرنسي لا يمكن أن يتحقق عبر الأسماء اليهودية؟

هل يصبح فابيوس رئيساً للجمهورية الفرنسية؟

... يقول جان بيير الكاباش، المحلل السياسي المعروف: «أعتقد أن ذلك ممكن اليوم»، هذا الأمر كان مستحيلاً بالأمس ولا نعرف ماذا سيحدث غداً، ثم يضيف الكاباش: «في وقت الانتخابات الأوروبية عام ١٩٨٩، يمكنني القول إن رئيس فرنسا يمكن أن يكون يهودياً فقد ذكر لي بعض السياسيين، بكل براءة أسماء ثلاث شخصيات: سيمون فاي، لوران فابيوس، وفيليب هيرزوغ.. وهم من أصل يهودي».

السؤال الذي يطرحه السياسي دانييل ماير الذي خدم اليسار قرابة ستين عاماً هو: هل يتغير موقف الناخبين الفرنسيين نحو رئيس يهودي؟ فاليهودية كما هو مشاع، لن تعيق مسيرة لوران فابيوس نحو الإليزيه.. وإذا ما فشل في تحقيق ذلك فسيكون ذلك لأسباب أخرى.

لوران فابيوس حالة خاصة، تختصر الحلم اليهودي. بالرغم من أنه يظهر، على الدوام، بلباس كاثوليكي ولا يتحدث مطلقاً عن يهوديته، ما عدا تصريحه في صحيفة (لوموند): اليهودية شيء ملقى عليّ من الخارج وهو ليس مخدوعاً على الإطلاق. فمنذ مراهقته كان يدرك بأن جهود والده لن تثمر كثيراً وبأن مصيره لن يكون سوى مصير إحدى الشخصيات اليهودية في روايات سارتر. مصيرها الخيبة، لذا فهو لا يدافع ولا يبرر يهوديته، بل يقر بأن ثمة خطأ لصق به لأنه عمّد طبقاً لطقوس الكنيسة

الرومانية. هنري ويبير، أحد الزعماء السياسيين والمقربين إلى فابيوس: (لا يتحدث فابيوس عن يهوديته مطلقاً.. ولا يصرّح بأنه يهودي ذلك لأنه يعتقد بأنه يدخل لعبة معاداة السامية».

ويضيف صديق آخر له: «.. لا ينطق فابيوس بكلمة واحدة عن اليهودية، لكنه يشعر بوعي أن اليهودية بالنسبة إليه كالعاهة، ومن هنا يبدأ التحدي»، في الانتخابات التشريعية لعام ١٩٨١، أراد رئيس بلدية مدينة (روان) أن يتحدث عن أصوله، ما أثار حفيظة فابيوس فقاطعه غاضباً.

كان من الممكن لفابيوس أن يصطف إلى جانب اليمين الفرنسي، بسبب انحداره من البرجوازية اليهودية الفرنسية كما يقول المحلل السياسي ألن دوهاميل بهذا الصدد: «كان كل شيء يدفعه ليصبح أحد نجوم الجيسكاردية، لكنه اختار التيار المعارض.. تيار ميتران».

ويضيف بول بن موسى، صاحب المطعم الفاخر الذي يرتاده جميع السياسيين الباريسيين: (... ظهر فابيوس كيهودي بسبب نشاط زوجته)، وفرانسواز كاسترو، تعرف قواعد اللعبة جيداً عندما تقول: «عندما كان لوران في منصب رئيس وزراء، كنا نخفي عنه الرسائل المحشوة بمعاداة السامية كوسيلة للهجوم عليه، ما كان يخلق حولنا حالة من الهوس يصعب تحملها».

هل كانت زوجته تخفي يهودية زوجها، المسؤول السياسي، لتعلن يهوديتها؟ صحيفة (الفيغارو) الشهيرة نشرت خبراً فحواه: (إن فرانسواز كاسترو، زوجة فابيوس، المناصرة لإسرائيل، كانت ترفض على الدوام مرافقة زوجها في زياراته الرسمية إلى ألمانيا). يضاف إلى ذلك أن هذه المرأة نصحت زوجها بألا يلتقي ياسر عرفات حين كان زوجها يحضر أحد اللقاءات الأوروبية، لكنها عادت فغيرت رأيها ونظمت لقاء بين النساء اليهوديات والفلسطينيات في بروكسيل قبل أيام من لقاء ميتران ـ عرفات، وكان لنشاطها السياسي تأثير في توطيد العلاقات المتميزة بين زوجها والرئيس الفرنسي.

وفي الحقيقة، إن هذا الموقف لم يكن جديداً على الاشتراكيين، فقد كان ليون بلوم أحد زعماء الاشتراكيين في فرنسا، ورئيس الحكومة (١٩٣٦/١٩٣٨) حليفاً لحاييم وايزمان، أما الزعيم الاشتراكي غي موليه فكان رئيس الحكومة التي خاضت حرب السويس إلى جانب إسرائيل وبريطانيا عام ١٩٥٦... وبعد عدوان ١٩٦٧، عبّرت شخصيات فرنسيّة من زعماء الحزب الاشتراكي عن تعاطفها مع الكيان الصهيوني (غي موليه، وغاستون ديفيد، وفرانسوا ميتران، ومنديس فرانس...)، وساهم الحزب الاشتراكي الفرنسي في تكريس هيمنة الكيان الصهيوني على دول المنطقة وشعوبها وتمكينه من وسائل التفوق والتقدم العلمي، لإعاقة ومنع تطور الدول العربية الاقتصادي والاجتماعي، وجعل «إسرائيل» قوة إقليمية وأداة هيمنة عسكرية وأمنية واقتصادية، ومساعدتها على بناء مفاعل «ديمونة» النووي في صحراء النقب، ودعم المنشآت الزراعية (الكيبوتز) والصناعية (الموشاف)، في إطار هذا التعاون الوثيق، بين الحزب الاشتراكي الفرنسي (والاشتراكية الدولية)، والكيان الصهيوني الذي تركزت قوته في فلسطين.

حكم الحزب «الاشتراكي» فرنسا من ١٩٨١ إلى ١٩٩٥... وذلك قبل أن تخف حماسة زعيمه فرانسوا ميتران لإسرائيل حيث شغل منذ ١٩٤٦ عدة مناصب حكومية، وله علاقات شخصيّة بالزعماء التاريخيين: شمعون بيريز وإسحاق رابين، ومناحيم بيغن، وعرف عنه دفاعه المستميت عن استعمار الجزائر، ووقع (كوزير للقضاء) أول حكم بالإعدام على مقاوم جزائري من جبهة التحرير، ومن أقواله المتداولة آنذاك «أن الحرب هي الشكل الوحيد للتفاوض مع الإرهابيين» (ويقصد بهم مناضلي جبهة التحرير الوطني في الجزائر)... وكانت الحكومة الفرنسية «الاشتراكية» التي شنت الحرب على مصر، ترى في العمل العسكريّ المشترك مع «إسرائيل» فرصة للسيطرة على قناة السويس، وفرصة للتخلص من نظام جمال عبد الناصر الذي قدم الدعم لجبهة التحرير الوطني في الجزائر، ومن نتائج هذه الحرب أن توطدت العلاقات الفرنسية مع الكيان الصهيوني وتوترت مع معظم الدول العربية، ودخل زعماء «اشتراكيون» فرنسيون في مواجهة صريحة مع «العرب»... ومنذ العام ١٩٦٥، أصبح «فرانسوا

ميتران» الشخصية الرئيسية في الحزب الاشتراكي، ووطد علاقات حزبه مع «حزب العمل» الصهيوني الذي أسس زعماؤه دولة الاحتلال وقادوها منذ تأسيسها إلى العام ١٩٧٧ بدون انقطاع... وبدأ جناح «ميتران» في الحزب الاشتراكي «يتفهم» أيضاً أطروحات ياسر عرفات (منذ لقائهما في القاهرة عام ١٩٧٤) بشأن «الحل السلمي» والدويلة، والتنازل عن حق العودة وعن حق تقرير المصير وعن فلسطين التاريخية المحتلة منذ ١٩٤٨... وبدأ الحزب الاشتراكي يعترف بـ«حق الشعب الفلسطيني في الوجود» بعد أن كان يعتبر الفلسطينيين «لاجئين عرباً»... ولما وصل الحزب الاشتراكي إلى الحكم، عام ١٩٨١، عيّن ميتران وزراء عقلانيين، يعتبرهم الرأي العام «متعاطفين مع القضايا العربيّة وقضايا العالم الثالث»، منهم ميشيل جوبير، وكلود شيسون، وميشيل روكار، وجون بيير شافينمان... وحرص الحزب الاشتراكي على تطوير العلاقات مع دول الخليج (التي بدأها جيسكار ديستان)، لضمان التزود بالطاقة، ولبيع الأسلحة والمنتوجات الفرنسية. وكان لميتران سبق تأسيس «منتدى المتوسط»، عام ١٩٨٨، وهو عبارة عن «مؤتمر لدول المغرب العربي ودول أوروبا الجنوبيّة، لبحث قضايا الأمن والتعاون الاقتصاديّ»، وهي الفكرة التي أعيد نقاشها في خلال فترة حكم «جاك شيراك» (١٩٩٥ ـ ٢٠٠٧)، ونفذها ساركوزي تحت اسم «الاتحاد من أجل المتوسط»، لكنها لم تعمر طويلاً بسبب المساندة الفرنسية (والأوروبية) للعدوان الصهيوني على غزّة أواخر ٢٠٠٨ وبداية ٢٠٠٩... وكانت السياسة الخارجية الفرنسية في عهد الاشتراكيين تهدف إلى إدماج «إسرائيل» في حوض البحر الأبيض المتوسط وفرض نوع من التطبيع القسري على العرب، شعوباً وحكومات، وقد طورت علاقاتها بمصر بعد اتفاقيات «كامب دفيد» وتطبيع علاقاتها بالكيان الصهيوني، واصطفت فرنسا «الاشتراكية» وراء السياسة العدوانية الأميركية ضد العراق وضد يوغسلافيا وأفغانستان، وتميزت فترة حكم الحزب الاشتراكي بشن حملات إعلامية عنيفة ضد بعض الأنظمة العربية، التي صنفتها أميركا في خانة «الدول المارقة أو المساعدة للإرهاب» (في عهد رونالد ريغان) مثل ليبيا والعراق وسوريا، وضد إيران والمنظمات اللبنانية المقاومة للاحتلال الصهيوني في الجنوب،

وضد الفصائل الفلسطينية المقاومة... وكان أول اجتماع دولي تحتضنه فرنسا «الاشتراكية» (بعد أشهر قليلة من انتخابات ١٩٨١/٠٥/١٠) هو اجتماع «فرساي» للدول الرأسمالية الكبرى السبع لمناقشة الأزمة الرأسمالية، الذي تحول بضغط من رونالد ريغان ومارغريت تاتشر إلى اجتماع لمكافحة الإرهاب، وكان محتوى البيان الختامي عبارة عن إعلان حرب على ما سمي إرهاب المجموعات والدول...

- ٣ -

نيكولا ساركوزي

أصبح نيكولا ساركوزي رئيساً، فعاد بفرنسا إلى صفوف حلف شمال الأطلسي ودعَم سياسات جورج بوش العدوانية ضد شعوب العالم. وتميزت فترة رئاسته بالدفاع المستميت عن سياسة «المحافظين الجدد». كما أحاط نفسه بعدد كبير من الوزراء والمستشارين الصهاينة المتطرفين. وإمعاناً في الاستفزاز، عين جندياً إسرائيلياً في منصب مستشار برتبة وزير مساعد للهجرة (أرنو كارسفيلد) وعين «فاليري هوفنبيرغ» ممثلة «أميركان جويش كوميتي» في فرنسا، إحدى أكثر الجمعيات الصهيونية يمينية وتطرفاً، في منصب «مبعوثة خاصة إلى الشرق الأوسط، برتبة وزيرة»، كما عين «فرنسوا زيمراي» سفيراً لحقوق الإنسان، وهو نائب في البرلمان الأوروبي، عن الحزب الاشتراكي، ورئيس اللجنة السياسية في «المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية في فرنسا»، اشتهر بترديد نظريات اليمين الصهيوني المتطرف، واعتبار أن لا وجود لأحد اسمه الشعب الفلسطيني، وعين «دوف زراح» (رئيس المجلس الديني اليهودي الفرنسي) ورئيس «الوقف الفرنسي الإسرائيلي»، رئيساً لوكالة التنمية الفرنسية، ومكلفاً ملف «المساعدات الاقتصادية لإفريقيا»، وآلان بويير مستشاراً سياسياً له، مختصاً في شؤون الأمن، وهو يدير شركة أمنية خاصة مرتبطة بالمخابرات الأميركية، قامت بعدد من الأعمال الإجرامية في أميركا الجنوبية وآسيا... ويعتبر نيكولا ساركوزي الرئيس الوحيد الذي لا يتحفظ أبداً عن إبداء مساندته المطلقة للكيان الصهيوني، الذي وصف تأسيسه بـ«معجزة القرن العشرين» (وفاق في ذلك تأييد فرانسوا ميتران لدولة الاحتلال)... وبالعودة إلى ما كتبه «خوسيه ماريا أزنار»، فإن الارتباط وثيق بين اليمين والاحتكارات العالمية والصهيونية، إذ أحاط

ساركوزي نفسه (حين كان وزيراً للاتصالات ثم للمالية والداخلية) قبل انتخابه رئيساً، بمجموعة من أهل النفوذ الصناعي والمالي والإعلامي (مجموعة داسو ولاغاردير وبويغ وبلوري...)، وأعلن انتسابه وولاءه المطلق للمحافظين الجدد وللأيديولوجيا الصهيونية، كأيديولوجيا استعمارية بامتياز، وبدأ حملته الرئاسية من أميركا بخطاب في مؤتمر «آيباك»، وأمام أعضاء «المؤتمر اليهودي الأميركي»، وأعلن من هناك ترشحه للرئاسة الفرنسية، وخصص له الكيان الصهيوني طابعاً بريدياً، في أثناء الحملة الانتخابية، وحصل على أكبر نسبة من التصويت عام ٢٠٠٧، في الكيان الصهيوني، حيث يفوق عدد الناخبين ٦٥ ألفاً من ذوي الجنسية المزدوجة الفرنسية والإسرائيلية، المسجلين في القوائم الانتخابية.

اتسمت العلاقات الفرنسية الإسرائيلية في عهد الرئيس ساركوزي بالتأييد المطلق لإسرائيل، حيث يعتبر إسرائيل خطاً أحمر وقيام دولة إسرائيل معجزة والحدث الأهم في القرن العشرين. أصدر بول إريك بلانرو، كتاب «ساركوزي وإسرائيل واليهود» بعد العدوان على غزّة، وقد طبع هذا الكتاب في بلجيكا عام ٢٠٠٩ ولم ينشر ويوزع في فرنسا عبر مسالك التوزيع التقليدية. ولم تتناوله وسائل الإعلام، لا بالسلب ولا بالإيجاب. يركز الكتاب على الترابط العضوي بين اليمين الفرنسي الذي ينتمي إليه الرئيس نيكولا ساركوزي وتيار «المحافظين الجدد» والمنظمات الصهيونية، على صعيد داخلي وخارجي، كما يظهر الكاتب، بالوثائق، العلاقات الطبقية والمصلحية بين مجموعات من «المحظوظين طبقياً» منهم أصحاب وسائل الإعلام (وهم رأسماليون كبار، يستثمرون في عدد من القطاعات الاقتصادية الأخرى)، والمثقفون اليمينيون المدافعون عن الرأسمالية والاحتكارات والكيان الصهيوني، والصحفيون الذين يمارسون الرقابة الذاتية، كي يحافظوا على امتيازاتهم، والفنانون الأثرياء المتهربون من دفع الضرائب.

- ٤ -

رموز الداعمين للصهيونية في فرنسا

من أهم الرموز المؤثرة في المحيط السياسي الفرنسي هم القادة السياسيون، منهم الرؤساء مثل فرانسوا ميتران ونيكولا ساركوزي، ودومنيك ستروس كان، وبرنار كوشنير وفردريك ميتران وإريك راؤولت وبيار للوش، وكلود كوسغان، وصحافيين منهم فيليب فال (مدير إذاعة القطاع العام، «فرانس إنتار») وآن سان كلير (زوجة ستروس كان) وكرستين أوكرانت (زوجة برنار كوشنير) وإيفان لوفاي وألكسندر أدلر، أو مالكين لوسائل الإعلام، ومنهم برنار هنري ليفي، وعائلة «عموري» (لوباريزيان، ليكيب...) وعائلة «داسو» وما تملك من صحف وطائرات «رافال» الحربية المعروفة، ونواب في البرلمان الوطني الفرنسي أو الأوروبي وهؤلاء لا يحصى عددهم، في صفوف اليمين واليسار. إضافة إلى تيار «الفلاسفة الجدد».

ولم يتردد قادة فرنسا، يمينيين كانوا أو يساريين، في دعم وتمويل الجمعيات الصهيونية، المغلفة بالدين (دعامة الدعاية الصهيونية) والمدارس الخاصة ودور العبادة.

ويأتي تأثير اليهود الفرنسيين من خلال تأثيرهم في المناطق الحساسة كما تؤكد الصحفية آن سانكلير، فقد اخترقوا جدار المجتمع الفرنسي وأحدثوا تغييرات جذرية في بنيته، بحيث حقق بلوم مكاسب اجتماعية للجبهة الوطنية، وفك مانديس الارتباط الاستعماري بفرنسا، وأقرت سيمون فاي حق الإجهاض، وألغى روبير بادنتير عقوبة الإعدام. هذه النماذج الأربعة وما حققته من إنجازات اجتماعية ـ سياسية لا تزال تمارس تأثيراتها في العقلية الفرنسية... وهي إنجازات تكاد تكون لصيقة بالجالية

اليهودية.. ومعظم السياسيين اليهود يطمحون إلى تحقيق إنجازات تاريخية وجذرية مثلما حقّقها أسلافهم في السياسة. فاليهودي الفرنسي، سياسياً كان أو رجلاً عادياً لا يستطيع فصل همومه عن هموم إسرائيل كما يعبر عن ذلك روبير بادنتير بقوله: «إن يهود فرنسا يعيشون علاقة غامضة مع إسرائيل» وإسرائيل منعطف ينبغي أن يخوضه اليهودي للخروج إلى الطريق المستقيم، لكن بعض السياسيين الكبار يحاولون إبعاد هذه الشبهة عن أنفسهم، فسيمون فاي على سبيل المثال، تقول بكل سذاجة: «لم أكن أعرف أين تقع إسرائيل بالضبط.. إذ كانت بالنسبة إلي مأوى ليهود آخرين وليس لنا».

الولاء المزدوج: عاهة اليهود الفرنسيين وسرطان العقل الذي يهدد وجودهم، أسئلة محيرة يواجهها اليهودي:

ما هي العلاقات التي تبنى مع إسرائيل؟ هل يستطيع اليهودي الفرنسي العيش في بلد جغرافي وبلد ذهني في آن واحد؟ كيف يتصرف السياسي اليهودي الفرنسي عندما تصطدم المصالح بين فرنسا وإسرائيل؟

... إسرائيل ولدت من العنف ولا تستمر إلا بالعنف، ومن الممكن أن تزول بالعنف.

هكذا يحلل المفكر اليهودي ريمون آرون فكرة إسرائيل.

هذه الحقيقة يعرفها السياسيون اليهود... إنهم يصلون إلى الجمهورية الفرنسية تارة.. وإلى إسرائيل تارة أخرى.

والسؤال الذي يطرحه الرأي العام الفرنسي كيف يتصرف المرشح اليهودي إلى الإليزيه؟ ... لوران فابيوس أو غيره .

هل يتجه إلى الناخبين الفرنسيين بعقله أم بقلبه؟ .. إنها الحيرة، ما دامت عقدة الولاء المزدوج تنخر هذا العقل وتعيقه، ربما من الوصول إلى الإليزيه.. هذا الحلم اليهودي البعيد.. القريب.

- ٥ -

الصحافة والأدب والفلسفة في «المحرقة الفرنسية»

بعد مرور خمسين عاماً على رحيل الكاتب الفرنسي الشهير لوي فيرديناند سيلين، يعود شبحه إلى المشهد الثقافي الفرنسي من جديد. رجل واحد، هو الذي أعاد إلى الأذهان فكرة معاداة السامية، قميص عثمان الأوروبيين، سيرج كلارسفيلد، رئيس «جمعية أبناء وبنات اليهود المرحلين من فرنسا» الذي قدم اعتراضاً إلى رئيس الجمهورية الفرنسية نيكولا ساركوزي، طالباً إليه شطب الكاتب والروائي الشهير سيلين من قائمة المكرمين، قائلاً: «إن عبقرية سيلين يجب ألا تنسينا بأنه الرجل الذي طالب بقتل اليهود في أثناء الاحتلال النازي لفرنسا». وسرعان ما انصاع وزير الثقافة فردريك ميتران لهذا الطلب، مبرّراً شطب صاحب «رحلة إلى أقاصي الليل» من الاحتفالات، قائلاً: «كانت إعادتي إلى قراءة روايته «لا شيء من أجل مجزرة» ١٩٣٧ كافياً لأقتنع بفكرة شطب اسمه من الاحتفالات».

وهنا نتساءل:

هل من الطبيعي أن تنصاع دولة كبيرة مثل فرنسا، لها تاريخ عريق في الديمقراطية، لجمعية معروفة بميولها الصهيونية؟

ففي الأمس، أي في العام ١٩٩٨، وبالطريقة ذاتها، قامت رابطة «ليكرا» أي الرابطة العالمية لمكافحة العنصرية ومعاداة السامية، وهي مركز اللوبي الصهيوني في فرنسا، برفع قضية ضد المفكر والفيلسوف روجيه غارودي، عن كتابه «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» الذي ترجم إلى ٢٩ لغة عالمية، وحوكم ودين بموجب قانون غيسو ـ فابيوس، سيئ الصيت، بالسجن والغرامة المالية، وكنا قد

تفردنا بتسجيل وقائع جلسات هذه المحاكمة ليس في الصحافة العربية، بل الصحافة الفرنسية والعالمية (صدر الكتاب:هذه وصيتي إلى القرن الـ ٢١: حوارات وجلسات المحاكمة ١٩٩٨، عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٧).

والسيناريو ذاته يتكرر مع الروائي سيلين.

سؤال طرحه نخبة من المثقفين الفرنسيين، وهم لا يتفقون على فكرة إقصاء عملاق روائي مثل سيلين، قُسمت الرواية الفرنسية ما بعده وما قبله، ويُقارن عمله الفذ «رحلة إلى أقاصي الليل» برواية «يوليسيس» لجيمس جويس، ورواية «البحث عن الزمن الضائع» لمارسيل بروست، بل يتخطى تأثيره حدود فرنسا وأوروبا حيث يعترف الكاتب الياباني (كنزا بورو أوي) بتأثيره في أدبه ويشهد له أحد أعظم كتاب أميركا اللاتينية (ماريو بارغاس يوسا) بأنه أحد معلمي الرواية العظام في القرن العشرين.

تضاربت ردود أفعال المثقفين الفرنسيين: فيليب سولرز، قال: «إن القرار أحدث صدمة لي»، واستشهد بقول همنغواي الشهير: «عندما تسوء الأمور، يصبح الأدب على جبهات القتال». وأضاف «إن وزير الثقافة الفرنسي أصبح وزيراً للرقابة». وقال بيرنارد – هنري ليفي: «إن هذا التكريم يمكن أن يكشف عن الغموض الذي يصنع كاتباً عظيماً ورجلاً حقيراً في آن واحد» – وهذا الفيلسوف معروف بمواقفه الصهيونية. والفيلسوف ألن فانكلكروت، قال: «لا أعتقد أن كاتباً بحجم سيلين لا يمكن أن يكون بين صفوف المكرمين لمناسبة مرور خمسين عاماً على رحيله. فهذا القرار يحمل نتائج وخيمة لأنه سيعطي الحجة إلى الفكرة القائلة إن ـ اللوبي اليهودي ـ لا يزال يتحكم في السياسة الفرنسية».

في الواقع، هناك الكثير من الأفكار الخاطئة عن هذا الكاتب ومواقفه، فقد صرح: «إنني لم أكتب أي شيء عن اليهود... كل ما قلته هو أن ـ اليهود يدفعوننا إلى الحرب ـ .كانت لديهم حرب مع هتلر ونحن لا دخل لنا في ذلك، ولكننا أدخلنا إليها. لدى اليهود حرب المناحة والفجيعة منذ ألفي عام وهتلر أعطاهم المزيد من هذه المناحة والفجيعة». (مجلة أيفرغرين العدد ١٩/ ١٩٦١).

سيلين المسافر أبداً في أقاصي الليل، دفع ثمن مواقفه في أثناء حياته وبعد رحيله، بل بعد مرور خمسين عاماً على رحيله مثلما دفع الثمن غارودي، مهملاً على فراش المرض، لا يسأل عنه أحد.

تضع الصهيونية رفات سيلين في المحرقة من جديد، لكي يتفرج أنصارها على نيرانها في وضح النهار.

ضجة إلغاء احتفال تكريم سيلين لم تتوقف عند حدود الاختلاف الأدبي والأخلاقي بين وزير الثقافة فردريك ميتران والبروفيسور الكبير هنري غودار، بل امتدت إلى أعضاء اللجنة العليا المكلفة اختيار المبدعين الذين يستحقون التكريم الوطني.

وتتكون هذه اللجنة التي عرفت النور عام ١٩٩٨ بمبادرة أطلقتها وزيرة الثقافة السابقة، المحسوبة على الحزب الاشتراكي، كاترين تروتمان، من الأكاديميين والفلاسفة والأساتذة المرموقين: جان فافييه وآن بلداساري وكاترين بريشنياك وجيل كانتغريل وآلان كوربا وجان ديلومو ومارك فومارولي، وجان نوال جانيني وباسكال أوري وإيمانويال بول وجاك توليبه وكاترين كليمون.

ومن بين هؤلاء الأعضاء، وحدها كليمون، هي التي استقالت من معهد اللجنة العليا للتكريمات الوطنية، احتجاجاً على تكريم سيلين، وهي التي نشرت عشرين رواية أبرزها «من أجل حب الهند» و«عاهرة الشيطان» وأصدرت أبحاثاً عن ليفي شتراوس ولاكان وفرويد.

لكن الروائي المعروف فيليب سولرز، صاحب كتاب «سيلين»، ناصر البروفيسور غودار بقوله: إن «قرار وزير الثقافة ومن ورائه ساركوزي يعدّ رقابة على الإبداع، وسبق لي أن خصصت كتاباً لسيلين المبدع الاستثنائي، ويجب أن يعرف أصحاب القرار أن موقفهم ينم عن عبثية غير مسبوقة، وليس من المعقول أن يطلب مواطن عادي إلى رئيس الجمهورية شطب اسم كاتب في حجم سيلين»، مضيفاً «بهذا الموقف يكون قد حظي بإشهار يخدم جميع محبيه».

أكد سولرز أن «من حق أي واحد أن يعترض على مواقف سيلين وأن ينقده في عدة مجلدات إذا أراد، لكن ممارسة الرقابة عليه عن طريق رئيس الجمهورية تعد موقفاً مخزياً وجنونياً ومحيراً في بلد يدّعي الديمقراطية والتسامح، وفرنسا عرفت روائيين عظيمين هما بروست وسيلين».

يذكر أن كتاب «سيلين الفضيحة» للبروفيسور هنري غودار يلقى إقبالاً كبيراً هذه الأيام مثله مثل كتاب «انتفضوا» للمقاوم اليهودي الشهير ستيفان هيسال (٩٣ عاماً) الذي يهاجم في كل وسائل الإعلام الفرنسية لأنه تضمن فصلاً ندّد فيه بـ«إسرائيل»، التي أبادت الفلسطينيين في غزّة بالأساليب الوحشية نفسها التي تعرض لها اليهود على يدي هتلر، كما عبر فيه عن تفهمه لحركة حماس التي توصف مقاومتها بالإرهابية.

- ٦ -

باريس .. ساحة لاغتيال المناصرين للقضية الفلسطينية

(هذه بعض التواريخ غير الخافية على أحد، والموثقة، التي تكشف إلى أي حد تورطت إسرائيل في اغتيال من يجاهر بفضحها أو نقدها أو الوقوف ضد مخططاتها):

* اختطفت المخابرات الصهيونية، بالتعاون الوثيق مع المخابرات الفرنسية، سنة ١٩٦٥ (في عهد الرئيس شارل ديغول)، المناضل الوطني المغربي «المهدي بن بركة»، المعارض للملك الحسن الثاني، والمعروف على الصعيد الداخلي والمغاربي كمناضل ضد الاستعمار، وعلى الصعيد العالمي كأحد أقطاب النضال ضد الاستعمار والإمبريالية وأحد أعمدة حركة عدم الانحياز (عن كتاب شمويل سيغيف، «الرابط المغربي» (عن علاقات الكيان الصهيوني مع دولة المغرب)، الذي كتب مقدمته رئيس الموساد السابق «إفراييم هاليفي» ٢٠٠٨).

* محمود الهمشري، فلسطيني، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في فرنسا، قتلته قنبلة ناسفة وضعت في منزله في باريس يوم ١٩٧٢/١٢/٨ لأنه تمكن من بناء علاقات طيبة مع مختلف الأوساط السياسية والثقافية الفرنسية.

* باسل الكبيسي، عراقي، أُستاذ في جامعة كاليغاري بكندا (١٩٦٩)، عرف بنشاطه مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، اغتالته عناصر جهاز الموساد في أحد شوارع باريس يوم ٦/ ٤/ ١٩٧٣.

* محمود أبو دية، جزائري، كان يدير مسرحاً في باريس، وعرف بدفاعه عن القضية الفلسطينية، وقربه من منظمة التحرير الفلسطينية، اغتيل في باريس يوم ٢٨/ ٦/ ١٩٧٣.

* محمود صالح، فلسطيني، من «يسار» منظمة فتح، مؤسس «المكتبة العربية» في باريس، كان يعد أحد قادة العمل الوطني السري في أوروبا. اغتيل في باريس يوم ٢/ ٢/ ١٩٧٧ .

* عز الدين القلق، فلسطيني، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في باريس، اغتيل في مكتبه في باريس يوم ٣/ ٨/ ١٩٧٨ (كان منفذ الاغتيال فلسطينياً).

* الدكتور يحيى المشدّ، مصري، عرف بمناصرته للقضايا العربية والفلسطينية، خبير طاقة ذرية، ساهم في تأسيس المفاعل النووي العراقي، وكان متخصصاً في بناء المفاعلات النووية، قُتل في غرفة الفندق الذي كان يقيم فيه، بعد مباحثات أجراها مع لجنة الطاقة الذرية الفرنسية في باريس يوم ١٤/ ٦/ ١٩٨٠ (تبنّى الموساد اغتياله لاحقاً).

* يوسف مبارك، فلسطيني، أحد مناضلي حركة فتح، صاحب المكتبة العربية في باريس، اغتيل في باريس يوم ١٨/ ٢/ ١٩٨٠ .

* فضل سعد عناني، فلسطيني، نائب مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في باريس اغتيل في باريس يوم ٢٣/ ٧/ ١٩٨٢ .

خاتمة

بعد أن استعرضنا نشوء الحركة الصهيونية وتطورها في فرنسا على مدى أكثر من مائة عام أي منذ العام ١٨٩٤ وحتى الآن، لابد لنا من طرح التساؤلات الآتية: هل استطاعت الصهيونية تحقيق أسسها على الواقع الفرنسي؟ وما هي هذه الأسس؟

إن ما ذهبت إليه الصهيونية من وجود «الأمة الصهيونية» في فرنسا ليس له أي أساس من الصحة. فالأمة عبارة عن وحدة ثابتة من الناس تكونت نتيجة التطور التاريخي وتتصف بوحدة الحياة الاقتصادية والأرض واللغة والتراث الثقافي. ولعلنا نتساءل: ما هي الوحدة القومية التي تجمع بين اليهود الفرنسيين الذين جاؤوا من بولونيا، ومن الجزائر والمغرب وتونس وروسيا، وحتى الطقوس الدينية والعادات الاجتماعية تختلف اختلافاً جذرياً بين أبناء الطائفة اليهودية الفرنسية. لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن نجمع الطوائف اليهودية المتنوعة في فرنسا ونطلق عليها اسم «الأمة». ولعل التركيب الاجتماعي والاقتصادي والسيكولوجي والثقافي لكل طائفة يكشف عن الأصول المختلفة التي ينتمي إليها اليهود الفرنسيون. إذن أول دعامة من الدعائم التي نادى بها تيودور هيرتزل لا يمكنها الصمود أمام النقد وهي «أن اليهود المنتشرين في كل بلدان العالم يكوّنون «أمة» واحدة».

إذا كانت النظرية الصهيونية تزعم «أنه ليس في إمكان اليهود الاندماج في نسيج أية أمة يعيشون فيها»، لذا ينبغي «إنشاء دولة يهودية يتجمع فيها يهود العالم قاطبة» فإذا زعم مؤسسو الصهيونية أن لا سبيل إلى حل المسألة اليهودية إلا بتجميع اليهود في دولة يهودية، فلماذا لا تزال هناك طوائف يهودية في العالم وخصوصاً الطائفة اليهودية الفرنسية، التي بلغ عددها ما يقرب من ستمائة ألف نسمة؟ لماذا لم يهاجر يهود العالم كافة إلى «إسرائيل»؟ ولماذا عاد عدد كبير من المهاجرين اليهود

من «إسرائيل» إلى أوطانهم الأصلية؟ وأصبح عدد من يهجرونها أكبر من عدد من يجيء للبقاء فيها.

تركز الصهيونية على أن اليهود في كل مكان وزمان هم هدف الاضطهادات، فالعداء للسامية خالد، سرمدي يستمد أسسه من أن «كل شعب يكره الشعوب الأخرى ولكن جميع الشعوب تكره اليهود على الخصوص» أليس هذا تحليلاً عنصرياً تعسفياً للحضارة وللتاريخ؟ إن الصهيونية ومعاداة السامية تصبان في نهر واحد. والصهيونية تتغذى بفكرة معاداة السامية، وقد أشار هيرتزل في كتابه الشهير «الدولة اليهودية» «إلى أن العداء للسامية سيزول منذ البدء بتحقيق فكرة إنشاء الدولة اليهودية» ولا بد لنا أن نتساءل هل زال العداء للسامية بنشوء الكيان الصهيوني؟ هل يمكننا أن نقول إن فكرة العداء للسامية قد تلاشت من قاموس الحياة الفرنسية؟ الصهيونية بحاجة إلى اللاسامية وذلك لتنفيذ مآربها، والانفجارات التي وقعت في باريس أخيراً في كل من كوبرنيك وشارع روزيير في بارس لخير دليل على ذلك.

يحاول دعاة الصهيونية في فرنسا صهر ثلاثة مفاهيم «اليهود - إسرائيل - الصهيونية» في بوتقة واحدة. وكذلك إجراء التماثل بين اليهودي والصهيوني، أعداء الصهاينة وأعداء السامية، وهكذا فالهدف النهائي من ذلك هو خنق كل نقد لنظرية الصهيونية وممارستها. في وقت تستغل الدعاية الصهيونية هذا التماثل لكي تطالب كل يهودي يعيش في بلد رأسمالي، خارج «إسرائيل»، بتبني سياسية «إسرائيل» الرسمية والنظرية الصهيونية. كما تحاول الصهيونية أن تعتبر هذه النظرية هي المعبر الوحيد عن اليهود علماً أنها ليست سوى أحد التيارات القائمة في الطوائف اليهودية. يضاف إلى ذلك أنها التيار الأكثر رجعية وعنصرية وتعصباً. وليس بالضرورة أن يقدّم اليهودي الفرنسي ولاءه «لإسرائيل» فهو مواطن، بل آخر له واجباته والتزاماته.

من خلال هذه العناصر التي اعتمدت عليها الصهيونية في فرنسا وفي العالم أجمع، نلاحظ أن مشروعها الاستيطاني لم ينجح كمشاريعها الأخرى في اجتذاب يهود العالم كافة إلى إسرائيل، والحقائق الماثلة تفند كل المزاعم الصهيونية. فاليهود

حسب الإحصاءات العالمية في إسرائيل لا يمثلون سوى ١٨٪ من يهود العالم. إن الجاليات اليهودية في إمكانها أن تعيش حياة طبيعية من دون تدخلات الصهيونية، التي تريد على الدوام أن تجعل من اليهود حالة استثنائية، قائمة على التوتر بحيث اضطر عدد كبير من اليهود الفرنسيين تحت الضغوط الصهيونية إلى تغيير أسمائهم ودينهم.

إن الجالية اليهودية التي تحاول الصهيونية استغلالها في القيام بتكوين مؤسسات ومنظمات وهيئات منعزلة عن المجتمع الفرنسي، لهو خطر كبير على اليهود أنفسهم، وإذا أرادت الصهيونية أن تستغل المشاعر الدينية لدى اليهود الفرنسيين، ففي المقابل هناك الدين الإسلامي الذي يعد ثاني دين بعد المسيحية في فرنسا. كما أن العرب والمسلمين يعدّون بالملايين. فلماذا لا يعد أولئك أنفسهم حالة استثنائية كاليهود؟ إن للوبي الصهيوني في فرنسا جذوراً عميقة وهو يتكون ويتبلور يوماً بعد يوم، ويخرج من حالة الكمون إلى العلن ويسعى إلى أغراض بعيدة المدى. نأمل أننا ألقينا بعض الضوء على حركة واسعة ومطّردة كالحركة الصهيونية في فرنسا.

فهرس

بأسماء التنظيمات والتجمعات الصهيونية في فرنسا

أ ـ المنظمات الصهيونية السياسية

- C.R.I.F conseil des Israélites en France.
- Renouveau Juif
- Les fils de l'Alliance
- Congrès Juif Mondial
- Mouvement sioniste de France
- herouth
- Avoda
- Association des étudiants israéliens en France
- Cercle Bernard Lazare
- Alliance France-israel
- Les amis de shalom akhshav
- Hashomer hatsair
- Mizrahi
- Agouth israel
- MAF. Mouvement de l'alyah de France
- Dror
- Agence juive pour Israël
- Ihoud habonom
- Union des étudiants juifs de France

- W.I.Z.O organisation internationale des femmes sionistes
- Conseil National pour la protection des droits des juifs d'URSS
- Comité féminin de soutien aux juifs d'URSS.

ب ـ المنظمات الصهيونية: الدينية والثقافية والاجتماعية

- Consistoire
- Association consistoriale israélite de paris
- conseil représentatif du judaïsme traditionaliste de France
- union libérale israélite
- Hassidim
- Tsaddikim
- Le fond social juif unifié
- Appel unifié pour Israël
- Appel unifié juif de france
- centre rashi de paris
- Dejj
- Eclaireurs de France
- centre universitaire d'études juives
- Institut international d'études hébraïques
- Bibliothèque de l'alliance Israélite universelle
- Centre de documentation juive
- Albin Michel
- Presse universitaire de France P.U.F

ج ـ الصحف والمجلات الصهيونية الصادرة في باريس

- Unzer Wort
- Naie Presse

- Agence télégraphiques juive
- Information juive
- Journal des communautés
- Kadimah
- L'Arche
- Les moreaux cahiers
- La terre Retrouvée

د ـ الإذاعات الحرة

- Radio J.
- Judaïques F.M.
- Radio Communauté
- Radio Shalom

مسلسل الأحداث التاريخية الهامة
(تاريخ اليهود الفرنسيين منذ الثورة الفرنسية)

١٧٩١ حصول اليهود الفرنسيين كافة على الجنسية.

١٧٩٣ صعود موجة معاداة السامية في شرق فرنسا.

١٧٩٧ تقديم الشكوى ضد ربا اليهود.

١٨٠٥ صعود موجة جديدة من معاداة السامية في منطقة الألزاس.

١٨٦٠ تأسيس رابطة اليهود العالمية.

١٨٦٢ ارتباط مجامع الكهنة الثلاثة.

١٨٧٠ هجرة ١٥ ألف يهودي من الألزاس إلى داخل الأراضي الفرنسية، وفي ٤ أيلول من العام نفسه تم صدور قانون كريميو القاضي بإعطاء اليهود الجزائريين الجنسية الفرنسية.

١٨٨٠ تأسيس شركة الدراسات اليهودية.

١٨٩٠ إصدار مجلة «فرنسا اليهودية».

١٨٩٣ إصدار مجلة «الكلمة الحرة».

١٨٩٥ قيام تظاهرات معادية للسامية في أثناء مراسيم تجريد دريفوس من رتبته العسكرية.

١٨٩٧ قيام تظاهرات ضد اليهود في الجزائر.

١٨٩٨ قيام تظاهرات معادية للسامية في باريس والمدن الفرنسية الأخرى.

١٨٩٩

١٩٠٥ هجرة يهود النمسا ورومانيا إلى فرنسا وبدء هجرة الفنانين اليهود إلى مدرسة باريس الفنية.

١٩٠٧ هجرة يهود اليونان وتركيا وبلغاريا إلى فرنسا.

١٩١٩ هجرة جديدة ليهود روسيا ورومانيا واليونان وتركيا إلى فرنسا.

١٩٢٨ فضيحة «هانون».

١٩٣٠ فضيحة «أوستركي».

١٩٣٣ قضية ستافسكي وبداية هجرة اليهود الألمان وانتشار موجة العداء للسامية في الصحافة.

١٩٣٨	وصول اللاجئين الألمان والنمسويين والبولونيين إلى فرنسا.
١٩٣٩	اعتقال اللاجئين اليهود الألمان والنمسويين.
١٩٤٠	إجراءات عديدة ضد يهود فرنسا بعد ولاء حكومة فيشي إلى الحكومة النازية.
١٩٤٣	اعتقال اليهود الهنغاريين في فرنسا.
١٩٤٤	اغتيال شخصيات يهودية معروفة مثل فكتور باك، جان رنيه، ومانديل.
١٩٤٦	تأسيس رابطة الصداقة اليهودية ـ المسيحية.
١٩٤٨	رحيل باخرة الأكسوديسر ـ الشهيرة.
١٩٤٩	تأسيس الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد.
١٩٥٣	قضية «فينلي».
١٩٥٦	بداية هجرة يهود شمال إفريقيا إلى فرنسا ووصول يهود مصر.
١٩٦٢	هجرة يهود الجزائر.
١٩٦٧	تأسيس النداء اليهودي الموحد.
١٩٦٨	رحيل ٥٥٠٠ يهودي فرنسي إلى إسرائيل.

ببليوغرافيا

مصادر دراسة الصهيونية في فرنسا

- Sartre Jan Paul : Réflexion sur la question juive (1946), Gallimard, idées 1962.
- schnapper D : juifs et israélites, idées Gallimard, 1890.
- sorlin pierre : la Croix et les juifs, grasset 1967.
- Seguev sammuel : Israël, les Arabes et les grandes puissances, 1963-19 paris calmann levy, 1968.
- Trigano SH : la nouvelle question juive, idées Gallimard, 1979.
- Tchernovitz J : juifs en guerre, paris, Ed. de la terre retrouvée, 1947.
- Vidal naque pierre : les juifs, la mémoire et le présent, PCM 1981.
- Weinbero H : les juifs de paris de 1933 à 1939, Calmann - Levy, 1974.
- Wiesel Elie : être juif, c'est quoi ? Figaro littéraire, 10-16 Fev 197
- Marrusm et Paxton R : vichy et les juifs, Col. Diaspora, Calmann Levy 1981.
- Memmi Albert : portrait d'un juif, Gallimard 1966.
- Malraux André : les antimemoires, Gallimard, 1967.
- Neher André : l'existence juice, le seuil 1962.
- Philippe B. : entre juif dans le société française, Ed. montable 1979.
- Poliakov L : histoire de l'antisémitisme, 4 volumes, collection liberary de l'esprit, Calmann levy, 1955-1979.
- Presses Albert, l'image du juif dans la littérature romantique française, Diplôme d'étude supérieures, Sorbonne 1965.
- Peyrefitte Roger : les juifs, Flammarion, 1965.
- Rodison maxime : peuple juif ou problème juif ? Petite collection Maspero, 1981.
- Rabi Vladimir, anatomie du judaïsme français, Ed. Minut, 1962.
- Renaut Ernest : le judaïsme comme race et religion, conférence au cercle saint Simon, 27-1-1883.
- Rosny anime J.H : la juive, roman des mœurs israélites contemporaines P. Allendorf, 1907.
- Rosny aine jeune J.H : la juve cretienne, n°58, les matires du roman Editiohns de la nouvelle revue critique, 1931.
- Rabinovith Wladimir, André Gide est-il un antisémite qui s'ignore ? tribuen juive, 11-2-1940.
- Randall Earl Stanle : The jewish character in the Franch Novel (1870-19) thèse, menascha, Xiscosin, 1941.
- Riner Alexandre ; le problème juif au miroir du roman français de l'entre deux guerres, thèse de doctorat présentée à la faculté des lettres et sciences de Strasbourg, 1968 .

- Esptein Simon : l'antisémitisme français aujourd'hui et demain ed. pierre Befond, Paris 1933.
- Fleg Edmon, Pourquoi je suis juif ? Editions de France 1938.
- Girard P : les juifsd de Fance de 1789 à 1860, de l'émancipation à l'égalité. Collection Diaspora, Calmann-Levy 1976.
- Girard pierre : les juifs de France, éditions Brono Haisman Paris 1983.
- Harris et Sedouy : juifs et français le seuil 1979.
- Hermonde Jacques : la gâche, Israël et les juifs d'Israël, Denoel 1969.
- Kriegel Annie : les juifs et le monde » moderne, le seuil, 1977.
- Kaplan Jacob : Judaïsme française et sionisme, Albin Michel, 1976.
- Korcaz Syulvie : les juifs de France et l'Etat d'Israël, Denoël, 1969.
- Lazar David : l'opinion française face à l'avènement de l'Etat d'Israël. Thèse Doctorat de recherche. Fondation nationale de Sciences politique, octobre 1970. Paris.
- Léon A : la conception matérialiste de la question juive, Paris 1946 Ed. Revue et présentée par M. Rodinson, 1968.
- Lehrmann Claude : L'élément juif dans la littérature française I. Les origines à la révolution, Albin Michel 1960. Ii de la révolution à nos nours, Albin 1961.
- Levitte Georges : A changing community in aspects o French Jewry, Valentine Mitchell London, 1969.
- Loewenstein Rodolphe : Psychanalyse de l'antisémitisme, PUF, 1952.
- Marrus : les juifs de France à l'époque de l'affaire de Dreyfus, Préface de Pierre Vidal-Naquet, Col. Diaspora Calmann levyl 196.
- Aremdt Hannah : Eichmann a jérusalem. Gallimard, 1996.
- Aron Raymond : De Gaulle, Israël et les juifs, Plon 1968.
- Aubdry piere : Milieux juifs de la France contemporaine, Plon, 1968.
- Amilcar Alencasre : Le sionisme et le tiers- Monde, SNED, Alger 1972.
- Abitbol Michel : les juifs d'Afrique du Nord sous Vichy
- Avineri Shlomo : Histoire de la pensée sioniste, Editions, J.C. Lattes Paris, 1982.
- Bensimon D : Socio-demmographie des juifs de France et d'Algérie sous la direction de B Blumencranz et de CL. Fahlen, sous presse aux éditions Privat, Toulouse.
- Lumendrahz B. et Zouboul A. : les juifs et la révolution française Toulouse 1976.
- Bourdrel Pillipe : Histoire de juifs de France, Ed. Albin Michel Paris, 1974.
- Cladel Léon : Le juif errant, P. Ollendorf, 1897.
- Cohen Samy : De Gaulle, les gualistes et Israël, ED. Alain Moreau, Paris 1974.
- Clément Claude : Israël et la vie république, Ed. Olivier Orban, Paris 1978.
- Colloque : Israël, le judaïsme et l'Europe- Données et Débats - colloque des intellectuels juifs de langue française. Gallimard, Paris 1984.
- Drumont Edouard : la France juive (1886) Flammarion, 1938.
- DOUBNOV S.M : histoire moderne du peuple juif, 1920, 2 vol, Paris 1933.